

أحرف و الصنائع في عصر الإسلام

منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

٢٠ - ٥٦٧ هـ / ٦٤١ - ١١٧١ م

د. السيد طه السيد أبو سديرة



الألف كتاب (الثاني) ٩٥

أحرف والصناعات في مضر الإسلاميه
ممد الفتح الغروي بحق نهاية العصور المناطص
٥٦٧-٥ هـ . ٦٤١-١١٧٦ م

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

و. سمير سرحان

رئيسة مجلة البدار

رئيس التحرير

لمنى المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

محمود عبده

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

مراد نسيم

أحرف والصناعات في عصر الإسلام

منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

٤٠-٥٦٧ هـ / ٦٤١-١١٧١ م

تأليف

د. السيرة السيرة أبو مديرة



الهيئة الوطنية للأرشيف

١٩٩١

مقدمة

الحمد لله فاتحة كل خير ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . . . فقد حظيت الدراسات الحضارية باهتمام كبير من جانب الباحثين في الآونة الأخيرة ، حتى شملت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وأثرها البارز في نهضة الأمم وتقدمها في مجالات الصناعات والفنون . وكان من بين هذه الموضوعات الهامة التي أفردت لها هذا الجزء من الكتاب لمعالجته دور طوائف الحرفيين والصناع في مصر الإسلامية ، وما بذلوه من الجهد والعرق في أعقاب الفتح الإسلامي حتى زوال حكم الفاطميين ، وما بلغه هؤلاء الحرفيون من مظاهر التقدم والبرقي في مجال حرفهم أو صناعتهم .

وليس من شك في أن الذين عملوا على بناء صرح الحضارة الإسلامية على أرض مصر الطيبة ، يستحقون منا التوفر على دراسة أحوالهم وظروف معيشتهم ، ومدى العون المادي والأدبي الذي نالوه من جانب الولاة أو الخلفاء والوزراء من الحكام المسلمين .

ويتناول هذا العمل مظاهر الحرف والصناعات بكافة أنواعها أي كل الأعمال والمهن والصناعات التي يتكسب الإنسان منها ، وإن كانت المصادر العربية لا تفرق كثيرا بين الحرفة والصناعة في معظمها . .

وقد اشتملت دراسة هذه المظاهر والجهود التي بذلها الحرفيون والصناع خلال تلك الحقبة التي نحن بصددتها على عدة فصول هامة نتناول على منبيل المثال أهم العناصر الرئيسية للفصول الأولى منها .

تناولت في الفصل الأول من هذه الدراسة صناعة الكساء والنسيج ودور الطراز في عصر الولاة ، وما كان يصنع بها من القباطى المصرية وغيرها من أنواع الثياب الكتانية والصوفية ، وشهرة كل من الاسكندرية وتنبس ودمياط وغيرها في شمال البلاد فضلا عن حاضرة الديار المصرية القسطنطية ، وأيضا مصانع النسيج في كل من الفيوم والبهنسا والأشمونين والتبس وطما وأسيوط واخميم في صعيد مصر ، وشملت الدراسة حرفة الصباغة وصناعة الألوان والمواد اللازمة لها وأماكن استخراجها ، كما تم التركيز على أسباب تقدم صناعة النسيج في عهد الطولونيين والاختشيديين أو في العصر الفاطمى ، وما أنتجته دور الطراز من الديباج والحري والشرب والقصب والبوقلمون ، واستخدام أنواع منه للدعاية الفاطمية ، ومظاهر ازدهار فن الزخرفة بفضل تشجيع الحكام الفاطميين ومهارة الصناع والنساجين والصباغين والرسامين ، وما تشهد به تلك القطع الباقية المحفوظة منها بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة أو في المتاحف العالمية .

وقد عقدت الفصل الثانى للحديث عن صناعة البردى في مصر وشهرتها في عصر الولاة ، وما كانت تصدر منه لسائر أنحاء العالم آنذاك ، والأسباب التى أدت الى تقدم الوراقة وصناعة الكتابة أيام الطولونيين والاختشيديين من بعدهم ، وشهرة أسواق القسطنطية في مجال الوراقة واقترانها بالعاصمة بغداد حاضرة الخلافة العباسية . كما أنهيت هذا الفصل بتناول العوامل التى أدت الى ازدهار حرفة الوراقة في العصر الفاطمى وذكر العديد من هؤلاء الوراقين العلماء والأدباء وما بلغه هؤلاء الكتاب الفاطميون في مجال الانشاء والترسل والكتابة واستخدامهم في سبيل الدعاية والاعلام لمذهبهم وحكمهم الذى استمر نحو قرنين من الزمان .

أما الفصل الثالث فكان لتتبع جهود الحرفيين في صناعة الفخار والخزف والزجاج ، ومدى استغلالهم للمواد الخام الموجودة في مصر حينذاك ، وفي دراسة مظاهر التأثير الحضارى بين الصناع المصريين وأقرانهم في العراق خاصة في مجال صناعة الخزف ذى البريق المعدنى في عهد الطولونيين ، وما كشفت عنه حفائر القسطنطية من نتائج فنية في هذا المجال ، ومتابعة الدراسة خلال العصر الفاطمى ، وما أبدعته أيدي الخزافين والزجاجين وغيرهم من صناع البللور والمدارس الفنية المتميزة بصناعتها وما احتوت عليه القصور الفاطمية وخزائنها من روائع الفن الفاطمى .

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن الصناعات المعدنية المختلفة وما كان يتم استخراجها من المعادن في داخل البلاد ، ودور القبائل العربية في استخراج معدن التبر بمنطقة العلاقى بصعيد مصر ، وغير ذلك من

الأحجار الكريمة كالزمرد والياقوت والمرجان سواء من باطن الأرض ، أو من سواحل البحر الأحمر كاللؤلؤ والمرجان أو البلور .

وفي هذا الفصل أمكن معالجة سبل الحصول على الحديد والفضة والنحاس ، وطرق صهرها -بمسابك الحديد والفولاذ والنحاس بالعاصمة القسطنطينية ، وما صنعه الحفارون وغيرهم من الأواني والآلات والتحف المعدنية ، وما بلغت صناعة التكفيت للأواني والأدوات المعدنية زمن الفاطميين .

كما درست في هذا الفصل أيضا صناعة سك النقود بدور الضرب المصرية من الدراهم والدنانير ، وأنواع الفلوس النحاسية ، والإشراف على هذه الدور وما تضمنه من السباكين وغيرهم من الصناع . ولا يمكن أن نغفل صناعة الحلى والجواهر الكريمة فى هذا الصدد ، وطوائف الصاغة فى أسواق القسطنطينية والإسكندرية وغيرهما من المدن المصرية وما كشفت عنه المصادر التاريخية والكتابات العربية من أسماء هؤلاء الصاغة والشهرة التى حظى بها هؤلاء وعلى الأخص فى عصر الفاطميين .

واختتمت الحديث عن الصناعات المعدنية بالوقوف على ما كانت عليه صناعة الأسلحة ، وما اشتهرت به مصر من أنواع المناجيق وغيرها من أنواع الأسلحة الثقيلة إبان الفتح العربى ، وذلك بالإضافة الى أنواع الأسلحة الخفيفة كالسيوف والرماح والجواشن وغيرها ، والتى أقبل العرب على شرائها والانتفاع بها فى عصر الفتوحات الإسلامية ، وشرح الأسباب التى أدت الى اهتمام كل من الطولونيين والأتشيديين بصناعة السلاح وغيرها من أدوات القتال والحرب فى البر والبحر ، ومدى ما بلغت هذه الصناعة من التطور والرقى بعد أن أصبحت مصر مقرا للخلافة الفاطمية .

أما المصادر التى استعنت بها فى إعداد هذا الكتاب فقد كانت كثيرة ومتنوعة ، وذات أهمية بالغة ، ذلك أن البعض منها كان معاصرا لأحداث الحقبة التى قمت بدراستها ، حيث كان أولئك المؤرخون وغيرهم من الرحالة شهود عيان فيما أوردوه من روايات ونصوص عن أسواق القسطنطينية والإسكندرية وغيرهما من المدن المصرية ، وما حفلت به مؤلفاتهم من حقائق تاريخية عن الحرفيين والصناع فى مصر الإسلامية .

ولعل من الانصاف أن أبدأ بأوراق البردى اليونانية والعربية التى تم تحقيقها ونشرها بمعرفة كل من أدولف جرومان ، وبلى وجرنفل وغيرهم ، فقد أمدتنا بمعلومات قيمة عن حياة الحرفيين والصناع وما كانوا يتقاضونه

من الأجور وما يؤدونه من الضرائب والالتزامات الأخرى ، وذلك بالإضافة
الى أنواع السلع والثياب التى شاع نسجها فى دور الطراز واستعمالها منذ
فجر التاريخ .

وبلى ذلك فى الأهمية تلك الكتابات الأثرية التى جمعها كل من فان
برشم وسوفاجيه وكومب وفيت فى السجل التاريخى أو مجموعة شواهد
القبور ، فهى كتابات معاصرة ومحايدة سواء ما نقش منها على لوحات
الرخام على جدران المساجد والمشاهد أو على شواهد القبور وسائر العمائر
فضلا عن الكتابات التى زخرفت بها المنسوجات ومن هذه الكتابات أمكن
الاستدلال على أسماء العديد من أصحاب الخزف والمهن المختلفة ، وأسماء
دور الطراز والأمراء والوزراء والخلفاء العباسيين والفاطميين .

وقد أفدت من المخطوطات العديدة التى أمكن الإطلاع عليها ، مثل
كتاب فضائل مصر وأخبارها لمؤلفه ابن زولاق الذى كان معاصرا للاخشيديين
وأوائل الحكيم الفاطمى ، حيث أشار الى شهرة مصر ووفرة خيراتها
ومعادنها ، وما كان يعمل بها من الدواليب والأرجحة والمناجيق وخبرة
المصريين فى سائر الصناعات والفنون .

ومن المخطوطات التى رجعت اليها مخطوط عيون المعارف وأخبار
الخلايف لمؤلفه القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ ، حيث ترجع أهميته الى أن
مؤلفه كان مؤرخا معاصرا للفاطميين ، وأنه أفادت بصفة خاصة فيما بذله
الخلفاء الفاطميون فى سبيل إقامة المساجد وشتى المنشآت فى عاصمتهم
القاهرة . كما أفدت من مخطوطة صناعة الورق والليق والخبر المحفوظة
بدار الكتب المصرية ، ومخطوطة عدة الكتاب وعدة ذوى العقول والآداب
والألباب فى عمل الليق وصناعة الأذهان . فأنهما كشفنا النقاب عن طريقة
الوراقين فيما كانوا يتبعونه فى تعتيق الورق وفى عمل أنواع المداد
والأحبار المختلفة ، وما يتصل بحرفة النسخ وزخرفة الخزف والزجاج ونحو
ذلك من أعمال الرسامين والصباغين .

ونشير أيضا الى بعض المخطوطات الأدبية التى أشادت بأصحاب
الحرف والصنائع فى العصور الوسطى مثل مخطوط « النوادر والطرف
للوظائف والحرف » لمؤلفه محمد بن مسلم الشافعى ، ومخطوط
« دار الطراز » لمصنفه ابن سناء الملك الأديب المتوفى سنة ٦٥٨ هـ ، فقد
المج كل منهما الى ما كان شائعا من الطرف التى تخص أهل الحرف ومكانتهم
عند الناس ، وما كانت تضمه دور الطراز أو مصانع النسيج من الحريرين
والرسامين والمطرزين ونحوهم .

ونذكر من المخطوطات التاريخية مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان
لمصنفها ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، وكذلك الجزء السادس
والعشرين من نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ، فقد أمدنا كليهما
بمعلومات هامة عن سياسة الفاطميين وتسامحهم نحو أهل الذمة ، فضلا
عما حمله المعز لدين الله من سيئاتك الذهب الى القاهرة ، وعن قيام الفاطميين
بانشاء العديد من القصور والمناظر والمساجد وغيرها مما أدى الى ازدهار
فن العمارة فى مصر الفاطمية .

ومن أقدم المصادر المطبوعة التى أفدت منها فى مجال البحث كتاب
فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، فقد ألح فى
فقرات عديدة الى عرفاء القرى وعرفاء القبائل العربية ودورهم فى تقدير
الضرائب والالتزامات الأخرى على الصناع ، كما أشار الى تخطيط القسطنطين
واقامة الأسواق بها وما كانت تضمه من الحذائين وأصحاب القراطيس ودار
الضرب بالقرب من جامع عمرو بن العاص ، وعمما اشتملت عليه دور
القسطنطين من الحمامات التى تم بناؤها من الآجر والججارة .

ومن المصادر الهامة التى رجعت اليها كتاب الولاة والقضاة للكندى
المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، فقد أمدنا بأسماء الحكام والولاة المسلمين الذين
لعبوا دورا هاما فى تشجيع الحرفيين وفى تقديم بعض الصناعات كصناعة
النسيج والبناء منذ فجر الإسلام . أما كتاب ابن الكندى الذى ألفه فى
عهد كافور الاخشيدى ، المعروف باسم فضائل مصر ، فقد أمدنى بالفقرات
الهامة التى تشير الى شهرة مصر وما كان يعمل بها من السلع وأنواع
النسيج من طراز البهنسا وغيرها من القصب التنيسى والديبقي وثياب
دمياط ، وعمما كان يحمل من مصر الى سائر بلاد العالم من قراطيس البردى
وعسل النحل وغيرها من المواد المصنوعة بأيدي المصريين

وقد أفدت أيضا من كتاب سيرة أحمد بن طولون للمؤلف عبد الله
البلاوى المتوفى بعد نيف وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة ، لما اشتمل عليه من
أخبار بناء القطائع وحصن الجزيرة ودار الصناعة ، واهتمام مؤسس الدولة
الطولونية بدور الطراز وما كان ينسج بدمياط من الخلع الثمينة التى كان
يقدمها الى بلاط العباسيين واهتمامه أيضا بديوان الانشاء وتفضيل المصريين
على غيرهم من الكتاب للعمل به .

أما كتاب العيسون الدعج فى حلى دولة بن طنج الذى نقله إلينا
ابن سعيد المغربى فى سيرة محمد بن طنج الاخشيد ، فلا شك أننى استفدت
منه ، فقد أتى على ذكر أسماء المعمارين الذين قاموا ببناء القصر والبستان

ودار الصناعة في عهد الاخشيديين كما أشار الى مشاركة أصحاب الحرف في تلك الاحتفالات والمناسبات المختلفة التي أقيمت بالقسطاط .
ومن أهم المصادر الأصلية المعاصرة نذكر كتاب أخبار مصر من تأليف المؤرخ الفاطمي محمد بن عبد الله المسبحي الذي تم نشر الجزء الأربعين منه مؤخرًا فقد أشار الى الأسواق المشهورة مثل دار الجواهر ودار الصرف ودار الأنماط وسوق السلاح ، كما أشار الى دور المحتسب والوفاء وديوان العرائف ، وذكر بعض أسماء الدقاقين والنحاسين وفيما اشتهر بعضهم من عمل الدراهم والدنانير وصناعة الزجاج .

ومن المصادر التي اعتمدت عليها كتاب أخبار مصر لمؤلفه ابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وبخاصة فيما احتوت عليه خزائن القصور الفاطمية من أنواع السلاح والفرش والأمتعة والتحف وغيرها من الكتب والمجلدات الثمينة . كما أمدنا ابن ميسر بفقرات هامة عن اهتمام الفاطميين بصناعة البناء واقامة المرصد الفلكي وصناعة الكتابة وعن انشاء دار الضرب بالقاهرة في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله .

ومن المصادر التي أفدت منها كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية لمؤلفه منصور بن بعره الذهبي ، وهو من أغنى المصادر وأقدمها في الحديث عن دور الضرب ودور الصنائع بها من السباكين والضرابين في مصر الاسلامية . كذلك كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للمؤلف أحمد بن يوسف التيفاشي المتوفى عام ٦٥١ هـ ، وترجع أهميته الى أن مؤلف هذا الكتاب كان خبيراً في خواص الأحجار الكريمة . وقد أشار الى كيفية استخراج الزمرد في جنوب الصعيد والى خصائص حجر الطلق وجيد البلور ، والى صناعة المجوهرات الرائجة في القسطاط والقاهرة والاسكندرية وغيرها .

ووجدت في كتاب قوانين الدواوين لابن ماتي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ من الفقرات والاشارات الحافلة بذكر المدن والجهات المصرية ودور الصناعة المختلفة كدار العيار ودار الضرب وخزائن السلاح ، فضلاً عن الفقرات الخاصة بأنواع المراكب والسفن التجارية والحربية التي كانت تصنع في مصر والاسكندرية ودمياط وغيرها من الثغور المصرية زمن الفاطميين ، بالإضافة الى ذكر أنواع الكتاب في ديوان الخراج وغيره من الدواوين الحكومية .

ورجعت الى مقدمة ابن خلدون الشهيرة وأفدت منها خاصة تلك الفصول التي تحدث فيها عن أمهات الصنائع كالبناء والنجارة والحياكة

وشارات الملك المتصلة بالطراز والسكة والخاتم وغيرها من الأسباب التي أدت إلى رواج الصناعات وازدهارها في العصور الوسطى .

ولا يمكن أن نبخس أهمية كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار لمؤلفه ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ ، فهو سجل حافل بأسماء المدن المصرية وأسواقها الهامة وخاصة أسواق القسطنطينة وقيسارياتها ودروبها مثل درب الحدادين والتجارين والحجارين والرفائيين ، وسوق السراجين والوراقين ، والأساكفة ، التي ظلت رائجة منذ عصر الولاة وحتى أواخر أيام الفاطميين ، كما أوضح ابن دقماق ما اشتهرت به القسطنطينة من مطابخ السكر والصابون وغيرها من مسابك الزجاج والفولاذ والنحاس مما اقتصت به العاصمة المصرية آنذاك دون غيرها من الديار المصرية .

ومن المصادر التاريخية التي استفدت منها كتب المقرئى ، مثل كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، وإغاثة الأمة بكشف الغمة ، واتعاظ الحنفا ، وترجع أهمية مؤلفات المقرئى الى أنه نقل كثيرا من الفقرات والفصول عن المؤرخين الذين سبقوه من أمثال الكندى والقضاعى والمسبحى وابن الطويل وغيرهم ، ومن أهم الفقرات كانت ما نقله عن صاحب كتاب الذخائر والتحف التي أثرت البحث ، فقد أضافت اللثام عما كانت تحتويه خزائن الفرش والتحف والطرائف وغيرها من خزائن القصر الفاطمى وما بلغه الحرفيون والجوهرانيون وغيرهم من صناعات الأسلحة من التقدم والرقى فى صناعاتهم المختلفة .

ولا شك أننى اعتمدت كثيرا على كتب الرحالة والجغرافيين الهامة مثل كتاب البلدان لليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ، وما تضمنه من ذكر أسماء بعض مراكز الصناعات الهامة كصناعة البردى والنسيج . وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ، وما أشار فيه الى الجواهر الكريمة مثل الزمرد ومناطق استخراجها فى صعيد مصر ، وما كان يستخرج بالقرب من شواطئ الاسكندرية من أحجار البوقلمون وغير ذلك من أنواع المعادن التي كانت تجلب من بلاد الهند كالحديد والأخشاب كخشب العاج وسن الفيل أو العاج من سواحل أفريقية وغيرها .

وقد أفدت من كتب الجغرافيين والرحالة بصفة خاصة كتاب المسالك والممالك لابن حوقل المتوفى بعد سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وكتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم لمؤلفه المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ ، وترجع أهمية كل منهما الى ذكر أسماء المدن المصرية وبعض الجهات

وما اشتهرت به من الصناعات المختلفة كطحن الغلال واستخراج الزيوت وغيرها من صناعة الورق والنسيج منذ فجر الاسلام ، وما كان يجلب الى البلاد من المعادن المختلفة كالحديد والفضة والنحاس وما يصدر من مصر الى سائر أنحاء الدنيا من المصنوعات المصرية .

ولا شك أن كتاب سفر نامة للرحالة الفارسي ناصر خسروا الذي قام بزيارته لمصر في عهد الخليفة المستنصر ، كان له من الأهمية خاصة في وصف أسواق القسطنطينة وما اشتهرت به المدن المصرية كتنيس ودمياط وأسيوط وقوص وعيذاب من الأنشطة الصناعية والاقتصادية المختلفة . بالإضافة الى وصفه الضافي للقصر الفاطمي والدور في كل من القاهرة والقسطنطينة مما أفادني في مجال الحديث عن مظاهر تقدم فن المعمار في العصر الفاطمي .

كما أخذت من كتاب رحلة ابن جبير وكتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر لمؤلفه عبد اللطيف البغدادي ، فقد حفل كل منهما بالإشارات المفيدة في مجال البحث .

ومن كتب الجغرافيين والرحالة كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، وقد رجعت اليه فهو سجل حافل بالبيانات والمعلومات الحصينة عن المدن والقرى المصرية وما اشتهر به أهلها من الحرف والصناعات فضلا عن المدن والجهات الأخرى في البلاد الاسلامية التي كانت مصر تحصل منها على بعض المواد الخام كالحديد والفضة وغيرها . ويشبه كتاب معجم البلدان في الفائدة كتابي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي المتوفى سنة ٤٩٥ هـ / ١٢٥١ م وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ، فهما من المعاجم الشهيرة أيضا التي حفلت بالأخبار والحقائق التاريخية عن المدن والجهات الاسلامية المختلفة في العصور الوسطى .

وتأتي بعد كتب الرحالة في الأهمية كتب الحسبة ، ومن أهمها كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري المتوفى سنة ٨٥٩ هـ ، وكتاب المدخل الى تنمية الأعمال بحسن النيات لابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧ هـ / ٦٣٣٧ م وكتاب معالم القرية في أحكام الحسبة لابن الاخوه القرشي المتوفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وفي آداب الحسبة للسقطي وكتاب معيد النعم ومبيد النقم تأليف عبد الوهاب السبكي وكتاب الأحكام السلطانية لمؤلفه الماوزدي . وقد كانت من أهم المصادر الاسلامية في معالجة دور المحتسب وأعوانه من العرفاء والأمناء حيث كان ينبغي عليهم مراقبة الحرفيين والصناع

جميعهم ، كما كان عليهم أن يكونوا من أهل الخبرة والمعرفة بأسرار الصنائع المختلفة وطرق غشها ومنع هؤلاء الحرفيين من فعل ذلك .

ولا شك أنني أفدت كثيرا من مصادر عربية أخرى مثل كتاب التبصر بالتجارة للجاحظ والاشارة الى محاسن التجارة للدمشقي ، والاشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها من المصادر الأصلية كالكواكب السيارة لابن الزيات وصبح الأعشى في صناعة الانشا للقلقشندي المتوفى سنة ٨٢٣ هـ / ١٤١٨ م .

كما اعتمدت على مصادر فرعية أخرى تتمثل في جملة من المعاجم العربية والأجنبية وعلى مواضع متفرقة من دائرة المعارف الإسلامية .

وقد استفدت أيضا في بحثي هذا من بعض المراجع الحديثة ومنها مؤلفات الأساتذة : زكي محمد حسن ، حسن إبراهيم حسن ، محمد جمال الدين سرور ، حسن أحمد محمود ، عبد المنعم ماجد ، سيد كاشف ، سعاد ماهر ، حسن عبد الوهاب ، عبد الرحمن فهمي محمد ، إبراهيم أحمد العدوي ، راشد البراوي ، محمد عبد العزيز مرزوق ، ومن المؤلفات الأجنبية لكل من الفريد بتلر ، وجوستاف لوبون ، وجواتياين ، والفريد لوكاس ، وآدم متز ، وجونسون وفيت ولينبول وديماند وغيرهم .

كما يجب التنويه الى ما حظيت به من الفائدة العلمية خلال زيارتي لكل من المتحف المصري والمتحف القبطي ومتحف الفن الاسلامي ، وما حفلت به من قطع النسيج والتحف الخشبية وأواني الخزف ذي البريق المعدني والمصنوعة من الزجاج وغيرها من ألواح الجص وبعض الألواح المنحوتة من الرخام ومن أنواع الحلى وأدوات السلاح والآلات والمعدات المعدنية الدقيقة التي صنعت بأيدي مصرية خلال حقبة البحث التي قمت بدراستها .

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة الا أن أتقدم بخالص شكرى لكل من قدم لي يد العون في سبيل اخراج هذا العمل الى حيز النور ، كما أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت فيما قصدت ، وعلى الله قصد السبيل .

د . السيد طه أبو سديرة

سوهاج

الفصل الأول

صناعة النسيج منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمي

- ١ - صناعة النسيج في عصر الولاة .
- ٢ - دور الطراز في عهد الطولونيين والاختشيديين .
- ٣ - حرفة الصباغة وصناعة الألوان .
- ٤ - مظاهر تقدم صناعة النسيج .
- ٥ - مراكز صناعة النسيج وازدهار فن الزخرفة في العصر الفاطمي .

١ - صناعة النسيج في عصر الولاة

عرفت مصر زراعة الكتان منذ القدم في دلتا النيل وفي مصر الوسطى وخاصة في منطقة الفيوم (١) . كما عرف المصريون تربية الأغنام ، واستخراج مادة الصوف منها في صعيد مصر ، وتدل أوراق البردي على وجود نقابات لرعاة الأغنام وغيرهم من أصحاب الحرف منذ العصر البيزنطي (٢) .

(١) أشار هيرودوت الى زراعة الكتان في مصر والى ما كان المصريون يلبسون من ثياب الكتان ، وطريقة النسيج المصرية منذ القرن الخامس قبل الميلاد . وانهم كانوا يدفعون اللحمة من أعلى الى أسفل ، بينما كان الاغريق وغيرهم ينسجون الكتان دافعين اللحمة من أسفل الى أعلى . كما أشار أدولف جرومان الى مراحل الاعداد والتجهيز لصناعة الكتان في مصر الفرعونية ، حيث كانت تبدأ باقتلاع سيقان الكتان من جذورها وتجميعها وربطها في حزم وتركها تجف ، ثم تمشيظها وتعطينها حتى يلين لحاؤها ، وطرقها بالمطارق وكشط اللحاء عنها ، ثم تندية أليافها وقتلها أو غزلها بالفلكة وأخيرا نسجها . وكانوا يستخدمون لها أنوالا أفقية يجلس الصانع أمامها على الأرض جلسة القرمصاء ، كما يجلس نساجو الحصر الآن . . . وقد أشار بلينى الى الناحية التجارية لزراعة الكتان في مصر اذ يقول : انه وبمعونتها تستورد مصر السلع التجارية من بلاد العرب والهند ، ويضيف الى ذلك أن مصر قد حصلت من الكتان على أعظم الأرباح .

هيرودوت يتحدث عن مصر ، ص ١١٧ ، ١٢٤ ، مصر والحياة المصرية القديمة ، ص ٥١٩ - ٥٢٠ ، لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٣٦ .

(٢) كانت أفرديتو (كوم اشقار) وهي قرية حاليا تابعة لمركز طما بمحافظة موهاج . تضم العديد من النقابات ومنها نقابة لرعاة الأغنام في القرن السادس الميلادي .
Johnson : Byzantine Egypt, p. 153.

وفد اشتهرت كل من تنيس ودمياط والاسكندرية بنسيج الكتان فى شمال البلاد ، وأيضا مدينة الفيوم ومدينة البهنسا (اكسيرنخوس) فى ذلك العصر (٣) .

وتشير المصادر الى وجود العديد من المناسج الخاصة بنسيج الصوف وغيره من أنواع النسيج فى كل من أسيوط ومدينة اخميم ، وكثيرا ما كان انماجهما من النسيج يصدر الى روما وبيزنطة ، لاسيما المنسوجات الفاخرة التى كانت تستعمل كثيرا فى الكنائس والأديرة .

وقد أظهر الصناع الأقباط فى هذه المناسج أو المصانع مهارة فائقة فى تصميم نماذج من الزخارف الهندسية والنباتية ، مما عثر عليه مرسوما على أوراق البردى (٤) ، كما دلت قطع النسيج المحفوظة فى بعض المتاحف على اسراف النساك المصريين قبل الفتح العربى فى رسم الموضوعات الدينية المستمدة من الكتاب المقدس وشيوع استخدامها فى زخرفة النسيج (٥) . كما ينسب الفضل فى اختراع النول اليدوى الى هؤلاء النساك المصريين واستخدمهم له فى مناسجهم منذ القرن الخامس الميلادى .

أما عن الأقمشة الحريرية فى ذلك العصر ، فكانت تنسج فى ديق والاسكندرية وكانت صناعة الحرير تخضع لقيود شديدة (٦) ، وحيث كان التجار يرتحلون للحصول على ما تحتاج اليه من بيزنطة من مواد الترف

(٣) Ibid, pp. 119-124.

(٤) يضم متحف برلين مجموعة من أوراق البردى عليها مسودات تدل على أن النساكين المصريين كانوا يرسمون على تلك الأوراق لبيان زخرفة النسيج بطريقة القباطى (التابستري) فى مصر قبل الفتح العربى .

Johnson : Ibid, p. 121.

(٥) يحتفظ متحف الفاتيكان بقطعة من النسيج المزخرف المصنوع من الحرير وعليها احدى صور البشارة للسيد المسيح .

(٦) أصدر أباطرة الرومان عدة مراسيم وقوانين ، منها مرسوم سنة ٤٣٨م يحرم نسج الحرير بمصانع جنسيم التى كانت موجودة بالاسكندرية ، يبدو أن هذا التحريم جاء نتيجة اخضاع الأقمشة المصبوغة باللون الأرجوانى أو الموشاة بالذهب وغيرها من نسيج الحرير بمصانع جنسيم التى كانت موجودة بالاسكندرية ، يبدو أن هذا التحريم جاء فى القرن الخامس جرائم الاعتداء على شخص الحاكم واستخدام الأفراد للثياب والجواهر المخصصة لهؤلاء الأباطرة ، وأصبح علاجها الوحيد احتكار الدولة وتحريمها لانتاج بعض السلع المحرمة . لوبز : محمد وشرلمان إعادة نظر ، ص ١٠٩ ، بحث - نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - ترجمة توفيق اسكندر .

والزينة ، ومن بينها الحرير الخام من غلات الهند والصين لسد حاجة المصانع الامبراطورية في الاسكندرية .

وكانت غالبية الثياب منسوجة بطريقة القباطى ، وهى انتم المنسوجات المزخرفة ، وقد حفلت قاعة النسيج بالمتحف القبطى بالعديد من القطع المنسوجة بهذه الطريقة التى يرجع تاريخ صنعها الى القرن السادس الميلادى (*) . ومن الواضح أن صناعة النسيج كانت من الحرف المألوفة لدى الرهبان داخل الأديرة . كما أن مصانع للنسيج وأنصباغة كانت تمتلكها الدولة غير أن ذلك لم يمنع من تشغيل بعض المناسج فى دور بعض التجار الذين كانوا يستخدمون عمال المصانع الحكومية فى غير أوقاتهم المحددة .

وكان نساجو الكتان يشكلون فى أنحاء البلاد تقابات تحافظ على أسرار حرفتهم التى كانت تنتقل الى أفرادها بطريق التوارث ، كما اشتهر كل مركز أو مدينة مثل الفيوم أو اخميم بنوع من النسيج كانوا ينتجونه سواء للأسواق المحلية أو الخارجية . وكان المشرف على إقامة الأنوال والمناسج يعطى لهؤلاء النساك تراخيص بإقامة أنوالهم ومزاولة عملهم ، وذلك فى مقابل أقساط شهرية تدفع منهم كضريبة لمزاولة المهنة فى مناسجهم الخاصة .

وهكذا كانت صناعة النسيج فى مصر عند الفتح العربى فى منتصف القرن السابع الميلادى ، وكان العرب يعرفون قدر المنسوجات المصرية ويطلقون عليها عامة اسم القباطى نسبة الى أقباط مصر ، وقد روى المقرئى أن المقوقس أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أهدى قباء وعشرين ثوبا من القباطى . كما ورد ذكر هذه القباطى فى عدة موضوعات ، فيذكر الأزرقى أن عمر بن الخطاب كسا الكعبة بالقباطى من بيت المال وكان يكتب الى والى مصرى لصناعتها . وكذلك فعل عثمان بن عفان بعده ، فلما تولى معاوية كسا الكعبة كسوتين كسوة القباطى فى آخر رمضان ، وكسوة الديباج فى يوم عاشوراء من كل عام .

وكانت الكسوة للكعبة الشريفة تصنع بشطا وتونة ، ويذكر المقرئى أن الفاكهى رأى كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعة فى طراز شطا كسوة الكعبة سنة ١٩١ هـ » . ويذكر الفاكهى أيضا أنه رأى كسوة مما يلى الركن الغربى من الكعبة مكتوبا عليها : « مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ،

(*) أرقام السجل : ٦٧٦٣ ، ٩٨٢٨ .

بأمر الفضل بن سهل ذي الرياستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة . كما روى كذلك أنه شاهد شقة من قباطى مصر فى وسطها ، الا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود ، مما أمر به أمير المؤمنين سنة ست ومائتين .

وقد شجع الولاة العرب على ذلك أنهم قاموا بالاستيلاء على مراكز النسيج والمصانع العاملة بسائر الجهات والمدن المصرية والتي كانت ملكا للحكومة البيزنطية عند الفتح ، وكانت تلك المصانع تنسج بها الملابس الرسمية وغيرها للدولة ويتم ارسالها الى القسطنطينية . كما شجع فى نفس الوقت على تقدم صناعة النسيج فى العصر الأموى ميل الخلفاء والأمراء العرب ورغبتهم فى الاكثار من الثياب واقتناء الفاخر منها ، خاصة بعد أن زاد تدفق الثروة فى أيديهم من تلك الأقطار التى فتحوها ، فأقبلوا على المنسوجات المصرية وغيرها يسرفون فى اقتنائها ، ويحملون النساج على التسابق فى اجادة نسجها ، وابتكار الأنواع الجديدة منها .

وقد تحدث المسعودى عن اهتمام الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) بأنواع الثياب الفاخرة وعمل الوشى الجيد لارتدائه (٧) وفى عهده لبس الناس جميعا جيابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته دون أن يكون عليه ثوب من هذا النوع . وكانت مدينة الاسكندرية شهيرة بانتاجه ، وكما يذكر الجاحظ فان خير الوشى السابورى ثم الوشى الاسكندراني الكتان البحت .

وفى أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) عمل نوع من الخز (٨) أقبل الناس جميعا على استعماله .

ومن مراكز صناعة النسيج الهامة فى العصر الأموى ما كانت تشتهر بانتاج أنواع معينة من المنسوجات البيضاء أو الملونة الرقيقة أو الثقيلة التى أقبل عليها الحكام العرب وغيرهم من سائر الرعية فضلا عن المصريين . وفى الوجه البحرى اشتهرت من هذه المراكز كل من الاسكندرية وتنبس ودمياط وغيرها ، وكانت مصانعها تنتج أنواعا من المنسوجات خاصة الكتانية البيضاء .

(٧) الوشى هو نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير وهى مرقومة بألوان شتى ، وكان يصنع منها فى كل من الاسكندرية واليمن والكوفة .

(٨) الخز هو نوع من نسيج الحرير ، أفضله كان مارق نسجه وثقل وزنه ، وأرداه الضعيف السدى الخفيف الوزن ، الرخو النسيج ، الردىء الحرير .
الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٤٥ .

ويشير اليعقوبى الى شهرة مدينة تنيس الواقعة فى شمال الدلتا على جزيرة وسط بحيرة اشنهرت باسمها فى العصور الوسطى (بحيرة المنزلة حاليا) بصناعة المنسوجات الكتانية ، فهو يقول عنها : « وكان يحاك بها ثياب الشروب (٩) والأقمشة الرفيعة والرقاق من الدبيقى ، والقصب والبرود والمخل والوشى » . وقد عمت شهرة ثيابها وكانت تصدر الى سائر الآفاق حتى قيل عنها فى صدر الاسلام « انه ليس فى الدنيا منزل الا وفيه من ثوب تنيس ولو خرقة » .

وكانت دمياط تقارب تنيس فى الشهرة فى نسيج الكتان ، وكان يعمل بها فى عصر الولاة الثياب الشرب والقصب ، وربما بلغت الحلة من ثيابها اذا كانت مطرزة بالذهب ألف دينار ، وبدون ذهب بمائة أو مائتين دينار . واشتهرت من مراكز صناعة نسيج الكتان ، التى اشتهرت بطرزها العديدة العامة والخاصة فى العصر الاسلامى - وما سنعرض له بعد قليل - من نواحي شمال الدلتا أيضا ، شطا ودبيق ودميره وتونه وكانت تقع بين دمياط وتنيس بالقرب من شاطئ البحر المتوسط ، وقد ذكرت المصادر عن شطا أن مصانعها كانت تنسج الشرب الرفيع الذى تبلغ قيمة الثوب منه ثلاثمائة درهم ، وكانت تعمل بها كسوة الكعبة فى طرازها الخاص .

أما دبيق فكانت من المدن المصرية الصناعية القديمة ، وذاعت شهرتها منذ فجر الاسلام بانتاجها للثياب المثقلة والعمائم والشرب الملونة والدبيقى المزركش ، وكان يصدر منه الى بلاد العالم الخارجى آنذاك .

كما أنتجت مناسج دمييره الرفيع من المنسوجات والشرب ، وكذلك تونه وبوره فقد اشتغل الناس بهما فى نسيج الثياب الكتانية ، وكانت توجد بها مصانع تابعة للدولة أطلق على كل منها دار الطراز . كما اشتغل الرهبان والراهبات فى الأديرة المصرية بحرفة النسيج (١٠) ، وشاركت المرأة بالغزل فى المنازل خاصة فى مدن الدلتا ، حيث كانت تترك للرجال مهمة النسيج ، وقد كانت تتقاضى نظير عملها فى الغزل الأجر بحسب ما تقدمه ، مما ساعد فى ذلك الوقت على وفرة الانتاج من غزل ونسيج الكتان وأنواع المنسوجات المختلفة منه .

(٩) وهى جمع شرب وهو مارق من الكتان ، أما القصب فهو نوع من القماش رقيق جدا يصنع من الكتان . الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٢٤٣ .

(١٠) يذكر لينبول أن الرهبان الأيرلنديين مدينون بالفضل لزملائهم الرهبان المصريين وذلك فى تعليمهم لهم العديد من الحرف الشائعة داخل الأديرة المصرية ، سيرة القاهرة ، ص ٧٢ ، ترجمة حسن ابراهيم وآخر .

وفى عصر الولاية اشتهرت مدينة الفيوم بصناعة ستائر ثمينة من الكتان يبلغ طول الستر الواحد منها ثلاثين ذراعا ، وقيمة الزوج منه كان يباع بثلاثمائة دينار . وكان أهالى مدينة البهنسا يعملون بالنسيج منذ العصر البيزنطى ، وقد ذاعت شهرتهم فى عصر الولاية ، والعصور اللاحقة بعد ذلك بعمل أنواع الستور والمضارب والفساطيط الكتان والطرف وغير ذلك ، ويذكر ابن حوقل أن قيمة زوج الستور من نسيجها كان يساوى ثلاثمائة دينار .

أما حرفة غزل الصوف والاشتغال بنسجه ، فكانت تلى نسيج الكتان فى الأهمية ، ومن أشهر مراكز نسيج الصوف فى مصر الوسطى والعليا ، كانت البهنسا والقيس ومدينتى أسيوط وأخميم ، فقد أنتجت البهنسا المنسوجات الصوفية بالإضافة الى شهرتها بنسيج الكتان ، وكان يكتب على طرازها من النسيج اسم المتخذ له عادة ، استمر ذلك جيلا بعد جيل .

كما اشتهرت فى صدر الاسلام مدينة القيس (١١) بانتاجها لثياب الصوف الجيدة ، وقد انفردت بعمل نوع خاص من أكسية المرعى العسلى غير المصبوغ ، ولم يكن له نظير فى المناسج الأخرى ، يذكر ابن الكندى أن معاوية لما كبر كان لا يذفا ، فأجمعوا أنه لا يذفته الا أكسية تعمل فى مصر من صوفها المرعى العسلى غير المصبوغ ، فعمل له منها عدد ، فما احتاج منها الا الى واحد . وكما يذكر المؤرخون فان الصوف المصرى كان من خير الأكسية ، فقد ذاع صيته لجودة صناعته ودقته وما كان يصدر منه الى خارج البلاد .

ومن مراكز نسيج الصوف مدينة أسيوط ، وهى من أعظم مدن الصعيد ، وبها يعمل الفرش القرمزى الذى يشبه الأرمنى . وقد اكتسب صوفها شهرة واسعة فى ذلك الوقت وكان يسمى بالصوف المصرى . كما أن مدينة اخميم وكانت كورة الاقليم فى العصر الاسلامى فانها اشتهرت بنسيج الصوف وخاصة فى تلك الفترة الممتدة من أوائل القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الميلادى . (١٢)

(١١) تقع مدينة القيس غرب النيل ، وهى الآن قرية من قرى مركز بنى مزار محافظة المنيا وسميت كذلك نسبة الى قيس بن الحارث الذى أرسله عمرو بن العاص لفتح بلاد الصعيد ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ١٩٦ .

(١٢) عثر فى المقابر القديمة التى تقب عنها عن نماذج ممتازة لنسيج يرجع أقدمه الى القرن الثانى أو الثالث الميلادى وأحدثه الى الثامن أو التاسع ، ويشبه نسيج اخميم فى تلك الفترة أرقى أنواع الجوبلان الفرنسى فى القرون الوسطى .

سعد الحادم : الصناعات الشعبية فى مصر ، ص ٦٠ - ٦١ .

ومن الجدير بالذكر أن مصانع النسيج في تلك المدن كانت ملتزمة بانتاج كميات من الثياب الصوفية ، حيث كانت تعطي كنوع من الجزية ، يعزز ذلك ما ذكره البلاذري بشأن تأدية هذه الجزية حيث قال : « وألزم جميع أهل مصر لكل رجل منه جبه صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام ، أو عدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا » وكانت الكسوة التي يكسوها أمير المؤمنين من الجزية التي فرضت على المصريين ولعل شهرة مصر في ذلك الوقت بانتاج الصوف وغيره من أنواع النسيج ، قد شجع الحكام العرب على تقرير ذلك .

ومما يذكره الكندي أنه في ولاية الحسن بن التخنخاح على مصر سنة ١٩٣ هـ ، قدم الوالى العطاء كاملا لديوان الخلافة ببغداد ، وكان قيمة الثلث منه من البز أو الثياب .

ويضم المتحف القبطى قطعاً كثيرة من المنسوجات الصوفية ترجع صناعتها الى عصر الولاة ، منها قميص من الصوف منسوج بطريقة القباطى عليه زخارف آدمية ونباتية ، كما يحتوى المتحف على مجموعة من أدوات النسيج كأمشاط الأنوال الخشبية والمغازل التي رسم عليها بعض الزخارف الحيوانية والهندسية (١٣) وقد أشار ابن عبد الحكم الى تلك الدار التي كانت معروفة بدار المغازل بالحراء بمدينة الفسطاط ، ومن أسماء العاملين بنسيج الصوف وتجارته ، وصل إلينا عن طريق أحد شواهد القبور وهو مؤرخ نى شعبان سنة ٢١٦ هـ باسم : يعقوب بن يحيى الصواف الحولانى .

أما انتاج نسيج القطن ، فيبدو أنه ضئيل للغاية فى عصر الولاة ، ولم يكن يعمل منه فى مصر نسيج خالص ، بل كان النساج المصريون يمزجونه بالكتان أو الصوف (١٤) . وهناك من يرى أن زراعة القطن وتجارته وصناعته قد اتسعت بعد الفتح العربى ، حتى أنه وجدت مخازن كبيرة للقطن بمدينة الفسطاط فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى .

(١٣) عثر على هذه الأدوات الخاصة بالغزل والنسيج بمنطقة الفيوم وترجع صناعتها الى القرن السابع الميلادى .

(١٤) ذكر جروهمان فى تعليقه على قائمة حساب بزاز من القرن الثانى الهجرى أو الثالث أن القمصان كانت تصنع من الكتان والقطن والحرير المخلوط أو الجلد ، وجاء فى تعليقه على قائمة بثياب مختلفة تم بيعها لبعض الأشخاص . وكان منها عمامة قطن أو كتان سعر الواحد منهما دينار ، مما يدل على أن العمائم فى مصر كانت تصنع من القطن أو القطن المخلوط بالكتان .

أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ ص ١٤٠ .

لكن الشيء الملاحظ أنه لم يرد ذكره في أوراق البردى العربية (١٥) ،
كما أن المتاحف المصرية قد خلت من وجود أية قطعة من نسيج القطن
المصرى الخالص ترجع صناعتها أو نسجها الى تلك الفترة وحتى سقوط
الدولة الفاطمية (١٦) .

ونختتم الحديث عن صناعة النسيج في عصر الولاة بتناول موضوع
نسيج الحرير ، وكان يستورد خام الحرير من الهند والصين قبل انتاجه
محليا في الشام ومصر في القرن السادس الميلادي (١٧) ، ومن الملاحظ
أنه بدأت صناعته تنتعش منذ العصر الأموي ، كما أشرنا الى ذلك من قبل
حينما أمكن استخدام الوشى الجيد في بلاط الأمويين .

وقد استمرت مراكز نسيج الحرير في مصنع الاسكندرية ومنسج
دبيق ، التي اشتهرت به منذ العصر البيزنطى ، فكانت تنتج منه في صدر
الاسلام هذا النوع من نسيج الوشى ، وهى ثياب من الحرير مرقومة بألوان
شتى (١٨) . كما ظلت مدينتا اخميم وأسيوط في صعيد مصر من أهم

(١٥) لم يرد لفظ القطن الا في اشارة عابرة على احدى أوراق البردى تتضمن ثمن
بيع القطن قرابة اواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى ويبدو من الصيغة أن
سعره كان مرتفعا للغاية حيث يشكو المشتري من ذلك السعر فقد جاء النص كالآتى :
« قليل قطن ياأبا مقلنى ، وسعر القطن عندنا سبعة أرطال بدينار وحسبى الله وحده »
أوراق البردى العربية ، ج ٥ ، ص ٧٩ ، ٨٠ .
Johnson : Byzantine, Egypt, p. 122.

(١٦) تشير المصادر الى أن زراعة القطن قد تم ادخالها الى مصر في العصر الرومانى ،
لكنه لم تذكر عنه المصادر شيئا الا نادرا في أوراق البردى اليونانية التي ترجع الى العصر
البيزنطى .

(١٧) ذكر جونسون Johnson أن انتاج الحرير بدأ منذ القرن الخامس أو القرن
السادس الميلادى في مصانع الحرير السورية بالشام ، كما ظهر تقليد نسيج الصوف وطريقة
القباطى المصرية لدى الساسانيين في مصانعهم . وقد عثر على الحرير المنسوج فى كل من
أخميم وفاو وأماكن أخرى ، والذي ترجع صناعته الى القرن السادس الميلادى ، كما يحتفظ
متحف برلين برسومات على أوراق البردى لطريقة نسجه فى ذلك الوقت .

(١٨) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

ولا غرو فقد كانت دور الطراز « جنسيم » التي وجدها العرب بالاسكندرية عند
الفتح ، وهى تعنى المكان المخصص الملحق بالقصر وفيه ارقاء كانوا ينسجون ويصبغون الحرير
ويعملون ملابس القصر ، وكان محرما على الرعية أن ينسجوا أقمشة تشبه تلك التي كان
يعملها نساج القصر . ويبدو أنها أصبحت ملحقة بقصر الوالى أو العامل بالاسكندرية في
العصر الأموي ، وزادت من انتاجها حتى أن أقمشتها صارت تصل الى بلاد المشرق والمغرب .

مرزوق : الزخرفة المنسوجة ، ص ٢٢ - ٢٣ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ
الاسكندرية وحضارتها ، ص ٤٩٦ .

مراكز نسج الحرير . وليس لدينا من دليل يشير الى توقف تلك الصناعة منذ ازدهارها في العصر البيزنطي ، بل انه يوجد من الأدلة ما ينفي ذلك فقد عثر في اخميم على لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان ، ولم يذكر تاريخ صناعته أو نسجه لمعرفة المقصود بالخليفة هنا هل هو مروان بن عبد الحكم أم أنه مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، ومهما كان الاختلاف في نسبة الاسم فإنه يكفي كدليل واضح على استمرار تلك الصناعة في ذلك العصر .

هذا ولم يقف الحكام والمسلمون الأوائل موقفاً يؤثر على تقدم صناعة المنسوجات الحريرية ، ولكنهم عملوا فقط على تنظيم استعمالات الحرير ، وربما كان في انتاجه للنساء دون قيد ، وتحديد استخدامه بالنسبة للرجال (١٩) ، قيمة من الناحية الفنية ، ففي ظل ذلك التحديد ازدهرت طريقة تزيين الأثواب بالأشرطة الحريرية بطريقة التابستري أو القباطي المصرية الشائعة .

ومن أسماء صناع الحرير في مصر في ذلك الوقت ، كما ورد على شاهد رخام مؤرخ في صفر سنة ٢٤٠ هـ / يوليو ٨٥٤ م ، عبد الله بن أحمد المصفي الحريري ، حيث كان يطلق لفظ الحريريين على الموضح التي اتخذوها أسواقاً لتجارة الحرير أو صناعته في العصور الوسطى . كما يضم متحف الفن الاسلامي من كان يشتغل بالأدب أيضاً ، مثل السرى الشاعر المعروف بالسرى الرفاء . وأيضاً وردت أسماء على شواهد حجرية كان أصحابها يعملون بمهنة الحياكة وتفصيل الثياب . وهكذا حفلت المتاحف بأسماء العديد من هؤلاء المشتغلين بحرفة النسيج وما يتصل بها في مدينة القسطنطين وغيرها من المدن المصرية (٢٠) .

(١٩) يرى كريستى أنه على الرغم مما ورد عن النبي (ص) أنه كان يحرم استعمال الملابس الحريرية تحريماً باتاً فإن المسلمين لم يكتفوا بتشجيع مصانع الحرير القائمة بل كانوا ينشئون مصانع الحرير أينما ذهبوا .

تراث الاسلام ، ج ٢ ، ص ٦١ - ترجمة زكى محمد حسن .

(٢٠) من تلك الشواهد الرخامية المحفوظة بمتحف الفن الاسلامي شاهد مؤرخ سنة ٢١٧ هـ باسم أحمد بن عبد الحميد الحيات ، وشاهد آخر من أسوان باسم أمينة ابنة عيسى ابن جميل الحياط .

حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ١ ، ص ٥٠١ .

وهكذا استمرت صناعة النسيج في عصر الولاة ، والتي يمكن القول بأنها كانت امتدادا طبيعيا لما كان سائدا منذ العصر البيزنطي ، وان ازداد نشاطها لتلبية احتياجات البلاط الأموي ، والخلافة العباسية في صدر الإسلام ، فضلا عما كانت ترسله مصر الى بلاد الحجاز ولا سيما كسوة الكعبة الشريفة .

وليس من شك في أن تشجيع الولاة ، فضلا عن وفرة المواد الخام داخل البلاد من الكتان والصوف ، كان خير حافز للصناع الأقباط من أجل العمل على تطوير صناعاتهم ، بما يتمشى وتعاليم الدين الاسلامي (٢١) . وقد ظهر ذلك جليا فيما أنتجته دور الطراز المصرية في شمال البلاد وجنوبها ، خاصة في مصر الوسطى .

(٢١) ذكر البيهقي أن طراز القراطيس والثياب والستور وغيرها مما كان يصنع في مصر كان يحمل طراز الروم ، فلم يزل كذلك في صدر الاسلام الى أن ولي عبد الملك ابن مروان شئون الخلافة ، وقام بتعريب الدواوين ، يقول البيهقي : « فامر بالكتابة الى عبد العزيز بن مروان وكان عامله على مصر ، بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من أثواب وقرطاس وستر وغير ذلك » وهكذا أصبح الطراز أو ما يكتب على النسيج وغيره من أوراق البردي. ذا طابع اسلامي ، حيث لم يقتصر الطراز على ما كان يطرز به النسيج أو ما شاع بعد ذلك في اطلاقه على المصنع أو المكان الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات ، بل أطلق كذلك على الكتابة الرسمية التي كانت تكتب على درج البردي أو القراطيس .

المحاسن والمساويء ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ١ ، ص ٣ - ٤ .

٢ - دور الطراز فى عهد الطولونيين والاختشيديين

اختلف المؤرخون فى تعيين الموطن الاصلى الذى نشأت فيه مصانع الطراز (١) وكان ابن خلدون على رأس الفريق الذى قال بأن مصانع الطراز الفارسية كانت هى الأصل فى ذلك النظام ، اذ كان من عادة ملوك فارس قبل الاسلام أن يزينوا ملابسهم بصور الملوك وبأشكال معينة تميزها لهم عن غيرها . ومما يعزز هذا الرأى ما أوضحه روبرت سى . لوبتز أجده الباحثين الغربيين حين قال بأن العرب اتخذوا مثل هذا الاجراء فى ثيابهم الرسمية المطرزة تقليداً لملوك الفرس .

أما الفريق الثانى وعلى رأسه كرايتشك وكونل ، فقد لجأ الاثنان الى مصانع جنسيم التى كانت قائمة فى الاسكندرية زمن الفتح العربى ، حيث عثرا على قطع من النسيج المصرى عليها أسماء بلاد وأشخاص ، مما يدل على أن عادة التطريز للثياب كانت بيزنطية الأصل ، وأن هذه المصانع كانت تحتفظ بسر نظام العمل بالنسبة لبعض الأقمشة الغالية .

والواقع أن مصانع الطراز الحكومية كانت موجودة فى الدولة

(١) كلمة طراز فارسية الاصل مأخوذة من كلمة (طرازیدن) ومعناها التطريز وأطلقت على الثوب الذى يزدان بشغل الابر ، ويذكر ديمانده أن طراز تعنى ذلك الشريط المشتمل على كتابة منسوجة أو مطرزة ، وكذلك أطلقت على الأقمشة المزخرفة بهذه الطريقة ، ثم صارت تطلق على المصنع أو المكان الذى تطرز فيه هذه الاشرطة وتنتج فيه هذه الأقمشة . وخير مثال على ذلك ما أوضحه المقرئى فى طراز مدينة البهنسا حيث كانت تكتب على الثياب أو الستور اسم المتخذة ، مضوا على ذلك فى مصانعهم جيلا بعد جيل ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٣ ، ديمانده : الفنون الاسلامية ، ص ٢٤٩ ، سعاد ماهر : النسيج الاسلامى ، ص ٢٤ .

الساسانية والبيزنطية على السواء ، ولكن مصر كانت تابعة للبيزنطيين ، وظلت مصانعها تنتج أنواعا من الثياب عليها الطراز البيزنطى حتى عهد الخليفة الأموى ابن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) حينما أمر أن تكون الكتابة على النسيج باللغة العربية ، يقول البيهقى (٢) « فأمر بالكتابة الى عبد العزيز ابن مروان وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك ، كما أمر واليه وابنه عبد الله بن عبد الملك بعد ولايته على مصر سنة ٨٦ هـ بأن يتخذوا زيا مخالفا لزي الأقباط ، ومن ثم ظهرت بعض الحروف العربية والعبارات الاسلامية مكتوبة على النسيج المصرى ومنها « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

ولعل مصانع الاسكندرية الحكومية التى أطلق عليها الجنسيم فى مصر البيزنطية ، كانت أول دار للطراز اتخذتها الادارة الأموية ، خاصة فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) يؤيد ذلك قطعة من النسيج عثر عليها ومحفوظة فى متحف الفن الاسلامى يرجع تاريخها الى عام ٨٨ هـ .

وتشير المصادر الى وجود نوعين من الطراز ، حيث نشأت المصانع الحكومية التى أطلق عليها دار الطراز الخاص ، وكانت هناك مصانع حكومية أيضا تمثل دور الطراز العامة ، وقد كانت تماثلها فى انتاج ما يحتاج اليه الخلفاء الأمويين والعباسيين من ملابس وثياب وخلع وكسوة للكعبة ، غير أنها تزيد على ذلك بانتاج منسوجات أخرى لأفراد الشعب . يدلنا على ذلك قطعة من الكتان الأبيض عليها أسطر بالحرير الأحمر نصها « هذه العمامة لصمويل بن عيسى ، عملت فى شهر رجب من الشهور المحمدية سنة ثمان وثمانين » .

وقد خضعت كل من المصانع أو دور الطراز الخاصة والعامة فى العصر العباسى ، وأصبحت تشرف عليها الحكومة اشرافا تاما ، وكان لزاما على

(٢) المحاسن والمساوى : ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

ويذكر البيهقى وكما نقل الدميرى عنه أن السبب فى تغيير الطراز أن انقراض المصانع كانت تطرر بالرومية وعليها العبارات المسيحية (الأب . الابن . الروح القدس) وأنه حدث أن وقع قرطاس منها فى يد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وحينما ترجم له معنى ما ورد على طراز ذلك القرطاس أنكر ذلك وأمر بأن يستبدل الطراز بسورة التوحيد (وشهد الله أنه لا اله الا هو) وكذلك الأمر بالنسبة للستور والثياب وغيرها . . . ومهما كان مبلغ صدق الرواية فإنها تتفق وتلك السياسة العامة التى اتخذها وهى تعريب الدواوين فى عهده ، وحيث اللغة العربية أصبحت هى اللغة الرسمية فى جميع أجزاء الامبراطورية الاسلامية . المحاسن والمساوى ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ، ج ١ ، ص ٥٨ ، ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ٢ ، ص ١٦٤ - ١٦٦ .

تلك المصانع أن ينسج شريطا من الكتابة العربية يحمل اسم الخليفة ومكان الطراز كما كان على صاحب الطراز أن يختار من القطع التي تصنع بدور الطراز ، فيرسلها الى الخليفة تمشيا بما كان يقتضيه نظام الالتزام . وكان الخليفة العباسي يخلع بتلك القطعة المختارة على كبار رجال دولته وذلك تقديرا منه على جليل أعمالهم .

ومن أقدم المنسوجات التي وصلت إلينا من العصر العباسي من دور الطراز المصرية التي كانت تزين الأقمشة المنسوجة من الكتان بزخارف من الحرير تلك القطعة المحفوظة بمتحف برلين والمسجل عليها اسم الخليفة هارون الرشيد واسم مروان بن مرعي ، وعليها الكتابات الكوفية والأشكال الهندسية وهي منسوجة بخيوط من الحرير المتعدد الألوان . وقد عثر أيضا على قطعة نسيج صنعت بطراز العامة بمصر للخليفة الأمين ، وعليها الكتابة الآتية : « بسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعه في طراز العامة بمصر على يدى الفضل بن الربيع ولى أمير المؤمنين » .

والواقع أنه كان لتنظيم دور الطراز فى سائر الولايات الإسلامية أهمية كبيرة عند الخلفاء ، فقد كانوا يتبارون فى إرسال الكسوة السنوية الى الكعبة من المنسوجات النفيسة ، وقد اشتهرت دور الطراز المصرية فى تنيس وشطا ودبيق وغيرها بصناعة هذه الكسوة الشريفة فى ذلك الوقت . كما عنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة ، وكانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان .

وقد برع النساجون والمزخرفون فى تطريز اسم الخليفة وألقابه ، وبعض عبارات الأدعية ، وكثيرا ما كان يذكر اسم المدينة أو الجهة التى تضم دار الطراز الخاصة أو العامة ، وكذلك اسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز ، وكان الغرض من هذه الكتابات على الأقمشة إثبات اسم الأمير أو الوالى الذى عملت فى عهده ، أو ذلك الشخص الذى خلعت عليه .

وكان من أشهر مراكز الدلتا الصناعية دور الطراز العديدة بها كطراز كل من تنيس وتوته ودبيق وذمياط وشطا والاسكندرية وكانت تنتج

أنواعاً من المنسوجات المركبة المزركشة أو ما عرف في ذلك الوقت بنسيج الزردخان (٣) .

كذلك كانت تضم الفسطاط داراً للطراز الخاصة وأخرى عامة ، وقد أحصى فيه العديد من القطع التي تم نسجها في طراز العامة بمصر، كما عثر على قطعة صنعت في عهد الخليفة المأمون في طراز الخاصة وذلك في سنة ٢١٦ هـ ، وهناك قطعة من النسيج باسم المعتز بالله عملت في طراز العامة بمصر ترجع صناعتها إلى سنة ٢٥٤ هـ .

واشتهرت من دور الطراز أيضاً طراز الفيوم وطراز القيس والبهنسا وغيرها ، وكان طراز الفيوم بعضه منسوج من الكتان ، والشريط المزخرف من الصوف أو الحرير ، والبعض الآخر رقعة مرسومة من الصوف ومن الجدير بالذكر أن طراز الفيوم في صدر الإسلام قد أخذ الكثير من عناصر الزخرفة القبطية ، أما طراز القيس التي كانت شهيرة بإنتاج نوع من الصوف الجيد ، فقد عمل الصناع على أن تكون زخارفه متميزة عن الطرز الأخرى ، حيث حصرت تلك الزخارف في أشرطة أفقية متعددة ، تملأ جزءاً كبيراً من النسيج ، فكانت أرضيته من الصوف . والواقع أن أهم ما كان يميز دور الطراز في تلك الفترة إنما كانت طريقة الزخارف التي عن طريقها أمكن تحديد أماكن وجهات وتواريف صناعتها ، وقد كانت ألوان الزخارف باختلاف مادة النسيج ، وتلك الرسوم الحيوانية والنباتية التي كانت تملأ الفراغ كله أو بعض من أرضية النسيج .

ويمكن القول بأن صناعة النسيج في العصر الطولوني كانت تمثل فترة انتقال بين العصر القبطي والعصر الإسلامي الخالص زمن الفاطميين ، ولم يكن من الممكن معرفة ذلك إلا بواسطة تلك الزخارف التي عثر عليها في قطع النسيج المختلفة . ولا شك أن دور الطراز قد نشطت في إنتاج المقادير الكبيرة من المنسوجات تلبية لاحتياجات البلاط الطولوني ومظاهر الدولة شبه المستقلة .

ومن المعروف أن الجزية التي كانت ترسلها مصر إلى بلاط الخليفة

(٣) الزردخان : كلمة فارسية معناها دار السلاح ، ولعل السبب في اتخاذها اسماً لتلك المنسوجات ، إنما يرجع إلى أن الدروع المتخذة من الزرد المانع وغيرها من الأسلحة كانت تغطى بطريقة من نسيج سميك مزركشة من الحرير الأصفر والأحمر وغير ذلك . والواقع أنه لا غرابة في ذلك فإن دلاص (من أعمال الصعيد) كانت في فجر الإسلام مشهورة بصناعة نوع من الدروع الكتانية . الثعالبي : فقه اللغة ، ص ٢٥٦ ، سعاد ماهر : النسيج الإسلامي ، ص ٦٩ .

العباسي والهدايا التي أرسلها أحمد بن طولون كانت جميعها من دور الطراز في العصر الطولوني ، فقد ذكر البلوي أنه أنفذ كاتبه إلى الحضرة أحمد ابن محمد الواسطي ، وحمل إليه من المال وكل شيء حسن وغريب من دق تنيس ودمياط ومن الخيل والبغال بما يحوز الوصف حسناً وقدرًا ، وكذلك الهدايا التي بعث بها أبو الجيش خماروية بعد وفاة أبيه إلى الخليفة المعتضد عام ٢٧٩ هـ ، فقد كانت تضم كثيرًا من المنسوجات النفيسة والأقمشة الفاخرة ، ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد يرجع تاريخها إلى سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ هـ . وتشبه كل الشبه قطعة أخرى باسم المعتمد وجدت في البعثة في سامرا ، وهي محفوظة الآن بالقسم الإسلامي من متاحف برلين .

ومما يؤيد ذلك ما يذكره الطبري ، فقد أشار إلى أنه حمل مع ابن الجصاص الجوهرة إلى المعتضد الهدايا ومن بينها صندوقان فيهما طراز وذلك في عام ٢٧٩ هـ ، ولا شك أنها كانت من مصانع الطراز الخاصة بمصر .

وفي العهد الطولوني استمرت دور الطراز بمصر في تنيس ودمياط وشطا وديق والاسكندرية في إنتاج كسوة الكعبة ، وتلك الخلج الشمسية التي كان يخلق بها الخلفاء والأمراء على رعاياهم تشجيعًا لهم وتقديرًا لخدماتهم الجليلة ، وكانت هذه الدور تضم من النسيج والصناعات الحريري والمذهب والساذج والمعلم وغيرهم من أصحاب الحرفة النسيجية ، كما نهجت تلك المصانع في مدن الصعيد نفس النهج مثل الفيوم والبهنسا والأشمونين وطحا واشتهرت بطرزها المختلفة ، ولم يختلف المنتج منها إلا في ذلك الأسلوب الزخرفي الذي جاء على غرار طراز سامراء ، التي شجع عليه ابن طولون وأبنائه من بعده . إلا أنه من الملاحظ أن هذا الطراز لم يستمر طويلًا على النسيج المصري ، إذ لم يلبث أن اختفى بمجرد سقوط الدولة الطولونية في سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م (٤) .

وقد بقيت المصانع الأهلية بجوار مثيلاتها الحكومية ، بسائر المدن تعمل في الانتاج دون طراز ، وتمتد التجار بحاجاتهم من مختلف الأقمشة

(٤) لم ينتشر هذا الأسلوب الزخرفي في طراز مصر الخاصة أو العامة إلا بعد أن أجاء إليها ابن طولون عام ٢٥٤ هـ وكان لنشأته في قصر الخلافة ببغداد - وتأثره بالفن الساماني السائد بها إلى حد كبير أثر واضح في نقل طراز سامراء العراقي إلى مصر .

Garner : Islamic pottery, p. 49.

ويظهر أنه لم تكن حرة في نسج ما تشاء بالقدر الذي تريده (٥) ، بل كانت الحكومة هي التي تمدها بالمواد الخام التي كانت تختتم عادة بدور الطراز أو المصانع الحكومية للنسيج . وكانت الحكومة تختص وحدها ببيع تلك المواد الخام بالسعر الذي تحدده بمعرفة موظفي دور الطراز .

وقد كانت دور الطراز تكلف النسيج في تلك المصانع الأهلية أن يحملوا ما ينسجون الى مكان خاص يحدد لهم ، حيث تطوى فيه الأثواب وتشد وتوضع في الأسفاط ، وكل عملية من هذه العمليات كان يقوم بها أحد موظفي دور الطراز الذي كان يحصل على أجر عمله من صاحب المصنع الأهلي . أما دور الطراز الخاصة والعامة فكانت تتبع بيت المال في الفسطاط ، وكان يشرف عليها موظف كبير يسمى صاحب الطراز أو ناظر الطراز ، وكان مقره الفسطاط ، يتبعه مساعدون في مصانع النسيج في الأقاليم ، كان يسمى المتوكل بطراز الأقاليم ، فقد جاء في وثيقة بردية ترجع الى القرن الثالث الهجري « قبض حسين بن يحنس بن رماح بن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصني » .

وقد حفل جامع الكتابات الكوفية الذي صنفه عالم الآثار (فيت) بأسماء العديد من دور الطراز ، وبيان قطع النسيج وتواريخ نسجها في مصر الإسلامية . فمن هذه القطعة التي وردت قطعة باسم الخليفة المهتدي، عملت بطراز الاسكندرية على يد محمد بن هلال سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م . وقطعة نسيج حملت اسم أمير المؤمنين أيده الله ، مما عمل بطراز الاسكندرية أيضا وذلك في سنة ٢٩٦ هـ أي بعد زوال الدولة الطولونية .

ومن القطع التي عملت بطراز الخاصة والعامة بتنيس بشمال الدلتا، قطعة من النسيج تحمل اسم الخليفة المعتمد وقد تم انتاجها في طراز تنيس سنة ٢٧٨ هـ / ٩٨ م . وهناك قطعة ثالثة باسم المعتضد والأمير أبو موسى هرون بن خماروية صادرة من طراز تنيس على يد عمر بن شاهين وعبد الغفار بن جمعة في سنة ٢٨٥ هـ . ولعل عمر بن شاهين كان هو المتوكل على الطراز في ذلك الوقت .

ومن قطع النسيج التي انفردت بحمل اسم هرون بن خمارويه قطعه

(٥) تشير بعض أوراق البردي الى حسابات خاصة لبعض الأشخاص الذين كانوا يودعون أغناما لدى بعض الرعاة لتربيتها في مقابل إعطائهم الأجر المناسب ، وترجع هذه الأوراق الى القرن الثالث الهجري ، ومن المرجح أن مالكي هذه الأغنام كانوا يستغلونها في الحصول على مادة الصوف منها ، أو هؤلاء التجار الذين كانوا يملكون بعض المصانع الأهلية للنسيج .

عملت بطراز تنيس على يدي محمد بن خلف ويرجع تاريخها الى سنة ٢٨٧ هـ . وكذلك وردت قطعة نسيج تحمل اسم الخليفة المعتضد وهرون ، وقد تم نسجها أيضا في طراز تنيس وترجع الى سنة ٢٨٨ هـ ، كما حملت اسم عبide الله بن سلمان متسولي دار الطراز . وقطعة أخرى وردت باسم المكتفي بالله من طراز العامة وتنيس سنة ٢٩٣ هـ .

ومما تجدر الإشارة اليه أن مؤسس الدولة الطولونية منذ توليه حكم مصر لم يحرص على ذكر اسمه في الطراز لأنه كان يعمل على أن يظل ولاؤه للخليفة العباسي نفسه (٦) . أما خمارويه وهارون فقد ظهرت أسماء كليهما في طراز تنيس ودمياط وغيرهما كما أشرنا من قبل ، فمن القطع التي حملت اسم الخليفة المكتفي وخمارويه تلك القطعة التي أمر بعملها في طراز دمياط في سنة ٢٨٩ هـ .

كما أنه يمكن القول بأن العهد الطولوني لم تخل فيه قطع النسيج أو المنسوجات من تلك التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية والتي ظلت سائدة في صناعة النسيج ، وقد لعبت دور الطراز في زخرفة المنسوجات دورا هاما ، حيث حرصت الادارة الحكومية على استخدام أمهر النساج وأمهر الرقامين ، وأغلى المواد الخام ، حتى تنتج من أفخر الثياب ما يتناسب بالخلفاء والأمراء العباسيين ورجال دولتهم في ذلك الوقت .

وكانت المصانع الأهلية تحاول السير على منوال دور الطراز ، وتستمد الوحي في اتقان الصنعة والزخرفة مما تنتجه تلك الدور الحكومية ، يؤيدنا في ذلك ما ذكره المقرئزي عن شهرة ثياب الاسكندرية خاصة نوع الشرب ، حيث بلغ من قيمة الثياب المنسوجة في مصانعها الأهلية ، أنه كان يباع كل زنة درهم منها بدرهم فضة ، وما يدخل في الطراز منه كان يبلغ ثمنه أضعاف ذلك . ومن هؤلاء الديباجيين الذين كانوا يعملون بنسج الحرير وتجارته في عهد الطولونيين أحمد بن الحسين بن عبدان المعروف بالديباجي وكانت وفاته في سنة ٢٩٣ هـ .

وبعد سقوط الدولة الطولونية وعودة مصر الى حظيرة الخلافة العباسية ، أصبحت دور الطراز المصرية تنتج فاخر الثياب وعليها طرازها وترسل الى بغداد وكانت تحمل أسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم في نفس

(٦) وتظهر أهمية ذكر الخليفة على الطراز ما ذكره ابن الأثير في سنة ٢٦٩ هـ حينما لعن الخليفة المعتمد ابن طولون في دار العامة وأمر أن يلعن كذلك على المقابر لأن ابن طولون امتنع عن ذكر الموفق في خطبة الجمعة وحذف اسمه من الطراز . تاريخ الكامل ، ج ٧ ، ص ١٦١ .

الوقت ، وقد أحصى (فيت) من قطع النسيج التي أنتجتها مصر وعليها أسماء الخلفاء ، فوجد العديد منها مما عمل بطراز الخاصة والعامة ، بمدينة الفسطاط ، منها قطعتان تحملان اسم الخليفة العباسي وترجع صناعتها إلى سنة ٢٩٤ هـ . وقطعة أخرى مما عمل بطراز العامة بمصر سنة ٢٩٨ هـ وتحمل اسم الخليفة المقتدر ، وحملت قطعة من النسيج أيضا من نفس دار الطراز ترجع إلى عام ٣٠٠ هـ .

وقد تكرر اسم شقيق المقتدر صاحب الطراز في تلك الفترة ، فقد ورد اسمه في طرز كثيرة ، كما تكرر اسم الوزير العباسي علي بن عيسى وقد حملت اسمه قطع من النسيج ، وأيضا الوزير حامد بن العباس وعلي ابن محمد من الوزراء العباسيين . واشتهرت من دور الطراز في تلك الفترة كل من طراز تنيس ودمياط وديق والبهنسا ، فضلا عن طراز الاسكندرية الشهير . ومن بين تلك القطع التي عملت في طراز العامة بمدينة دمياط ، قطعة تحمل اسم الوزير العباسي علي بن محمد ومعه بشر الخادم مولى أمير المؤمنين ، يرجع تاريخها إلى سنة ٢٩٦ هـ .

وقد ظل نظام الطراز يتطور حتى بلغ في العصر الاخشيدى حدا كبيرا من الجودة والانتاج ، وكانت الحكومة تراقب صناعة النسيج الأهلية مراقبة دقيقة وتختتم الأقمشة بخاتم رسمي ، ولا تسمح بأن يتولى التجارة فيها إلا التجار الذين ترخص لهم بمزاولة هذا العمل . وكان عليهم تقييد ما يبيعونه في سجلات رسمية . كما كان حزم الأقمشة وربطها وشحنها لا يقوم به إلا عمال من طرف الحكومة ، يتبادل كل منهم ضريبة معينة كموظف مسئول عن هذه الصناعة .

واهتم محمد بن طغج الاخشيد في أعقاب توليه الحكم للمرة الثانية بشئون الصناعة ومنها صناعة النسيج ، وأنشأ بجزيرة الروضة خزائن للكسوة تضم مجموعة من الحرفيين العاملين في مجال الحياكة والنسيج والتطريز . كما أنشأ المتاجر الخاصة بالثياب والمنسوجات بمدينة الفسطاط ومنها السوق الخاصة التي تسمى قيسارية البر ، مما يدل على ازدهار تلك الصناعة ورواج تجارتها .

وكانت الفسطاط تزخر بألوان الزينة وأنواع الديباج المشغل في أسواقها وشوارعها ، فقد ذكر ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق لما أرسل الخليفة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) إلى الاخشيد بكسوة الشرف وخلعة الولاية اكتظت الشوارع والأسواق بالأقمشة الثمينة والسجاد الفاخرة ، وزينت أبواب المسجد العتيق بالأقمشة الحريرية المشجرة بالذهب وذلك بمناسبة تولية الاخشيد شئون مصر في سنة ٣٢٣ هـ .

وقد كتب ابن حوقل الجغرافى والرحالة المعاصر للإخشيديين عن شهرة تنيس ودمياط وذكر ما بهما من الحلل السنية التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة . وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتى دينار إذا كان فيه ذهب ، وما لا ذهب يبلغ المائة دينار ، كما أشار إلى ما كان يصنع فى البهنسا من الستور والبسط والمضارب والفساطيط وذكر أن الزوج من بعض هذه الستور كان يساوى نحو ثلاثمائة دينار .

وكانت المنسوجات المصرية فى العصر الإخشيدى لا تزال متأثرة بالخارف التى استعملها النساجون فى نهاية العصر القبطى وفى فجر الإسلام ، وأكثرها رسوم طيور أو حيوان أو أشكال آدمية صغيرة فى جامات بيضية الشكل متعددة الأضلاع أو موزعة توزيعا غير منتظم ، وفيها أشكال هندسية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة .

وقد اشتهرت الثياب الديبكية بزخارفها المتنوعة والتى كان يلبسها بعض الناس فى عاصمة الخلافة العباسية ، ومنهم خدام الوزير على ابن الفرات . وكان ساقى العامة ببغداد فى ذلك الوقت ، يسير مؤثرا بمنديل مصر ، ومعتما بمنديل ديبقى من طراز ديبقى ، كما وردت على أسواق بغداد البسط الديبكية المطرزة .

وكانت مصر فى ذلك العصر تصدر من المنسوجات إلى أسواق بغداد ما قيمته عشرون ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار سنويا ، وظلت هذه المنسوجات ترد إلى العراق إلى أوائل الحكم الفاطمى ، حيث منع الوزير يعقوب بن كلس تصديرها إلى العاصمة العباسية .

وبرغم المنازعات السياسية بين الدولة الإسلامية وبيزنطة ، فإنه لم تتوقف العلاقات التجارية ، إذ كانت بيزنطة فى حاجة إلى بعض المصنوعات المصرية الممتازة خاصة ما ينتج فى مدينتى تنيس ودمياط من أنواع النسيج ، وكثيرا ما عمل الأباطرة البيزنطيون على شراء تلك الأنواع الفاخرة لتزيين قصورهم .

وقد بلغت شهرة دور الطراز المصرية وما تنتجه من منسوجات ثمينة جعلت الحكام والأمراء وعامة الشعب معها يقبلون على اقتنائها ، ووسيلة للاهداء والتقرب ، فيما ذكره المقريزى أنه لما حج الوزير أبو بكر محمد ابن على الباذرائى كان من بين ما وهبه للقرمطى بمكة المكرمة نحو مائتى قميص من طراز ديبقى ثمن الثوب الواحد منها خمسون دينارا .

كانت أسماء الخلفاء العباسيين تنسج في العصر الاخشيدى في الأقمشة الثمينة بلحمة من الذهب أو الفضة ، ومن الخطوط المتعددة الألوان وذلك تمجيذا لهم ، ودليلا على أنها صنعت في عهدهم ، وكان على العاملين بدور الطراز أن يتفنتوا في اخراج ما يشبه التحف الثمينة هذه . لكنه من الملاحظ أن أسماء الأمراء الاخشيديين لم تظهر في كتابات المنسوجات المطرزة أو المزخرفة .، وذلك كما ظهرت أسماء خمارويه وهارون من الأمراء الطولونيين ، وأغلب الظن أن الاخشيد والأمراء من بعده لم يحفلوا بهذا المظهر من مظاهر الاستقلال أو علامات الملك ، فقد كان الأخشيد شديد العناية بتقليد ابن طولون الذي لم يحرص على ذكر اسمه في الطراز .

ومن الملفت للنظر أن ما حملته قطع النسيج التي صدرت من دور الطراز كانت لأسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم ، والمشرفين على تلك الدور ، دون ذكر هؤلاء الأمراء الاخشيديين ، فقد تكرر اسم شفيع المقتدرى في قطع من النسيج حتى قبل تولي الاخشيديين . فظل يذكر اسمه على الطراز الصادرة في عهد الاخشيديين يتضح ذلك من تلك القطعة التي يرجع تاريخ نسجها الى سنة ٣٢٦ هـ .

ويمكن التعرف على أسماء المشرفين أو المتوكلين بالطراز في ذلك الوقت ، مما كانت تنتجه المصانع الحكومية ، ومن قطع النسيج التي أمدتنا بمعلومات لا ترقى اليها الظنون أو الشك ، فمن أصحاب الطراز في العصر الاخشيدى ورد اسم كل من جابر وشفيع وبكير وأبو زيد وعبيد وفائز ، ولا شك أنه كان لهؤلاء نشاط ملحوظ في الاشراف على تلك المصانع والعمل على تطوير انتاجها بصفة مستمرة ، لا سيما وأن ما تنتجه من المصنوعات كان يحمل أسماءهم .

وقد ورد اسم جابر على عدد من قطع النسيج ، منها قطعتان احدهما من الحرير والأخرى من الكتان ، وذلك بعد اسم الوزير الفضل بن جعفر ابن الفرات ، وعلى قطعة نسيج أخرى مؤرخة في سنة ٣٣٠ هـ ، وعليها اسم جابر بعد اسم الخليفة المتقى بالله العباسى (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) .

كما حملت الينا قطع النسيج التي أمكن الوصول اليها أسماء بعض دور الطراز بمصر في ذلك العهد ، بالاضافة الى أسماء هؤلاء المشرفين عليها ، ومن تلك القطع ما كان من طراز مصر أو القسطنطينية ومن تنيس ودمياط ، وذكر في طرازها كل من بكير وعبيد وفائز ومنها قطعة مما عمل بطراز شطا على يد فائز يرجع تاريخها الى سنة ٣٥٧ هـ .

وهكذا كانت دور الطراز الخاصة والعامة الخاضعة لاشراف الادارة

المصرية تنتج من أنواع الثياب المزخرفة أو المطرزة بما يكفى حاجة البلاد وأسواق بغداد من الثياب والبسط والديقية ، بالإضافة الى ما كانت تزخر به خزائن الكسوة فى قصور الطولونيين والاختشيديين مما دق من دور تنيس ودمياط ، ولا شك أن الخلع الثمينة التى كانت تحمل أسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم التى حاکتها أيدي النساج وعملت على تطريزها داخل دور الطراز ، كانت من أهم ما أنتجته هذه الدور فى ذلك العصر .

ولا يسعنا أن نختم الحديث عن صناعة النسيج سواء ما كانت تنتجه دور الطراز العامة والخاصة أو المصانع الأهلية فى ذلك العصر ، قبل أن نعرض للأسعار التى كانت تباع بها المنسوجات كما وردت فى أوراق البردى العربية ، وكذلك الأجور التى كان الصناع يتناولونها نظير اشتغالهم بعمليات الخياطة وغيرها .

وقد أورد جرومان بعض هذه الأسعار ضمن قائمة حساب بتسليم أثواب مختلفة يرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجرى على النحو التالى :

النوع	الثلث
ثلاثة أسفاط من الثياب	مبلغ الثلث خمسة دنانير ونصف
عشرة أثواب	خمسة دنانير
عشر شقات مشدودة .	الثلث ثلاثة دنانير
ثوب شرب	الثلث ثلثا دينار
ثوبين شرب	الثلث ديناران
ثلث جبة خز	أربعة دنانير وثلث
ثلث منديل تنيسى	ديناران وقيراط
ثلث جبة صوف	دينار ونصف
ثلث رداء بغدادى	ثلاثة دنانير وثلث

أما عن قيمة الأجور التى كان يتقاضاها الخياطون فيمكن معرفتها من البيان الذى ورد فى إحدى البرديات ويتضمن ما يلى :

« بطانة صفراء بالحشيش ، وفرد بطانة حمراء بالقم وجبة خز حمراء صفراء ، وقميص وسراويل معصفر بدرهمين ، وأيضا جبة عتابية وبطانة صفراء ، وهذا حساب خالد » .

كما ورد في بردية أخرى أن أجرة خياطة القلايل وهي ثياب النساء المصنوعة من الأنسجة البيضاء الرقيقة مما اختلفت به دور الطراز المصرية ، وتغيرها أربعة دراهم وربع . . . وتستدل من ورقة بردية أخرى على أن أجرة عمل الثوب كانت ثمن دينار . ولا شك أن هذه الأجور كانت تتناسب في ذلك العصر وأسعار المواد الغذائية بنوع خاص ، وهي تثبت أن حرفة الخياطة وأجرها كان أعلى بكثير من أجرة عامل اليومية في الزراعة التي كانت لا تزيد عن سدس الدانق . وهكذا كانت حرفة الخياطة وغيرها من الحرف المتصلة بالنسيج تدر على أصحابها ما يجعلهم يقبلون على عملهم في رضا وسرور ، مما سنعرض له دون إيجاز في أحد الفصول القادمة . . .

٣ - حرفة الصباغة وصناعة الألوان

ترتبط مواد الصباغة بصناعة النسيج ارتباطاً وثيقاً ، وتدل ألوان الخيوط المصبوغة بثباتها وزهائها رغم ما مر عليها من قرون طويلة ، على أن المصريين قد برعوا في فن الصباغة (١) ، وأنهم قد استخدموا أجود أنواع مواد الصباغة الطبيعية (٢) وقد ورث الأقباط عن المصريين القدماء هذه الحرفة (٣) ، وعرفوا طريقة استخلاص الأصباغ والألوان المختلفة من خاماتها الطبيعية سواء أكانت نباتية أو حيوانية أو معدنية مثل الكركم

(١) اتقن الفراعنة فن التلوين وصباغة المنسوجات بالرسوم المختلفة ، وكانوا يكتبون في أول أمرهم بصباغة النسيج بلون واحد مثل الأحمر أو الأزرق ، ولكنهم بمضي القرون أخذوا يصبغون الثياب بالألوان عدة ، "مرزوق الزخرفة المنسوجة" ، ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥

(٢) اكتشف عالم الآثار بترى وجود مصبغة في تل آتريب ترجع إلى العصر الروماني وذكر أن أحواضها كان معظمها أزرق داكنا بسبب وجود ياقا وآثار النيل وبعضها أحمر ، كما عثرت بعثة إيطالية في حفائر كوم البريجات على معمل صباغة وتنظيف يرجع إلى العصر الروماني أيضا .

(٣) وقد عثر في الأقصر على بعض أوراق البردي المصرية المكتوبة بالاعريقة ألها بولس ديحوقريطس وهي محفوظة - الآن بمتحف استكهولم بالسويد وتمتد أقدم دليل مكتوب ، ذكر فيه شيء عن صناعة الأصباغ في القرن الثالث الميلادي بمصر وفي هذه الأوراق يمكن التعرف على طريقة المصريين الأقباط في غسل الصوف بالأعشاب الصابونية وتنظيفها وكيفية غليه من أملاح النحاس والحديد والشب ، وأشارت الأوراق أيضا إلى خامات الصباغة وكيفية تثبيت الألوان ، وإزالتها .

الفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٤٢

وقشر الرمان والحناء والنيلة والشبب وغيرها (٤) . وعرف المصريون كذلك كيفية استخراج الشبب واستخدامه وأملاح الحديد فى تثبيت الأصباغ على النسيج ، كما استخدموا بذور شجرة السنط (القرظ) الذى كان ينمو بكثرة بمصر من أجل ذلك (٥) .

ولا شك أن وفرة المواد الخام بجهات مصر المتفرقة سواء عن طريق زراعتها كما هو الحال فى الرمان والآس والساجم والبلسان والعصفور والقرطم والنيلة ، أم فى استخراجها من أماكن وجودها كالشبب والنطرون ، وكان الشبب يستخرج من الواحات الداخلة والخارجة بالقرب من أسوان ، ومن المعروف أن الحكومة البيزنطية كانت تحتكر إنتاجه والنطرون قبل الفتح العربى للبلاد .

وقد شجع الحكام العرب بعد الفتح هؤلاء المحترفين بحرفة الصباغة وعمال النسيج المصريين ، ولم يجد الحرفيون الأقباط صعوبة كبيرة فى ارضائهم ، نظرا لميلهم فى زخرفة الأقمشة والمنسوجات الى العناصر الهندسية والنباتية ، ولكراهية العرب المسلمين تصوير الانسان أو الحيوان وكان هذا الميل نفسه قد دب الى الفن القبطى منذ منتصف القرن الخامس الميلادى .

كما فضل العرب الفاتحون الملابس المصنوعة من الكتان الأبيض أو الصوف الكحل ، وقد استعمل الانسان الألوان لترمز عن أحواله فرمز باللون الأحمر للحرب مثلا ، وفضل الناس بعض الألوان على بعضها البعض الآخر ، فكان الاهتمام باللون الأخضر لأنه يرمز للسلام ، واللون الأبيض يرمز للأطمئنان والسرور .

أما اللون الأسود فقد كان رمزا للحزن والحداد ، وقد فضل العباسيون شعارهم السواد ، وكانت الدولة تتخذ فى حروبها بعض البنود والأعلام ألوانا معينة كشعار لها ، لكى تتميز بها أثناء القتال .

وكذلك استخدمت ألوان الثياب فى عصر الولاة للتمييز بين المسلمين وغيرهم من أهل البلمة ، يذكر المقرئزى أن الخليفة المتوكل أمر الذميين فى

(٤) الشبب مسحوق قابض استخدم منذ زمن بعيد فى تثبيت الألوان وفى أعمال الصباغة ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، الفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٤٧ .

(٥) المقرئزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، ويذكر المقرئزى : أن الحكومة كانت تحتكر إنتاجه فلا يتصرف فيه الا الديوان ، ومتى وجد منه مع أحد شئ اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه منه .

سنة ٢٣٥ هـ بلبس الطيالس العسلية ، وعمل رقعتين على لباس رجالهم
تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة منها أربع أصابع ، ولون كل واحدة
منها تختلف عن لون الأخرى .

وهكذا أصبح من الأهمية بمكان ، أن يقوم الصباغون والرسامون
وغيرهم من أصحاب حرفة الصباغة باستخلاص الألوان وفاء للاحتياجات
المتنوعة في صناعة النسيج وغيرها من الصناعات ، واستطاع الصباغون
في مراكز النسيج المنتشرة ، استخلاص الأصباغ اللازمة من المواد النباتية
والحيوانية والمعدنية الموجودة داخل البلاد أو ما كان يستورد منها من
الخارج (٦) .

وقد أمكن الحصول على الصبغة الحمراء من مادة اللعل بعد دخول
العرب مصر ، اذ عملوا على جلبها من الهند ضمن مجموعة الغلات والمواد
الأخرى .

كما أمكن الحصول على القرمز من بلاد أرمينية التي اشتهرت به في
العصر الاسلامي ، وكان يستخرج منها اللون الأحمر (٧) . وفضلاً عن ذلك
فان الصناع المصريين أمكنهم استخلاص الأصباغ الحمراء من المعادن ،
لاسيما معدن الزرنيخ الأحمر والزنبرج الرمائي (أكسيد الزئبق الأحمر) .
واشتهرت مدينة اخميم باستخلاص العصارة الحمراء ، وكان من
أسباب تفوقها في فن الصباغة وصناعة الألوان ، أنه كان ينمو بالقرب
منها نبات السلجم وكانت له عصارة حمراء يمكن استعمالها في
الصباغة (٨) ، ومن الجدير بالذكر أن هذا النبات كان يعرف باسم «ملوك»

(٦) جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، وكان المصريون
في العصر القبطي يستخدمون الفوه عود وهي صبغة حمراء يحصلون عليها من جذور ونبات
عشبي ، ويبدو أن الحصول عليها لم يكن من اليسر ، وكانت كمياتها قليلة لا تكفي
لاحتياجات الانتاج المتزايد من المنسوجات بعد الفتح العربي ، وذلك فضلاً عن أن
مادة اللعل كانت صلبتها أقوى واجود .

(٧) يشير الاضطخري الى شهرة أرمينية بوجود القرمز بها فيقول عنها : « ولهم صنع
يسمى القرمزية أحمر يصبغ الصوف ، وبلغني أنه دودة تنسج على نفسها مثل دودة القز »
المسالك والممالك ، ص ١١٠ ، وقد سبق الجاحظ الاضطخري في الحديث عن مادة القرمز
ووصفها بأنها دودة حمراء كانت تنبت في ثلاثة مواضع بجهات الأندلس وشيراز ، وأرض
فارس ، كما يشير الى احتكار طائفة من اليهود ومعرفة بتلك المواضع واستخراج القرمز
منها . التبصر منها . التبصر بالتجارة ، ص ٣١ .

(٨) يشاع استخدامه في استخراج اللون الأحمر منه وصباغة الثياب . فقد ورد في
أحد أوراق البردي التي ترجع الى القرن الثاني الهجري أو الثالث ضمن قائمة حساب
بزازي أنه باع فريد بطانة حمراء بالقيم : جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٦ ،
ص ٨٠ .

لأن عصارته الحمراء الداكنة كانت تستخدم في صناعة الحرير القرمزي الذي كان يتم تصديره الى بيزنطة قبل الاسلام ، وكذلك تمكن في مصر من استخدام شجر البقم ، واستخراج اللون الأحمر منه ، وكان يدخل في تركيب الأصباغ وفي الحصول على ألوان جميلة لتزيين المخطوطات .

كما كان يتم استيراد الزعفران البنقي والعصفر والزعفران العربي المسمى العروس ، وهو نبات يشبه السمسم ويكون في اليمن ، ويتحدث عنه آدم متز فيقول : « وكانت جمال اليمن التي تحمل الزعفران الى الشمال تصفر ألوانها بتأثير أحمالها الغالية » ، ويظهر أنه كان يحمل بعد ذلك من ميناء عدن أو من جدة الى مصر عبر البحر الأحمر حتى يصل الى القلزم وقد تم استعماله في التلوين باللون الأصفر ، بالإضافة الى ما كان ينبت في مصر من نبات العصفور أو القرطم في صعيد مصر ، وأمكن استغلاله في الحصول على اللون الأصفر كذلك (٩) .

أما عن شجر النيل ، الذي كان يستخلص منه اللون الأزرق فإنه كان يزرع بمصر منذ العصور القديمة (١٠) ، وقد زادت زراعته بعد الفتح العربي زيادة عظيمة خاصة في الصعيد الأعلى ، ويشير المقرئزي الى طريقة زراعته وحصاده ، حيث كان شجر النيل يضرر يحصد في كل مائة يوم ، وهو يبقى في الأرض الجيدة ثلاث سنين . ولا شك أن وفرة زراعته قد أتاحت للحرفيين والصباغين المصريين سهولة الحصول على الألوان الزرقاء في ذلك الوقت .

كما أتاحت وفرة الشب المستخرج من الواحات في صعيد الأحمر ، وفي تشبب الألوان ، وكان يحمل من الواحات الى قوص واخميم وساحل أسبوط ، ثم ينقل في المراكب على صفحة النيل حتى يبلغ القسوط والاسكندرية ، حيث كان يباع منه أكثر من خمسة آلاف قنطار أو أكثر في السنة .

وقد اشتهرت أسبوط في مصر الاسلامية بحرفة الصباغة لسهولة حصول هؤلاء الصباغين على مواد الصباغة كالشب والنيلة حيث كانت تلتقى

(٩) وكانت القمصان والبراويل يستخدم في صباغتها اللون الأصفر كما ذكر ذلك في أوراق البردي العربية ، فمن قائمة أحد التجار للثياب أوردت الأوراق أنه باع « قميص وبراويل مصفر » من جملة الثياب : جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ٧٩ .

(١٠) كان الصباغون يستعملون اللون الأزرق في صباغة الأقمشة والألوان الأخرى . وقد ذكر Milne أن القرائب على الصباغين في جهة إيشميريا ، كانوا يؤدون نحو ٢٦٥ دراخمة سنوياً ، وذلك في العصر الروماني والبيزنطي .

A History of Egypt under Roman rule, p. 157.

عندها الوارد من هذه المواد من البواحات المجاورة لها . ولا شك أن وفرة مسحوق الشب كان خير معين في اشتغال الناس لتثبيت أصباغهم الطبيعية في النسيج المصرى ، مما أدى الى شهرته وتصديره الى سائر البلدان . وكان لدى مصر من محصول الشب والنظرون ما يزيد عن حاجتها ، فكان يصدر منه الى أوروبا لحاجتها اليه في صناعة النسيج وغيرها ، وليس كما يرى رات حين قال : « ولم يكن استخدامه واسع النطاق في الصناعة المصرية » .

ويضم متحف الفن الاسلامى مجموعة من شواهد القبور تكشف لنا عن أسماء عدد من الصباغين (١١) ، منها شاهد حجر رملى من أسوان باسم « أحمد بن عباد بن ادريس الصباغ » . وشاهد آخر مؤرخ في شعبان سنة ٢٣٩ هـ / ٨٥٤ م باسم قاسم بن عبد الله الصباغ . مما يدل على انتشار حرفة الصباغة في عصر الولاة .

ومن أسماء الصباغين التى أمكن العثور عليها فى العهدين الطولونى والاخشيدي ، ورد ذكر عبد الغنى بن جعفر بن سليم الصباغ على شاهد حجر رملى من الصعيد ويرجع الى القرن الرابع الهجرى ، كما ورد نص جنائزى من أسوان مؤرخ فى ذى القعدة سنة ٣٥١ هـ باسم أحمد ابن ابراهيم بن يحيى بن ابراهيم آل صباغ ، وتوضح مجموعة الفيوم من النسيج التى ترجع الى ذلك العهد مدى قيام الرسامين والصباغين فى تطوير حرفتهم (١٢) ، يتجلى ذلك فى قوام زخرفة تلك المجموعة من صور الطيور والحيوانات والأشكال الآدمية ، وبألوانها الزاهية القوية ، وعليها كتابة تتضمن أنها صنعت فى طراز الخاصة باحدى جهات الفيوم .

ويؤيد ذلك ما أبداه ابن حوقل من اعجاب شديد فى بداية العصر الفاطمى ، بأنواع المصنوع من النسيج فى كل من الفيوم والبهنسا ، وما كانت عليه من دقة الألوان وثباتها ومهارة الصباغين فى دور الطراز بكل منهما ، فهو يصف طراز الفيوم وشهرته قائلا : « وبالفيوم مدن كبار جليلة وطرز مشهورة للسلطان والعامه » ، وفيها من الأمتعة ما يستغنى

(١١) كما ورد لفظ دليل الصباغ فى احدى أوراق البردى العربية التى يرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجرى .

نجرومان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ .

(١٢) يضم متحف الفن الاسلامى مجموعة من الأقمشة اصطلاح علماء الآثار على تسميتها بمجموعة الفيوم وهى ترجع الى القرنين الثالث والرابع الهجريين .

بشهرته عن اعادته كاليهنسا المعمول بها الستور والاسترقاق، والشرع والخيام والأحله والستائر والبسط والمضارب والقساطيط العظام بالصوف والكتان بأصباغ لا تستحيل وألوان تثبت فيها من صور البقة الى القيل .

وقد اتسع نطاق استخدام الألوان في العصر الفاطمي ، وتعددت أغراضه فظهر لون القرنفل المتدرج في رسم الزهر ، والأخضر الزراعي ، والأصفر العاجي ، والأزرق السماوي ، والزخرفة المذهبة وبها الألوان المتدرجة .

ولا شك أنه كان لتقدم صناعة الكيمياء في ذلك العصر ، وخبرة الصباغين الكيميائية بصناعة الألوان وصباغتها أثر كبير في ازدهار فن الزخرفة في الأقمشة المنسوجة ، وفي دبح الجلود وغيرها من الصناعات السائدة .

وقد بلغ من مهارة الصباغين والرقامين والرسامين والمصورين المصريين أن أوجدوا أصباغاً لتلوين الأنسجة ، وكذلك للتسيقساء ، والأواني الخزفية والزجاجية وغيرها . وكان الصناع المصريون هؤلاء يستخدمون طرقاً معينة في ختم الزخارف وطبعها على المنسوجات كان منها استخدام ألواح الخشب وقد عثر على قطعة من النسيج ذات زخارف منسوجة بنفس الطريقة ترجع صباغتها وزخرفتها الى أوائل العصر الفاطمي .

كما يذكر لنا ابن بسام طريقة أخرى استعملها عمال تنيس في ختم زخارفهم ، وهي طريقة الحجارة المنقوشة لضرب الثياب ونقائها وتلوينها .

وقد شجع الفاطميون على زيادة عمل الأصباغ وصناعة الألوان المختلفة ، كما شجعوا المصورين والرسامين على استخدام الرسوم والأشكال الأدمية والحيوانية ، ولم يحقل فقهاء الشيعة برفقن أهل السنة وكرههم لرسم الكائنات الحية (١٣) ، حيث أنه من الملاحظ على صناعات الفاطميين أنها زينت بصور آدمية وحيوانية كثيرة .

وفي أوائل القرن الخامس الهجري ظهر في مصر نوع جديد من القماش المسمى « بوقلمون » وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، ويشير آدم متز الى هذا النوع من القماش فيقول : ويظهر للرائي في ألوان مختلفة ، وكان يصنع في تنيس وحدها ، ويمكن القول بأنه لولا تفوق الصباغين في تلك المدينة وبغيرها من المدن الصناعية المصرية ، وخيرتهم

(١٣) أورد الذهبي في كتابه الكيثر تحريم التصوير في الثياب والميطان والحجر والدرهم وسائر الأشياء . كتاب الكيثر ، ص ١٩٥ .

الوطيدة في صناعة الألوان في ذلك الوقت ، لما أمكن لمصانع تنيس من
انتاج البوقلمان .

ويبدو أن أصحاب حرفة الصباغة قد نجحوا في مزج الفصوص
المعروفة بالبوقلمون والتي أمكن استخراجها من قاع البحر بالقرب من
شواطئ الاسكندرية والتي قال عنها المسعودي : « وهي ترى ألوانا مختلفة
من حمرة وخضرة وصفرة تلتون في المنظر ألوانا مختلفة » . وهذا يفسر لنا
ما أوضحه آدم متز ويتمشى في امكانية استخراج هذه المادة العجيبة . وظهور
هذا النوع الجديد من القماش بعد صياغته بهذه المادة الجديدة في العصر
الفاطمي .

ومن أسماء الصباغين التي وصلت إلينا من جنوب الصعيد في عهدي
الخليفة الحاكم وابنه الظاهر ، كما يتضح لنا من نص جنازى كان جعفر
ابن محمد الصباغ ، ومن الملاحظ في ذلك العهد أو تلك الفترة أنه تم
الترخيص برسم الأشخاص ، وكما أصبحت صناعة مزج الذهب بالألوان
زاهرة ، ووجدت الأعداد الهائلة من التراكيب الزخرفية والهندسية ،
مما يدل على تقدم فن الزخرفة في أواخر القرن الخامس ، وأمكن للصناع
المصريين مزج الألوان بطريقة يخیل معها للرائي أن في الزخارف شيئا
من البروز .

وقد ترجم المقرئزي في كتابه ضوء النيراسي لمجموعة من المصورين
الذين كان جل اهتمامهم بلا شك صناعة الأصباغ وكيفية استخدامها في
العصر الفاطمي وما تلاه من العصور (١٤) ، وهناك من المضارب والخيام
الفاطمية ما كانت رسومها وألوانها تبعث على الدهشة وشدة الإعجاب ،
ونقل عن أبي الحسن بن الحسن الخيمي أنه من بين ما وجد من أنواع
الخيم في خزائن الفاطميين فسطاطا كبيرا قد صور في رفرفه كل صورة
حيوان في الأرض وكل عقد مليح وشكل ظريف . وكذلك ما ذكر من أنه
وجد في القصور الفاطمية حين نهبت في سنة ٤٦٠ هـ ألف قطعة من
المنسوجات مصورة على حاشيتها خلفاء العرب مع مقاتلين ورجال مشهورين .
وكانت البسط المصنوعة من تسائج الذهب والحرير والمخمل مستورة
بتصاوير ممثل بها رجال وحيوانات من كل نوع .

وكانت الفسطاط من أهم مراكز صناعة الأصباغ ، فقد أطلق اسم
الصباغين على تلك الأحياء التي كانوا يعملون بها ، حيث أشار المقرئزي

(١٤) لم يصل إلينا ذلك الكتاب وهو طبقات المصورين المنعوت بضوء النيراس والناس
الجالس في أخبار المزوقين من الناس .

الى وجود عدة حوانيت للرسامين ، والى عقبة الصباغين وقيسارية العصفور ، وكما أشارت وثائق الجنيز الى اسم أحد أصحاب المصانع بالفسطاط وكان يدعى « عروس بن يوسف » من المهديّة بتونس ، وكان له نشاط واسع في عالم التجارة في ذلك الوقت خاصة في البحر المتوسط .

ومما يدل على انتشار حرفة الصباغة في الفسطاط وغيرها من المدن المصرية ما أشارت اليه كتب الحسبة حول أساليب الغش في مواد الصباغة ، وما كان يقوم به الصباغون في حوانيتهم ، فقد كان أكثر صباغي الحرير الأحمر وغيره يصبغون الغزل والثياب بالحناء بدلا من الفوه ، فيخرج الصبغ حسنا مشرقا لفترة وجيزة ، فاذا أصابته الشمس تغير لونه وزال اشراقه . كما يذكر الشيزري أن بعض الصباغين كانوا يستعملون الزاج في صباغة الثياب المراد صباغتها باللون الكحلي ، فتخرج الثياب صافية اللون سديدة السواد ، فاذا مضت عليها أقل مدة تعود الى أصلها ويتغير لونها ، وكان على المحتسب وأعوانه منع هؤلاء امصباغين من فعل ذلك .

ومهما قيل عن غش الصباغين في ذلك الحين ، فان التصميمات الزخرفية التي اتبعت في العصر الفاطمي الأخير تدل على مدى ما بلغته حرفتهم من تفوق ، وعلى الاهتمام الشديد بالزخرفة ، وما تطلبت من عمل الأصباغ الزاهية ، والتفنن في تركيبها وتكوينها والتلوين بها ، فقد ظلت هذه الأصباغ ثابتة حافظة على بهائها طوال ألف سنة حتى الآن .

٤ - مظاهر تقدم صناعة النسيج في العصر الفاطمي

تقدمت صناعة النسيج وراج انتاجها بعد الفتح الفاطمي للبلاد ، واتخاذهم القاهرة مقرا لخلافتهم ، وقد رغبوا في اتخاذ المنسوجات كوسيلة من أجل تحقيق أهدافهم السياسية ، والعمل على نشر مذهبهم والإشادة به ومحاولة تركيز ذلك في نفوس الناس داخل البلاد وخارجها ، كما رغبوا في اتخاذ المال والاغداق به على المصريين حتى تحدث الناس عن ذلك وقالوا « ذهب المعز » ، ولا غرو فقد حمل معه المعز لدين الله حين قدومه الى القاهرة ما يشبه الطواحين من السبائك الذهبية .

ولا شك أن قطع النسيج المطرزة بالعبارات الدينية والدعائية بأسماء الأئمة التي بدأت دور الطراز في انتاجها في أعقاب الفتح مباشرة ، وكانت خير شاهد على ذلك ، فضلا عما سعى اليه الفاطميون في منافسة الخلافة العباسية وبزها في ميادين الأبهة والعظمة ومظاهر الترف والنعيم .

وقد سعى الامام المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين للتقرب الى الشعب المصري ، واستمالة قلوب الناس بنحو حكمه ، وكانت الخلع الثمينة من الثياب من أهم الوسائل لتحقيق ذلك .

عمل المعز لدين الله على انشاء دار الكسوة ، وكان يقصص فيها أنواع الثياب والبن ، ويكسوا بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف ، وقد انتخب لها مهرة الصنائع وعينتهم فيها ، يصنعون الله ما يشاء من أفخر الثياب والملابس الثمينة ، ولا ريب أنه كان لذلك الأثر البعيد في تطوير الصناعة ذاتها لدى الراتب الحرفي والصنائع من عامة الشعب

المصري ، لأن ما يخرج منه صناعات البلاط الفاطمي من هذه التحف كان بمثابة نماذج يعمل الحرفيون على تقليدها .

وتبدو مهارة الصناع ومدى حذقهم لفنون الحياكة والتطريز ، من وصف الكسوة التي أمر الخليفة المعز بعملها للكعبة عام ٣٦٢ هـ في دار الكسوة هذه ، وقد عبر ابن ميسر عن إعجاب الحاضرين في إيوان القصر ، وذلك حينما نصب المعز الشمسية وكانت من الديباج الأحمر ، ودورها اثنا عشر هلال ذهب ، في كل هلال أترجة ذهب مشبك ، جوف كل أترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفي دورها مكتوب آيات الحج بزمرد أخضر وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله » يقول ابن ميسر : « ولم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر والشام والعراق فذكروا أنهم لم يروا قط مثل الشمسية » .

كانت خزانة الكسوة في القصر الفاطمي تشتمل على خزانتي أحدهما الخزانة الظاهرة ، وقد خصصت لصناعة الملابس الرسمية للخليفة وكبار رجال الدولة والبلاط الفاطمي ، يذكر المقرئزي أنه كان يحمل إليها مما يعمل في طراز تنيس ودمياط والاسكندرية من خاص المستعمل ، كما كان يخصص لها مبلغ من المال ، بلغ حوالي ستمائة ألف دينار في السنة . كما كان بها من أنواع الأقمشة الفاخرة مثل الأقمشة الكتانية الرقيقة والحرير الموشى بالذهب أو القلاطون . وكان يوجد فيها صاحب المقص وهو مقدم الخياطين .

أما الخزانة الباطنة فهي منفصلة عن الخزانة الظاهرة ، يتولى أمر الإشراف عليها امرأة تنعت بزين الخزان ، بين يديها ثلاثون جارية ، لهن الخبرة والمهارة في أعمال الحياكة وفن التفصيل ، وما يلزم ملابس الخليفة في زيه المتنوع عند الركوب وسائر المناسبات الدينية والأعياد القومية الأخرى .

والحقيقة أن توزيع الكسى على الناس كان عادة عند الخلفاء العباسيين ، وقد شاركت دور الطراز المصرية من قبل في عصر الولاة في إنتاج مثل هذه الكسوات وأرسلها إلى بغداد ، وفي عهد الطولونيين والاختشيديين أيضا ، إلا أن الفاطميين كانوا أكثر توسعا في هذا العمل إلى حد كبير . ولا ريب أن الحكومة الفاطمية ما كانت لتنفق المبالغ الطائلة إلا من أجل تحقيق أهدافها السياسية والعمل على استمالة المصريين وإجتذاب قلوبهم بصفة مستمرة ، لدرجة أن الفاطميين خصصوا لذلك ديوانا خاصا يسمى

ديوان خزائن الكسوة يشرف على توزيعها فى المناسبات المختلفة (١) .

ولا غرو فقد كانت الكسوات تفرق فى مناسبات عديدة منها غرة رمضان وأول العام وأعياد الفطر والنحر ، وكسر الخليج وعيد الغدير ، وكان هؤلاء الصناع والمهرة من الحرفيين يعملون فى خزائن الكسوة تلبية لتلك الاحتياجات الكبيرة منها ، وما يستلزم من الأزياء المطلوبة لكل من الخليفة وأرباب المناصب والأقلام ، وغيرهم من رجال البلاط الفاطمى ، والمتطلبات الأخرى .

وقد أفاض المقرئى وغيره من المؤرخين فى وصف أنواع الكسوات التى كان الخليفة الفاطمى يمنحها للأمراء والأميرات وموظف القصر وأطباء البلاط ووالى كل من القاهرة والفسطاط ، كان لمنح هذه الكسوات مواسم خاصة يصدق فى كل منها على طائفة معينة من هؤلاء الذين تقدم ذكرهم ، فيما عدا عيد الفطر ، فقد كانت تعم فيه الحلل على الجميع حتى أنه أطلق عليه اسم « عيد الحلل » . كانت تختلف هذه الكسى باختلاف الأشخاص الممنوحة لهم ، فالحلل والبذل المذهبة انما كانت تمنح للأمراء ورجال القصر ، وكبار الموظفين وعظماء الضيوف الوافدين من الخارج .

وربما كان أول من خلع عليه المعز لدين الله بعد وصوله الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ قائده جواهر الصقل ، فقد ذكر المقرئى أنه خلع عليه خلعة مذهب وعمامة حمراء وقلده سيفاً ، وقاد بين يديه عشرين فرساً مسرجة وحمل بين يديه خمسين ألف دينار وثمانين تختاً من الثياب . وكانت القاعدة المرعية أن يرفقوا الخلع ببراءات يصدرها ديوان الانشاء المختص بمثل هذا العمل .

وكان للقواد نصيب وافر من الخلع الثمينة هذه ، كما حدث عند خروج منجوتكين على رأس الجيش الى حلب لاختضاع ابن سجد الله ، اذ خلع عليه الخليفة العزيز بالله ، واشتملت الخلعة على مائة قطعة من الثياب الملونة وعشر قباب ومناطق مثقلة وأهلة وفروش وخمسين بنداً .

ويصف المقرئى ما أنعم به الحاكم بأمر الله على الحسن بن عمار بوساطة ولقبه بأمين الدولة ، وقد اشتملت الخلعة على مقدار خمسين ثوباً ملونة من البن الرفيع ، وكما يمدنا المسبحى بما خلع به الظاهر لاعزاز

(١) يصف المسبحى ما كان عليه زى الخليفة الظاهر عند ركوبه لكسر الخليج عام ٤١٤ هـ ويقول : كان عليه فى وقت نزوله الى مصر قميص مذهب ، وعلى رأسه شاشية مرصعة ، وزيه فى طلوع ثياب ديبقى ، وعلى رأسه عمامة شرب مسكر مذهبية « - أخبار مصر ، ص ٣٠ - ٣١ .

دين الله على محمد بن علي بن ابراهيم الرسى نقيب الطالبين فى عام ٤١٤ هـ ، وكانت الخلعة عبارة عن ثوب ديبقى مذهب مصفف بأطواق عراض ، ومن تحته ثوب مصمت مذهب ، وغلالة مذهبة وعلى رأسه عماما شرب مذهبة ، يقول المسيحي : « وخرج وفى يده سجل عنوان من عبد الله وولده الامام على بن أبى الحسن الظاهر ولاعزاز دين الله أمير المؤمنين ابن الامام الحاكم أمير المؤمنين الى نقيب الطالبين محمد بن علي الحسنى الرسى سلمه الله » وهكذا كانت براءة الخلع والتشريف وما جاء فيها من أمثال هذه العبارات ، من قبيل الاشادة بمركزهم الدينى الممتاز وتحقيق المغزى الحقيقى من الدعاية لهم .

والواقع أننا نلاحظ كثرة مثل هذه العبارات التى استخدموها على الملابس والمباني وغير ذلك ، فقد جاء فى قطع النسيج عبارات مثل « الحمد لله رب العالمين ونصر من الله لعبد الله ووليه المنصور أبى على صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وتسليما مما أمر فى طراز الخاصة تونه سنة سبع وثمانين وثلاثمائة . . لا اله الا الله الخير معين ان شاء الله والتوفيق » . وكذلك العبارة التى وردت فى قطعة النسيج الصادرة من طراز العامة بتنيس سنة ٤١٢ هـ فى عهد الخليفة الظاهر جاء فيها : « مما أمر بعمله الامام الظاهر لاعزاز دين الله أمير المؤمنين بن الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين صلوات الله عليهم » . وهكذا كانت الدعاية الفاطمية لها أصولها وقواعدها واستخدام المنسوجات فى كل مناسبة والاكتثار من توزيع الكسوات على الناس مما يساعد الى حد كبير على تحقيق هذه الأهداف .

ومما لا شك أن ما كان يحوزه كبراء القوم من الملابس والخلع الثينة وقطع النسيج وما كتبت عليه من العبارات الدعائية ما يضيق حصره يشهد بذلك ما خلفه الأمير جوهر عند وفاته من الثياب الديباج ، وقد بلغت خمسة وسبعين ألفا ، ولما قتل برجوان فى سنة ٣٩٠ هـ ، وجد له مائتان وحدى وستون بقجة من القماش وألف قميص حرير اسكندري وألف منديل شغل اسكندرية ، ومائة منديل يعنى عمامة كلها شروب ملونة معمة شائبة .

واشتملت تركة السيدة رشيدة على ثلاثين ألف ثوب خسروانى وعشرين ألف من الثياب المحصنة ألوانا وذلك عند وفاتها عام ٤٤٢ هـ . وتطالعنا المصادر العربية بتلك المقادير من قطع النسيج المختلفة الأشكال والأنواع مما خلعه الخلفاء والوزراء ووجوه الدولة ، مما يحمل المرء على الشك فى مدى صحتها ، فقد ذكر مؤلف كتاب الذخائر : وقومنا ما أخرج من خزائن القصر - يعنى فى سنوات الشدة العظمى - من سائر ألوان

الخسروانى ما يزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب . وأرسل ناصر الدولة يطلب المستنصر بما بقى لغلمايه ، فذكر أنه لم يبق عنده شيء إلا ملابسه فأخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة .

ولا شك أن خزائن الأمراء والوزراء المملوءة بأنواع الكسوات كانت رمزا لمركزهم الأدبى ودليلا على ثرائهم ، وخير شاهد على ذلك ما وجد فى خزائن الأفضل عند مقتله فى سنة ٥١٥ هـ ، فقد ذكر ابن ميسر أنه وجد له من أصناف الديباج وما يجرى مجراه من عتابة وغيره تسعون ألف ثوب وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقى عمل بتنيس ودمياط ، على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه « وقد نقل الأمر بأحكام الله ما بدار الأفضل الى القصر ، وكان الخلفاء اذا سخطوا على وزير أو كبير صادروا خزائن الكسوة فى داره وحملوه الى قصورهم أو ربما تصرفوا فيها بالبيع وحصلوا على أثمانها .

وقد بلغ ما أخرج من خزائن الكسوة فى أيام المأمون البطائحي وما عمل لكسوة الشتاء بحكم حلوله سنة ٥١٦ هـ أربعة عشر ألفا وثلاثمائة وخمس قطع (٢) . وكانت خلع الفاطميين على الأمراء الثياب الديبقى والعمائم بالطراز الذهب وكان قيمة طراز الذهب والعمامة لا تقل عن خمسمائة دينار ، ويخلع على أكابر الأمراء الأطواق والاسورة والسيوف المحلاة .

وقد استمرت الكسوات والخلع الثمينة يقدق بها الخلفاء على أمرائهم ووزرائهم حتى نهاية دولتهم ، يصف أبو شامة خلعة الخليفة العاضد على صلاح الدين الأيوبي الوزير فيقول : « وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسى مطرز ذهب وثوب ديبقى بطراز ذهب ، وجبه تحتها سقلاطون بطرازي ذهب وطيلسان ديبقى بطراز دقيق ذهب » ، وهكذا ظلت خزائن الكسوة فى العصر الفاطمى عامرة بالنشاط الحرفى والصناعى ، فقد كشف حاصل الخزائن الخاصة بعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧ هـ ، وقيل ان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى مرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة .

ومن مظاهر تقدم صناعة النسيج أنه لم يقتصر الأمر على استخدام أنواع النسيج لعمل الملابس والكسوات ، بل اتخذ المصريون من انتاج

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٠ - ١٣٦ .

وقد حفظ لنا المقرئى بيان تلك الكسوة وكذلك ما أخرج فى الشهر نفسه من كسوة العيد المسمى بعيد الحلل ، منها ما يختص بالخليفة وأخيه أبى الفضل جعفر والموالى وهم المجلساء من بنى الأعمام ومن البنين والبنات من بنى الأعمام غير المجلساء والأساتذة المحنكين وكتاب ديوان الانشاء ووالى القاهرة ووالى مصر وغيرهم كثير .

المناسج ودور الطراز العمامة أشياء لا حصر لها مثل الخيم والمضارب والحصون والقصور والشرائط والمشاريع والفساطيط المحمولة من الديبقي والخسروان والديباج والبهنساوى وصنعوا من القماش والمساند والمخاد والمراتب والبسط والمقاطع والستور والعصائب النسائيات والفوط والخرائط للسيوف من الديباج الأحمر والأصفر . كما صنعوا منها البنود والرايات ، وكانوا يحلون مكان الجلد والسروج الديباج الأحمر والأصفر وغيرهما من الألوان ، والسقلاطون المنقوش بألوان الحرير .

وكان الطلب شديدا على مختلف أنواع النسيج ، لتوافر الأموال فى أيدي الفاطميين الأثرياء من التجار وغيرهم من أمراء الاقطاع وعمامة الناس حيث كانوا يدخرونها لوقت الحاجة ، ومن هنا كان اقبالهم على شراء النسيج ، سواء احتاجوا اليه أو لم يحتاجوا ، لأنه كان يعد نقدا مدخرا ، خاصة اذا كان من الأصناف الثمينة ، وهكذا أصبحت الأقمشة الفاخرة معدودة من أعيان الثروة فى ذلك العصر (٣) .

وليس من شك فى أن حياة الترف والنعيم التى أدهشت ناصر خسرو ، كما أدهشت الصليبيين من بعده ، قد دعت الى تقدم صناعة النسيج وغيرها من الصناعات فى العصر الفاطمى ، وذلك من حيث الكم والكيف ، كما ألقت أعباء جديدة على الانتاج الصناعى المحلى . ومن الظروف التى ساعدت على النشاط الصناعى أيضا اتساع نطاق العلاقات التجارية مع البلاد الأجنبية . وليس لدينا من دليل يبعث على الاعتقاد بأن الحال تغيرت بين مصر وبيزنطة برغم المنازعات السياسية فقد استمرت المصنوعات المصرية الممتازة مما تنتجه مناسج تنيس ودمياط تصدر اليها . ويظهر أن المنسوجات المصرية الفاخرة تمتعت برواج عظيم فى الامبراطورية حتى أن ناصر خسرو سمح أن أحد الأباطرة عرض على السلطان (يعنى الخليفة) مائة مدينة مقابل تنيس وحدها ، وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون .

ومن المؤكد نتيجة للتوسع التجارى أن مقادير كبيرة من انتاج المناسج المصرية من الأنواع الممتازة والسميكة كان يصدر الى الخارج ، وربما كانت الحكومة الفاطمية تشجع هذا الانتاج الصناعى حتى تستغل الفائض عن حاجة السوق المحلية فى التبادل التجارى كى تحصل على ما يلزم من مواد

(٣) كان كل رجل ميسور يحرص على أن يكون لديه تخت ثياب، أى صندوق من الأقمشة والثياب المصنوعة ، كما يفعل بعض الناس فى الوقت الحاضر اذ يرغبون فى اقتناء أنواع السجاد العجمى الغالى الثمن . حسين مؤنس : عالم الاسلام ، ص ٣٤٨ .

كالحديد والنحاس والأخشاب وغيرها مما لا يتوافر في البسلاد ، وينبغي التنويه عن مجهود الحكومة نفسها في النهوض بصناعة النسيج ، فقد كانت تدير لحسابها عددا من المصانع وتشرف على ادارتها اشرافا دقيقا يكفل لها انتاج الأنواع الفاخرة وبخاصة ما يتصل بكسوة الخليفة نفسه ورجال البلاط الفاطمي ، فضلا عن الكسوة الخاصة بالكعبة الشريفة .

وقد كانت هذه الكسوة ترسل الى مكة ، كما يذكر ناصر خسرو أنها كانت ترسل مرتين في السنة ، وكانت كسوة الكعبة من الديباج الأبيض شعار الدولة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر ، ولم يكن يقتصر الأمر على هذه الكسوة بل انه حدث في عام ٤٤٠ هـ أن هاجر الى مصر من أهل الحجاز نحو خمسة وثلاثين ألفا ، فكساهم السلطان جميعهم ، وأغدق عليهم بالصلوات ، ثم أمر بترحيلهم الى الحجاز .

كما كان من أسباب نشاط صناعة النسيج انشاء العديد من الخزائن الأخرى بخلاف خزائن الكسوة ، ومنها خزانة السروج وكان بها عدد كبير من الصانع لا يفترون عن العمل ، وخزائن الخيم أو الفساطيط التي كانت تصنع أقمشتها في دبيق والبهنسا والفيوم وغيرها من دور الطراز الفاطمية ، وقد اشتهر كل من أبي الحسن علي بن الحسن الخيمي ، وزميله أبي الحسن المعروف بابن الأيسر الحلبي بصناعة الخيام المعروفة بالمدورة ، وكانت من عجائب الصناعة .

نقل المقرئزي عن أبي الحسن علي بن الحسن الخيمي أنه أخرج من خزائن القصر أيام المارقين (يعني الثوار من الجند الأتراك) فسطاطا أكبر ما يكون ، يسمى المدورة الكبيرة يقوم على فرد عمود طوله خمسة وستون ذراعا ، ودائر فلكه عشرون ذراعا ، وقطرها ستة أذرع وثلاثا ذراع ، وعدة قطع خرقه أربع وستون قطعة ، كل قطعة منها تحزم في عدل واحد ، يحمل خرقه وحباله وعدته على مائة جمل ، كان أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري قد أمر بعمله أيام وزارته ، فعمله الصانع وعدتهم مائة وخمسون صانعا في مدة تسع سنين ، وبلغت تكاليفه ثلاثين ألف دينار .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الفسطاط الكبير في خلافة المستنصر قام بعمله الصانع علي غرار القاتول (٤) ، الذي كان الخليفة العزيز بالله أمر بعمله أيام خلافته الا أن هذا أعلى عمودا منه وأوسع وأعظم . وكانت تلك الخيام تقام بمناسبة الاحتفال بفتح الخليج وفي المناسبات الأخرى .

(٤) سمي بهذا الاسم لأن فراشا من العاملين في اقامته سقط من أعلاها فمات ، وكان من السعة بحيث يشبه القصر المستدير وتزيد مساحته على فدانين .

أما الخيام التي كانت تقام لرجال الدولة فكانت كثيرة تختلف في قيمتها وفي بعدها أو قربها من خيمة الخليفة ، بحسب درجاتهم وهي من جميع الأنواع والأشكال مصنوعة من سائر الأقمشة كالقماش المزركش الدبقي ، والقماش الثقيل المخمل ، والقماش الموشى بالديباج من كل الأنواع وكان جميع هذه الخيام مبطنة من الداخل بغرائب النقوش والألوان البديعة وسائر الأشكال منها على شكل الفيلة أو السباع أو الخيل أو الطاووس . ومنها ما هو على شكل الطيور والآدميين .

فلا غرو ان احتاجت الى مئات الصنائع والحرفيين لصنع جميع آلاتها من الأعمدة الملبسة بأنايب الفضة ، والشباب المذهبة وغير المذهبة من سائر أنواعها وألوانها . وكانت خزائن الخيم الفاطمية تحتوى على ما تحتاج اليه تلك الفساطيط الكبيرة من الدكك والمحاريب والأسرة والعود والصندل والعاج والأبنوس والبقم ومن هؤلاء النجارين وأصحاب الصنعة النشء الكثير من أجود ما يكون . يذكر ابن ميسر أنه عمل للأفضل بن أمير الجيوش خيمة سماها خيمة الفرخ ، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع ، وقائمها بارتفاع خمسين ذراعا بذراع ، أنفق عليها عشرة آلاف دينار ، وقد مدحها جماعة من الشعراء .

ولابد لنا من التنويه في هذا المقام عن خزانة البنود التي أنشأها الفاطميون ، وكانت تشتمل على كميات كبيرة من الرايات والأعلام وآلات الحرب ، وكان بها نحو ثلاثة آلاف صانع لصنع هذه الأشياء ومعظمها من أفخر أنواع النسيج (٥) . ومما يذكر أن الخليفة العزيز حينما خرج بنفسه الى بلاد الشام كان جيشه يحمل من البنود نحو خمسمائة من البنود ومثلها من الأبواق .

ومن الجدير بالذكر أنه لم يقتصر على استخدام تلك البنود أو الأعلام في أوقات القتال فقط ، بل كان لها في العصر الفاطمي شأن كبير في سائر الاحتفالات خاصة الدينية مثلها ، وكان الصنائع ينسجون عليها أو يطرزون فيها الشهادتين وبعض الآيات القرآنية أو العبارات الدينية . وقد ازدهرت صناعة البنود في ذلك العصر ، ويشير جروهمان الى خط البنادين في أوراق البردي العربية ، تذكر منها مثلاً عقد بيع مؤرخ في شوال سنة ٤٥٩ هـ .

(٥) كانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير ، بناها الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ويذكر المقرئى نقلاً عن صاحب كتاب الذخائر والتحف أن مبلغ ما كان فيهما من سائر الآلات والأمنعة والذخائر لا تعرف له قيمة عظيمة وأن المبلغ فيها كل سنة من سبعين ألف دينار الى ثمانين ألف دينار . المخطوط ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

وقد تعرضت خزانة البنود لألسنة النيران والحريق في عهد المستنصر وكما ينقل المقرئى كانت لتلك غلبة عظيمة وخوف شديد فيما يليها من القصر ودور العامة والأسواق .

ولم تكن خزائن الفرش والأمتعة أقل من الخزائن الأخرى التى ذكرنا ، وكانت تحتوى على سائر أنواع الفرش الفاخرة مثل المراتب الملونة والأبسطة والحصر السامان المطرزة بالذهب والفضة وبسائر أنواع الصور والستور الحريرية المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها ، ومقاطع القماش المختلفة المنسوجة بالذهب والمحلّى بالرسوم المختلفة . ولا ريب أن مثل هذه الخزائن كانت تتطلب من أنواع النسيج ومن المواد الخام الشيء الكثير ، فضلا عن آلاف الصناع المهرة فى سائر الحرف والصناعات .

وهكذا يمكن القول بأن خزائن الكسوة والفرش وخزائن الخيم والبنود التى ضمت آلاف الصناع المهرة من الحاكة والحريريين والمذهبين وغيرهم ، كانت من أهم مظاهر التقدم والازدهار لصناعة النسيج فى العصر الفاطمى . ولم يكن تشجيع الفاطميين وتعيينهم لأحد أعيان الدولة للإشراف على دور الطراز الخاصة والعامة المنتشرة فى سائر أنحاء البلاد (٦) ، إلا من أجل تلبية مطالبهم من أنواع النسيج ، ووفاء لاحتياجات هذه الخزائن العديدة ، فضلا عن كفاية حاجة الاستهلاك المحلى والأسواق الخارجية .

(٦) نقل المقرئى عن ابن الطوير أن الخدمة فى الطراز كان لا يتولاها إلا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

٥ - مراكز صناعة النسيج وازدهار فن الزخرفة : في العصر الفاطمي

١ - المنسوجات الكتانية :

ظل الكتان المادة الرئيسية المستعملة في النسيج بسبب انتشار زراعته في جهات كثيرة في مصر وخاصة في الدلتا والفيوم . وهذا يفسر لنا جانبا هاما من الأسباب التي استدعت تركيز صناعة المنسوجات الكتانية في مصر الشمالية والوسطى . وقد استمرت الأولى في صنع الأنواع الدقيقة من الشرب والديبقي والقصب والبوقلمون ، وبلغ من شهرة هذه الأنواع من ثياب الكتان المصرية أنه كانت أكبر مدينة بفارس لصنع ثياب الكتان مدينة كازرون تسمى دمياط « الأعاجم » وكانت أنواع الأقمشة بفارس هي الأنواع المصرية من الديبقي والشرب والقصب ، مما يدل على تلك الصلة الوثيقة بين الصناعتين بمصر وفارس في أوائل العصر الفاطمي .

ويذكر المقدسي أنه كانت تصنع بمدينة سينيز ثياب تشاكل القصب ، وأنه ربما حمل اليهم الكتان من مصر ، وفي كلام المقدسي هذا دليل على أن صناعة نسيج الكتان نقلت الى فارس من مصر . ولا غرو فقد أعجب المقدسي عند زيارته لمصر في عهد الخليفة العزيز بالله بمهارة المصريين وتفوقهم في كثير من الحرف والصناعات على أقرانهم في الدول الأخرى فهو يقول : « فأما الخصائص فلا نظير لأقلامهم وزاجهم ورخامهم وحليهن وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وصبغهم وغزلهم » .

وقد أحصى (فيت) عالم الآثار من قطع النسيج التي عملت في دور الطراز المصرية خلال العصر الفاطمي أعدادا كبيرة ، تكشف لنا عن أسماء هذه الدور أو أسماء المصانع الحكومية التي كانت تعمل في كل من

الإسكندرية ودمياط وتنبس ودميره وبوره ودبيق وشطا وغيرها في منطقة الدلتا ، وكذلك في جهات الفيوم والبهنسا والأشمونين وطحا وغيرها في صعيد مصر ، وتؤكد المصادر التاريخية على صحة ما أوضحته الأدلة الأثرية (١) فمن ذلك ما يشير إليه المقرئ من شهرة تونه وتنبس ودمياط وما تنتجه مصانعها من فاخر الثياب والأقمشة في بداية العصر الفاطمي فهو يقول : « أنه حينما جلس المعز لدين الله في قصره لاستقبال وفود المهنيين ، حمل إليه أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسيني هديته وكانت أحد عشر سفطا من متاع تونه وتنبس ودمياط » . وقال : كنت أشتي أن يلبس منها المعز ثوبا أو يتعمم بالعمامة التي فيها ، فما عمل الخليفة قط مثلها » .

كان طراز تونه من الشهرة في العصر الفاطمي ، وقد وصل إلينا من قطع النسيج في عهد الحاكم بأمر الله نحو ست قطع ، مما أمر بعمله في طرازها العامة والخاصة وهي بحسب توالي السنين ترجع إلى سنة ٣٨٨ هـ ، وسنة ٣٨٩ هـ ، وفي سنة ٣٩٥ هـ وكذلك مما عمل بطرازها الخاص في سنة ٣٩٧ هـ .

ومن مراكز صناعة المنسوجات الكتانية كانت بوره أو بورا Bura وهي من جملة كورة تنيس ، تنتج أنواع الثياب ليس فقط للبلاط الفاطمي ، وإنما لعامة الشعب أيضا ، ومما يدل على ذلك ما ورد من قطع للنسيج التي تحمل طرازها ، منها قطعة باسم الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) .

أما شطا فقد ظل انتاجها من المنسوجات التيلية منذ فجر الإسلام وحتى أواخر العصر الفاطمي ، وكان من أسباب شهرة طرازها أنه كان يعمل بها كسوة الكعبة الشريفة ، وقد جاءت العبارات الدينية للأئمة الفاطميين المنسوجة على طرازها الخاصة والعامة ، دليلا واضحا على اتخاذ المنسوجات وسيلة دعائية من أجل تحقيق أهدافهم السياسية في ذلك الوقت .

وكانت دبقو من النواحي التي اشتغل أهلها بنسج الكتان وكان لها طرازها ، وقد أمدنا (فيت) بالعديد من قطع النسيج التي حملت أيضا

(١) ومن أهم أوراق البردي العربية إحدى الأوراق التي تم اكتشافها في مدينة البهنسا وهي ترجع إلى العصر الفاطمي وتنصم قائمة بأشخاص يملكون أنوالا للنسيج ، وقد أوضحت هذه الوثيقة الهامة أن من هؤلاء الأشخاص من كان يملك أربعة أنوال ومنهم من يملك خمسة ، مما يبرهن على رواج صناعة النسيج واشتغال أهالي البهنسا في غالبيتهم بهذه الصناعة التي كانت فخر الصناعة المصرية في ذلك العصر . جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ٧٠ - ٧٢ .

اسم الخليفة الحاكم بأمر الله منها قطعة مؤرخة في سنة ٣٩١ هـ وأخرى مما أمر بعمله في طراز العامة بدبقو ترجع الى سنة ٤٠٣ هـ .

واذا اتفقنا على أن دبِقو كانت هي دبِيق التي أشار اليها المقرئى ، فانه أمكن لأهلها انتاج أنواع جديدة من المنسوجات فى عهد العزيز بالله (٢) ، منها نسيج العمائم الشرب المذهبة ، حيث بلغ طول العمامة منها مائة ذراع وفيها رقعات منسوجة بالذهب ، وكانت تباع بنحو خمسمائة دينار . كما اشتهرت دبِيق فى العصر الفاطمى بنسيج القماش المسمى بالدبِيق الثقيل ، وكان يستخدم فى رسم الخرائط عليها بالأصباغ المشبعة .

وربما كانت مدينة تنيس هي أشهر المراكز الصناعية لنسيج الكتان وغيره من المنسوجات فى العصر الفاطمى ، وكان من أهم المنتجات نوع القماش المسمى باللقصب الملون وكان ينسج منه الحمامات والوقايات وملابس النساء ، ولم يكن ينسج مثله فى أى جهة أخرى والواقع أن أكثر ما ورد ذكره من قطع النسيج فى ذلك العصر ، انما كان من جملة انتاج تنيس ومن طرازها ، وقد أحصى (قيت) العديد من تلك القطع التي حملت أسماء الخلفاء الفاطميين ، مما عمل فى دار الطراز الخاصة والعامة بها ، ويذكر ناصر خسرو أنه كان بتنيس صناع مختصون بنسيج ملابس السلطان (يعنى الخليفة الفاطمى) ويقول : « وقد سمعت أن عاملا نسج عمامة السلطان ، فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى ، وقد رأيت هذه العمامة ويقال انها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى ، ومهما كان لون المبالغة فى رواية ناصر خسرو فانها تدل على مدى مهارة الصناع والنساج فى مدينة تنيس .

ولا غرو فقد انفردت هذه المدينة بعمل ذلك الثوب الشهير الذى يقال له « البدنه » للخليفة الفاطمى ، حيث كان لا يدخل من الغزل سداه ولحمته غير أوقيتين وينسج باقيه من الذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة ، وتبلغ قيمته ألف دينار ، .

ويشير ناصر خسرو الى أن ملك فارس أراد أن يعمل له فى تنيس

(٢) تقع دبِقو بين الفرما وتنيس على ساحل البحر المتوسط ، وقد وردت فى كتاب الخطط للمقرئى باسم دبِيق بتقديم الياء على الباء وقال أنها من قرى دمياط وينسب اليها الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة والدبِيقى العلم المذهب . وقد اندثرت ومكانها اليوم يعرف بتل دبِقو بالقرب من شاطئ بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى بناحية صان الحجر بمركز فاقوس بمحافظة الشرقية . ابن دقماق : الانتصار ، ج ٥ ، ص ٧٨ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٣ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

المصرية على غرار هذا الثوب ، وأرسل رسله الى تنيس بعشرين ألف دينار ، وقد بقي رسله بالمدينة ، عدة سنين ولم يستطيعوا الحصول عليه ، ومهما كان مبلغ الصديق في روايته أيضا إلا أنها تعبر في جلاء عن مدى شهرة تنيس وتفوق أهلها في صناعة النسيج في ذلك العصر . ولا غرو فقد انفردت تنيس بنسيج القماش المسمى البوقلمون ، حيث كان لا ينسج في مكان آخر من جميع العالم ، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، وتحمل أثوابه من تنيس الى المشرق والمغرب وقد علق آدم متز على هذا النوع من القماش وقال : « وفي القرن الخامس الهجري ظهر نوع جديد من القماش وهو المسمى « أباقلمون » . وهو قماش يظهر للرائي في ألوان متقلبة ، وكان يصنع في مدينة تنيس وحدها » وقد أشرنا من قبل الى أسباب ظهور مثل هذا النوع من الأقمشة وقدرة الصباغين في استخدام تلك الفصوص والأحجار التي أطلق عليها المسعودي ذات الاسم قبل قرن من الزمان .

ويمدنا ابن بسام بصورة صادقة عن نشاط أهل تنيس واشتغالهم بحرفة النسيج في غالبيتهم ، وكانوا من ذوى اليسر والثراء ، فهو يقول عنها : « وبها من المناسج التي تعمل فيها الثياب خمسة آلاف منسج ، عدد عمالها عشرة آلاف نفس سوى من يطبب أو يرقم من ذكر أو أنثى ، وعدد ما فيها من الأسفاط ألف وخمسمائة سبط ، ومن الرزم ألف رزمة » . وهكذا تبدو الحركة الصناعية بها ، ولا شك أن الفاطميين شجعوا على نشاط هذه الحركة وعملوا على زيادة الانتاج وجودته ، اذ لم يكونوا ليبخسوا الصناع بل كانوا يبذلون الثمن كاملا لمنسوجاتهم .

ومن الجدير بالذكر أن مدينة تنيس بقيت عامرة بنشاط أهلها الصناعي والتجاري الى حين خربها الملك الكامل محمد بن أيوب وهدم سورها وبيوتها في سنة ٦٢٤ هـ (٣) .

(٣) كانت تنيس من أجمل المدائن وكانت بالقرب من دمياط قال المسعودي . كان طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع وكان عرضها من المشرق الى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا . وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد ، وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا ، وبكل مسجد منارة ، وكان بها ستة وثلاثون حماما . ولم تزل عامرة الى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧م حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا يسوقها جماعة من الفرنج وحاصروا أهلها ، فلما أتم فوا على المدينة هرب أهلها الى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم القوا فيها النار فاحترقت كلها ، ثم أخذوا ما قدروا عليه . من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها واستمرت على ذلك الى سنة أربع وعشرين وستمائة (١٢٢٦م) في دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقي من سورها وبيوتها واستمرت خرابا ، ولم يبق منها سوى رسومها في وسط بحيرة المنزلة الحالية .

وكانت دمياط تلى تنيس في الأهمية من حيث اشتغال أهلها بحرفة النسيج ، وكانت تنتج في العصر الفاطمي القصب الأبيض ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بالعديد من قطع النسيج الصادرة من دار الطراز الخاصة والعامة ، وخاصة في عهد الحاكم بأمر الله . وقد استمرت مصانعها تنتج أنواع المنسوجات الكتانية الرقيقة والتي عرفت بالقماش المسمى « دق دمياط » يتضح لنا ذلك من القطعة التي عملت بطرازها الخاص ، وهي تحمل اسم الخليفة المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ / ١١٩٤ - ١١٠١ م) .

وكان يشرف على دور الطراز في العصر الفاطمي موظف كبير من الأعيان والأماثل ومن أرباب العمائم والسيوف ، يتبعه مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى ، تحت امرته عشاري ديماس وثلاث مراكب من الدكاسات (٥) ، ولها رؤساء ونواتية نفقاتهم جارية من مال الديوان .

ويذكر القلقشندي أن صاحب الطراز كان له اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ، ومقامه بدمياط وتنيس وغيرهما من مواضع الاستعمالات . ومن عنده تحمل المستعمالات الى خزانة الكسوة . وكان الخلفاء اذا احتاجوا الى صنع شيء من الأمتعة والفرش وغيرها من المنسوجات ، صدرت به تذكرة من ديوان الخزانة وسيرت الى موظفي الطراز مقرونة بما تقرر من نفقاتها من المال والذهب المغزول . ويذكر المقرئ أن تذكرة الطراز في أيام الأفضل بلغت واحد وثلاثون ألف دينار ، ثم اشتملت أيام الوزير المأمون بن البطائحى على ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وتضاعفت في أيام الأمر .

(٤) تعد هذه القطعة من التحف الثمينة من المنسوجات الفاطمية ، وهي عبارة عن عباءة طولها ٣١٠ سم وعرضها ١٥٠ سم ، وقد كانت محفوظة بداخل قارورة صغيرة ، وحفظها على هذه الصورة مع كبير حجمها ، يدل دلالة واضحة على دقة نسيجها ورقته ، وقد استطاع الأستاذ فيث أن يقرأ منها « مما عمل في طراز الخاصة بدمياط سنة تسع ٠٠٠ » وعلى أساس ذلك ترجع العباءة هذه اما الى سنة ٤٨٩ هـ أو سنة ٤٩٠ هـ ، فهي ترجع الى عهد الخليفة المستعلي . وهي محفوظة الآن بكنيسة سانت آن بمدينة آبت في جنوب فرنسا وقد درس كل من جورج مارسيه وجاستون فيث هذه العباءة دراسة مستفيضة حللا زخارفها وقرأ ما عليها ويرجع محمد عبد العزيز مرزوق أن هذه العباءة كانت مصنوعة من القماش المسمى « دق دمياط » الذي أشار اليه المؤرخون ، والذي وجدت منه مئات الأثواب في تركة الأفضل وزير الخليفة المستعلي ،

Repertoire, tome, 8, No. 2874, pp. 36-37.

الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٥) الدكاسات نوع من المراكب التي كانوا يخصصونها في العصر الفاطمي لكبار رجال الدولة ، سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ، ص ٣٤٢ .

وكان لكل دار طراز ناظر ومشارف وعامل وشاهد ، وذلك من أجل التنظيم والاشراف الدقيق على صناعة النسيج فى كل مراحلها ومراقبة الصناع بها ، حيث كانت تلك المصانع الحكومية تختص بصنع ما يلزم لخزائن الكسوة والفرش والأمتعة ، لا سيما دار الطراز الخاصة التى كان لا يباع انتاجها لأفراد الشعب .

وكان النسيج فى دور الطراز يعملون بالأجر ، أما فى المصانع الأهلية فكانوا يعملون لحسابهم ، حيث يأتى الناس بالغزل اليهم ليقوموا بنسجه وهذا يسمونه بالقبالة ، أو أنهم كانوا يشترون الغزل وينسجونهم لحسابهم ثم يقومون ببيعه بعد ذلك . ويبدو أن بعض السماسرة كانوا يتولون هذا العمل ، فيسلمون الغزل الى عمال يقيمون فى غرف يستأجرونها لهذا الغرض ويقوم النساجون بنسجها ، ثم يسلمونها أثوابا ، كما كان يحدث فى دمياط وغيرها ، وقد عبر القزوينى عن ذلك عند وصفه لمدينة دمياط ونشاط أهلها بقوله : « ومن طريف أمر دمياط فى قبليها على الخليج غرفا تعرف بالمعامل يستأجرونها من الحاكم لعمل ثياب الشرب فيها ، فان عمل بها ثوب ونقل الى غير هذه الغرف ، علم بذلك السمسار المبتاع للثوب ، وينقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب » وهكذا كان السماسرة يسيطرون على ما تنتجه المناسج الأهلية فى دمياط ويبيعونه بمعرفتهم بعد ذلك .

وكما أشرنا من قبل فان صناعة المنسوجات الكتانية لم تكن قاصرة على تنيس ودمياط وغيرها من قرى الدلتا ، بل ان جهات عديدة مثل بنشا ودلاص وأنصتا وأشمون كان يشتغل أهلها بحرفة النسيج ، وخاصة الأقمشة التيلية . وقد توطدت صناعة مثل هذه المنسوجات خلال العصر الفاطمى فى مصر الوسطى بسبب اعتماد هذه المنطقة على ما كان يزرع فى الفيوم من الكتان .

وكانت أهم المراكز الصناعية فى تلك المنطقة أهناس والبهنسا والأشمونين ، وكان أهل البهنسا يصنعون الستور المنسوبة اليها وينسجون المقاطيع والمضارب الكبار والثياب المحبرة . واشتهرت كذلك بصنع الفساطيط الكبار والطرف السلطانية ، ومما لا شك فيه أن عمال النسيج فى البهنسا وغيرها من تلك المراكز كان عليهم أن يزدوا من انتاجهم لتلبية احتياجات البلاط الفاطمى ، وما أشار اليه المؤرخون من حياة الترف التى عاشتها الخلافة الفاطمية لا يقع تحت حصر ، ويكفى دليلا على ذلك ما جاء فى وصف خزائن الفرش والأمتعة والخيام وما كانت تحتويه من عجائب الستور والفساطيط المصورة .

وقد ذكر ابن حوقل أن الفيوم كان يسكنها في أيامه - أي في أوائل العصر الفاطمي - الصنّاع وأرباب الحرف والنساجون خاصة ، ولكنه لم يحدد نوع المادة التي استخدمها هؤلاء النساجون ، ومن المرجح اشتغال بعضهم بعمل المنسوجات الكتانية وذلك بالإضافة إلى عمل الخيش .

٢ - صناعة المنسوجات الصوفية :

اشتهرت منطقة مصر الوسطى بصناعة الصوف ونسجه في العصر الفاطمي ، وذلك بسبب وفرة الصوف لكثرة تربية الأغنام على أيدي القبائل العربية التي استوطنت في القرن الخامس الهجري وتفوقها من حيث الجودة . على كل من صوف أرمنية وجزيرة كريت .

ومن أهم مراكز نسج الصوف في تلك المنطقة كانت طحا ، وكان يشتغل أهلها بعمل ثياب الصوف الرفيعة . ويشير ابن حوقل إلى شهرتها في أوائل العصر الفاطمي ، ويقول : « أنه كان فيها غير طراز » مما يدل على دواج صناعة النسيج بها . وذكر أبو صالح الأرمني مركزا هاما لعمل النسيج من شعر الماعز وهو سمألوط وقال عنه أنه لا مثيل له في العالم .

أما مدينة القيس الشهيرة بانتاجها من نسيج الصوف منذ عصر الولاة ، فانها كانت من أهم المراكز الصناعية في العصر الفاطمي ، يعزز ذلك ما ذكره ياقوت عن نشاط أهلها واشتغالهم بحياكة ثياب الصوف . كما يتحدث المقرئ عن طرازها ومدينة البهنسا فيقول : « ولهم طراز القيس والبهنسا في الستور والمضارب يعرفون به ومنه طراز أهل الدنيا » والواقع أنه كان لأهل البهنسا نشاط كبير في صناعة النسيج خلال العصر الفاطمي ، ولم يقتصر عملهم على المصانع الحكومية بل كان كثير ، منهم يملك الأنوال العديدة (٦) .

ومن أهم مراكز النسيج في العصر الفاطمي كانت مدينة أسيوط ، فقد ذكر ناصر خسرو أنهم كانوا ينسجون في تلك المدينة عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها في العالم (٧) ، والصوف الدقيق الذي يعمد إلى بلاد

(٦) ذكر جروهمان أن بعض الأشخاص في مدينة البهنسا كان يملك أربعة أو خمسة أنواع ، مما يدل على أنهم كانوا يعملون لحسابهم أو في مصانعهم الأهلية .

أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ٧٠ - ٧٢ .

(٧) يقول ناصر خسرو : « وقد رأيت في أسيوط فوطه من صوف الغنم لم أر مثلاً في لاهور أو ملتان وهي من الرقة بحيث تحسبها خزيرا » سفرنامه ، ص ٧١ .

فارس المسمى الصوف المصرى ، وقد اشتهرت به مصر فى ذلك الوقت ، وكانت تصدر منه مقادير كبيرة الى الأقطار الأخرى .

وكانت اخميم بها مناسب حكومية تعرف بالطراز ، وكان ثمن الثوب من الطرز الصوف الرقيق أو المعلم أو المطرف من الكتان يبلغ عشرين دينارا . وقد ظلت اخميم محافظة على شهرتها فى انتاج أنواع الفرش الأنماط (٨) التى أشار اليها المقريزى وأطلق عليها لقب الأنطاع ، وكانت تصدر منها الى سائر البلاد الأخرى فى العصور الوسطى .

٣ - صناعة نسيج الحرير :

لم تلبث القاهرة بعد تأسيسها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، أن ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية . فقد أنشأ الوزير يعقوب بن كلس دارا لصناعة الديباج والحرير برسم البلاط الفاطمى (٩) . كما شجع الخليفة العزيز بالله على انتاج نوعين جديدين من النسيج ، النوع الأول هو العتابى والثانى ما يسمى بالسقلاطون ، وينسب الأول الى بغداد والثانى الى بلاد الروم .

ومما لا شك فيه أن الفاطميين وقد رغبوا فى التفوق على بغداد فى مظاهر حياتهم ، فأنهم لم يتوانوا فى البحث عن الأنواع الممتازة من منسوجات الحرير وغيرها فى الدول المعاصرة ، حتى يصنع مثلها فى مصر . وبؤيد هذا الاتجاه ما أشار اليه المقريزى من تكليفهم بعض الوكلاء فى شراء التحف النادرة والأنواع الثمينة من سائر الجهات . ولم يكن نوع العتابى الا الثياب الحريرية التى كانت تصنع فى بغداد (١٠) ، ويمكن

(٨) الأنماط هى البسط التى تفرش وبائعها يسمى الأنماطى ، وكانت تستخدم كذلك فى صناعة الستور التى توضع على الهوداج فوق الجمال وأغطية السروج .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣١١ .

(٩) المقريزى : المخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ .

الديباج هو قماش لامع ويعتبر تقليدا للحرير الصينى ، وهى كلمة فارسية تعنى لباس السروج ، عبد المنعم ماجد . تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، ص ١٢٢ .

(١٠) كانت تصنع فى محلة العنابية ببغداد وتنسب اليها ، وهى ثياب مخططة تحاك من خيوط القطن والحرير ، وكانت هذه المنسوجات تصدر من بغداد الى أنحاء أخرى من العالم الاسلامى ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١ ، الكبيسى : أسواق بغداد ، ص ١٧٠ .

القول بأن العلاقات الطيبة التي سادت بين الخليفة الفاطمي العزيز بالله وبين عضد الدولة كانت تسمح بذلك . كما عمل الفاطميون على نقل الخبرات الفنية من أجل إنتاج نوع من القماش السقلاطون المنسوج من الحرير وذلك من بلاد الروم .

وتشير الدراسات الى أن الفاطميين قد بذلوا جهدهم في أن يستحوذوا، على تجارة الهند من أيدي منافسيهم العباسيين ، وكان من أهم غلات الهند والصين التي تجلب الى مصر الحرير والغضائر والكاغد والدار صيني . وكانت تنقل عن طريق عدن وجده ، ولها سوق رائجة لدى المصريين خلال العصر الفاطمي . وهكذا أصبح من الميسور الحصول على الخز والمادة الخام اللازمة لنسج الحرير . وهناك اشارة واضحة وردت ضمن أوراق الجنيزة تذكر لنا قوائم البضائع التي أرسلت من موانئ عدن الى مصر ، ومنها أقمشة حريرية وملبوسات وزجاج في ذلك الوقت .

وكانت هناك أصناف من المنسوجات الحريرية لا تصنع الا للخليفة الفاطمي نفسه ، ومع ذلك فقد انتشر استخدام نسيج الحرير ، فكان أفراد الشعب يحصلون على أقمشة نفيسة ، تفصل منها الجلابيب والقمصان والعمائم والأحزمة وتزينها شرائط من الحرير أخذ حجمها في الزيادة حتى صارت في القرن السادس الهجري معظم الأرضية في الأقمشة . يعزز ذلك ما أشار اليه الدمشقي وهو من علماء ذلك القرن الى استخدام الديباج في أغراض متنوعة ، فمنه يصنع نوع من الثياب وما يحتاج منه في صناعة الفرش وغير ذلك (١١) .

ويصف المسبحي لنا قصر الذهب في عهد الخليفة الظاهر ، وقد تزين بالبسط وعلقت فيه الستائر الديباج والستور المذهبة الحسان ، وجميع السقائف علق عليها بالستور وفرشت بالفروش ، مما يدل على كثرة الأغراض التي كان يستخدم فيها نسيج الحرير في العصور الفاطمية .

ومن أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية كانت الاسكندرية ، فقد ظلت تنتج منها أفضل الأنواع خلال العصر الفاطمي ، وخير دليل على ذلك ما تذكره المصادر التاريخية لنا ، فقد خلفت ست الملك عند وفاتها ثلاثين قطعة من شقق الحرير الأحمر ، ولما قتل برجوان الصقلي في عهد

(١١) ويصف الدمشقي : نوع الحرير الجيد أو الديباج المستخدم للباس أو الفرش ويقول : « وأفضله ما حسن صبغه وانتظمت نقوشه ودق حريره ، وصفي نسجه وأشرق لونه وثقل وزنه وسلم من النار في جندريته » .

الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٤٥ .

الحاكم بأمر الله وجد له ألف قميص حرير اسكندري . ويذكر ابن ميسر فيما خلفه الأفضل حيث وجد له من أصناف الديباج وما يجرى مجراه من عتابي وغيره تسعون ألف ثوب ، لعلها من انتاج الاسكندرية وكانت شهرة الاسكندرية في ذلك الوقت عظيمة حتى أن الصناع المصريين في غيرها من المراكز الصناعية كانوا يقلدون انتاج مناسجها ويبيعونه على أنه المصنوع بها . وقد أحصى فيت في كتابه جامع الكتابات الكوفية قطعتين من الحرير .

أما عن مدينتي تنيس ودمياط التي عمت شهرتهما الآفاق في ذلك العصر في صناعة النسيج ، فتشير المصادر الى صناعة الشرب بهما ، وهو نوع من القماش الشفاف (Chiffon) وكانت تدخل في صناعته خيوط حريرية أو مذهبة ، كما كان يدخل في صناعة ثوب الخليفة الشهير « بالبدنة » نوع من الحرير المرقوم . ولعل تلك الهدية التي بعث بها صلاح الدين الأيوبي الى نور الدين في دمشق ، كانت من انتاج طراز هاتين المدينتين ، وكانت تشتمل على أربعة وعشرين ثوبا من الحرير ومثلها من الوشي الحريرية .

وكذلك كان أهل أبوان أو الأبوانية من الأقباط يعملون في انتاج نوع من الشرب الفائق على غرار ما كان يتم نسجه في مصانع تنيس .

كذلك كانت سمناي مشهورة بنسج الأقمشة الحريرية ويبدو مما ذكره المقرئ أنها كانت عامرة بأهلها في العصر الفاطمي ، وأنهم كانوا يحترفون كثيرا من المهن والصناعات .

أما بالنسبة لمدينة القسطنطينية ، فإن المصادر لم تذكر شيئا عن نوع النسيج الذي كان يصنع منه قماش الفستان (Fustian) المنسوب اليها ، والمرجح أن يكون من الحرير الذي كان يصنع في الاسكندرية وفي دبيق وغيرها من الجهات السابق ذكرها . وليس من المستبعد أن يكون هذا النوع من القماش الحريري من صنع طراز مصر أو القسطنطينية نفسها ، ومما يعزز ذلك القول ما أشار اليه الشيزري في حديثه عن الحريريين وحوانيتهم بها ، وقد أوضح لنا شيئا عن أعمالهم وما كان يجب عليهم من حيث عدم قيامهم بصباغة القز قبل تبييضه لئلا يتغير لونه بعد ذلك فهو يقول عنهم : « ومنهم من يثقل الحرير بالنشأ المدبر ، ومنهم من يثقله بالسمن أو الزيت ونحو ذلك » مما يدل على اشتغالهم بتجهيز واعداد نسيج الحرير قبل بيعه واستعماله في اللباس أو الستور ونحو ذلك . ونحن لا نستبعد قيام الصناع في دار الطراز بمصر (القسطنطينية) بنسج اثياب الحريرية ، خاصة بعد أن غدت عاصمة البلاد حتى مجيء

الفاطميّين الى مصر وتأسيسهم لمدينة القاهرة ، ومن المرجح أن يكون محمد ابن جعفر التميمي قد زاول حرفة القزازة منذ صغره بمدينة الفسطاط ، وكان قد اشتهر بتلك الحرفة وعرف بالقزاز ، حتى بعد أن ذاع صيته وبلغ تلك المنزلة السامية في علوم العربية والنحو ، يقول ابن خلكان عن شهرته : « ان القزاز فضح المتقدمين وقطع السنة المتأخرين » . وليس هناك ما يمنع اشتغاله بالحرفة وعلم النحو في نفس الوقت ، تماما كما كان شأن بعض الفقهاء وغيرهم من أهل العلم والأدب في العصور الوسطى .

ومن المعروف أن حرفة القزازة كان صاحبها يقوم بنسج الحرير وبيعه بعد ذلك ، حيث كان بعض الحائكين يملكون المجال الصغيرة لمزاولة المهنة ، وقد روى ابن الزيات عن أبي محمد بن أبي الفرج بن ابراهيم المعروف بالكيزاني أنه كان له معمل قزازة وكان يدير الدولاب بيده . كما أشار ناصر خسرو الى كثرة المحلات الصناعية والتجارية بالفسطاط وقال : انه كان في مدينة مصر وحدها مائتا خان لبيع المنسوجات ايجار الواحد منها كان لا يقل عن اثني عشر ألف دينار في السنة ، .

ويتبين لنا من أوراق البردى أن مدينة الأشمونين في منطقة مصر الوسطى كانت احدى مراكز حرفة القزازة ، فقد أشارت الأوراق الى وجود عدد كبير من القزازين أو ناسجي الحرير بتلك المدينة ، نذكر من هؤلاء قلته بن كيل وقد ورد اسمه في عقد مؤرخ يرجع الى سنة ٤٤١ هـ ، أبو العلا القزاز وجاء اسمه في عقد مؤرخ سنة ٤٤٢ هـ .

ومن أسماء الحائكين أيضا التي ذكرتها أوراق البردى قلته القزاز ، ورد اسمه في عقد مؤرخ سنة ٤٥٩ هـ ، وأيضا عبد المسيح القزاز ، وقد ذكر في عقد يرجع تاريخه الى سنة ٤٦٠ هـ . وهكذا تكشف أوراق البردى عن ازدهار صناعة نسج الحرير في تلك المدينة في العصر الفاطمي ، وخاصة في عهد الخليفة المستنصر .

وعلى كل حال فمهما تعددت مراكز نسج الحرير في ذلك العصر ، فانها لم تكن تكفي حاجة البلاد من الأقمشة الحريرية (١٢) ، وعلى الرغم من تلك القيود التي أشار اليها فقهاء أهل السنة في استعمال الرجال لهذا النوع من النسيج ، فانه يبدو مع حياة الناس في ظل الحكم الفاطمي ، وما نعموا به من الاستقرار والثراء أن كانت مصر تستورد من صقلية

(١٢) الملح المقريزي الى أن المصريين كانوا يقومون بحضانة دودة القز في برميات من الشهور القبطية ، ولا تكفي تلك الإشارة العابرة للنهوض دليلا على أن مصر كانت من البلاد التي تعنى بتربية دودة القز من أجل انتاج الحرير . المخطوط ، ج ١ ، ص ٥٠٩ .

ما ينسج بها من الأنواع الفاخرة (١٣) ، وكان بها وفرة فى الانتاج على عكس الحال فى الديار المصرية ، فقد ذكر ناصر خسرو أن السفن كانت تتوجه من موانئ مصر الى هذه الجزيرة وتعود محملة بالمنسوجات من الثياب المنقوشة ، وكانت القطعة الواحدة تباع فى أسواق مصر بعشرة دنانير مغربية .

كما كانت أسواق الحرير بمدينة الاسكندرية ، وكانت تتراوح اسعاره ما بين سنة ٤٥٢ - ٤٩٤ هـ ، ما بين ٢١ ، ٢٣ ديناراً لكل عشرة أرباط كما كان تجار الغرب يدفعون لتجار الشرق ثمن السلعة حريراً بدلاً من الذهب .

ويمكن القول بأنه مهما كان اختلاف الباحثين حول المناسج المصرية وانتاجها من الأقمشة الحريرية الخالصة قبل عصر المماليك ، فإن ما أوضحتته قطع النسيج يعنى أن الأمر لم يقتصر على خيوط اللحمة الملونة فى نسيج الحرير ، بل أمكن استعماله كذلك فى خيوط السندى ، وأصبحت كلها منسوجة من الحرير خاصة فى أواخر العصر الفاطمى .

ازدهار فن الزخرفة فى العصر الفاطمى :

قسم علماء الفنون والآثار المنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة الى أربعة أنواع تمثل العصور الرئيسية فى تاريخ الدولة الفاطمية ، وقد ضم متحف الفن الإسلامى بالقاهرة مجموعات من قطع النسيج توضح لنا حقيقة التطور فى هذا الفن ، وما برع فيه النساجون والمزخرفون المصريون من تفوق وازدهار . كما يضم من الشواهد المنحوتة من الحجر الرملى ، ما يحمل أسماء المطرزين فى ذلك العصر (١٤) .

فالنوع الأول وينسب الى عصر المعز والعزى والحاكم ، كان قوام زخارفه أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى ، بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها فى بعض وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود . كما يتضح من القطعة المحفوظة بمتحف المتروبوليتان وعليها نقش يتضمن

(١٣) اتفق علماء الآثار على ضم المنسوجات المصنوعة فى جزيرة صقلية الى النسيج الفاطمى وذلك لمصوغ تلك الجزيرة للفواطم مدة قرنين من الزمان . سعاد ماهر : النسيج الإسلامى ، ص ٨٧ .

(١٤) عثر على أحد الأحجار بجبانة أسوان مؤرخ فى شعبان سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م باسم « عمال أم ولد على بن عبد الله المطرز » والمطرز هو الذى يشتغل بالتطويز على القماش أى : بالزخرفة . حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ٣ ، ص ١١٠٧٦ .

اسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٦ هـ - ٣٨٦ هـ) ، وحروف تلك القطعة رشيقة وهي منسوجة من الحرير الأصفر ، ومحددة بخيوط زرقاء .

وأمكن للصانع المصري أن يبتكر العديد من التصميمات الجديدة التي لم تكن معروفة قبل مجيء الفاطميين الى مصر ، منها تلك القطعة التي نسجت في طراز الخاصة بدمياط في سنة ٣٨٧ هـ . كما أصبحت الكتابة الخطية عنصرا زخرفيا تميز بالجمال والتنوع في العصر الفاطمي ، ومن ذلك القطعة التي تزدان بزخرفة نباتية يعلوها سطر من الكتابة الكوفية يتضمن اسم اليازوري وزير الخليفة المستنصر ويظهر من هذه الكتابة أنها نسجت في طراز العامة بمدينة تنيس سنة ٤٤٣ هـ . وثبتت أنواع الزخرفة بها أنها تنسب الى عصر الظاهر والمستنصر أو النوع الثاني بحسب التقسيم المصطلح عليه . وقد تنوعت الأشربة الزخرفية واتسعت ، وقوامها جامات عليها رسوم وطيور وحيوانات ، تحيط بها سطور من الكتابة الكوفية ، كما نرى الصانع وقد ملأ الفراغ الموجود بين سيقان الحروف بزخرفة هندسية قوامها دوائر بداخلها نقط قد نسق وضعها .

وكانت الكتابة على قطعة النسيج تشمل اسم الخليفة وحده أو مع اسم الوزير الذي أمر بصنعها ثم مكان الصناعة وتاريخها ونوع الطراز وأحيانا يكتب اسم المشرف أو صاحب الطراز ، ومن النادر ذكر اسم الصانع نفسه ومن ذلك القطعة التي حملت اسم الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ، والتي عملت بطراز العامة بتنيس سنة ٤١٢ هـ .

ومن أقدم المنسوجات المؤرخة قطعة كبيرة من الكتان عليها اسم الخليفة الظاهر ، ويزينها شريطان على كل منهما صف من الجامات الحمراء المتبادلة مع جامات أخرى سوداء ، وبداخل الجامات رسم طيور وعقبان . وقد أنتجت المصانع الفاطمية في تلك الفترة قطع من النسيج وفيها أكثر الصناعات من استعمال خيوط الحرير من مختلف الألوان مع مراعاة التناسق التام واستخدام الخيوط الذهبية ، يصف ديماندا لنا قطعة من نسيج الكتان أيضا حيث تزينها أشربة أفقية ويزين الشريط الأوسط منها رسم أزواج من الصقور على أرضية خضراء والأشكال المستخدمة في الزخرفة من نسيج الحرير والخيوط المصنوعة من الجلد المطروق بالذهب (١٥) . ويتجلى

(١٥) كان الصانع في ذلك الوقت يقطعون الذهب الى صفائح رقيقة ، ثم يسحبون تلك الصفائح الى خيوط ، ثم يقومون بصفير الخيوط الذهبية مع خيوط من الجلد أو الكتان أو غيرها من مواد النسيج ، ويرجع استخدام الذهب في النسيج الى ما قبل الميلاد ، ولعل المصريين القدماء كانوا أول من ابتدع طريقة استخدام الخيوط الذهبية في زخرفة النسيج ، مرزوق : الزخرفة المنسوجة ، ص ١٠٦ .

ذلك فيما عمل بطراز تنيس فى عهد المستنصر ، خاصة الثياب الخليفية-
المسماة بالبدنة • وقد أحييت مصر هذه الصناعة فى العصور الوسطى •

كما نلاحظ استمرار تطور فن الزخرفة فيما نسب الى عهد الخليفتين
المستعلي بالله والآخر بأحكام الله (٤٨٧ - ٥٢٤ هـ / ١٠٩٤ - ١١٣٠ م)
فقد أحدث النساجون تطويرا فى أسلوب الزخرفة ، وظهرت عناصر جديدة
مثل الأشرطة والجداول التى تتموج وتتداخل ، ويدخل بينهما جامات تضم
رسوم طيور وحيوانات وكؤوسا ، تتخللها سطور من الكتابة الكوفية
تتضمن اسم الخليفة ووزيره • وقد ضم متحف الفن الاسلامى العديد من
القطع التى توضح ذلك (١٦) •

أما النوع الأخير ويرجع الى أواخر العصر الفاطمى ويشمل عهد الخلفاء
الحافظ والظاهر والفائز والعاقد (٥٢٤ هـ - ٥٦٧ هـ) فكان أهم ما تميز
به من فنون الزخرفة هو استخدام الحرير الذهبى اللون ، لما كان له من
مكانة ممتازة فى النفوس ، فكثر استعماله فى زخرفة المنسوجات ، وكذلك
استعمال خط النسخ المدور لأول مرة على المنسوجات ، حيث أصبح هذا
النوع من الخط هو المفضل فى العصر الفاطمى الأخير ، فكان يجذب نظر
الرائى بشكله الفخم ومنظره الرائع • ولا شك أن هذه التقسيمات الأربعة
من حيث الفنون الزخرفية تثبت مدى نشاط الرسامين والصباغين وغيرهم
من العاملين فى صناعة النسيج ، كما تدل على ما تميزت به أعمال الزخرفة
وقد صارت اسلامية بحتة خلال العصر الفاطمى ، وان كانت لم تغل تماما
تلك الزخارف من سمات العلاقة بماضيها فى وادى النيل •

وهكذا نخلص الى القول بأن هؤلاء الحرفيين من النساجين والصباغين
والرسامين أو غيرهم من الحريريين والمذهبين ظلوا فى حركة دائبة وفى
نشاط مستمر داخل دور الطراز الفاطمية وخارجها ، ولم يكن استعمالهم
لخيوط الحرير من مختلف الألوان والخيوط الذهبية وغيرها من خط النسخ
المدور فى أعمال الزخرفة الا دليلا واضحا على مهارتهم ومقدرتهم الفائقة على
التنوع والابتكار فى مظاهر الزخرفة المنسوجة فى كل مرحلة من مراحل
صناعة النسيج ، والتى أصبحت تعد بحق فخر الصناعة المصرية أيام
الفاطميين •

(١٦) كانت خيوط الذهب عبارة عن أمعاء الحيوانات لصقت بها صفائح الذهب ، وقد
كانت تصدر هذه الميوط بكثرة من ميناء الاسكندرية • مرزوق : الزخرفة المنسوجة
ص ١٠٦ •

الفصل الثانى

حرفة الوراقة وفن الكتابة

- ١ - صناعة البردى فى عصر الولاة •
- ٢ - الوراقة فى عهد الطولونيين والاشيدين •
- ٣ - صناعة الكتابة فى مصر منذ فجر الاسلام حتى
نهاية عصر الطولونيين والاشيدين •
- ٤ - ازدهار حرفة الوراقة وفن الكتابة فى العصر
الفاطمى •
- ٥ - الكتاب فى العصر الفاطمى •

١ - صناعة البردى في عصر الولاة

انفردت مصر بانتاج ورق البردى المستخدم في الكتابة لجميع شئون الدولة والمجتمع منذ العصور القديمة (١) . وتكاد تجمع المصادر على أن الاسكندرية كانت وحدها الميناء التي تصدر منه أوراق البردى الى سائر بلاد العالم قبل الفتح العربي . ويبدو أن حق إنتاج وبيع البردى الذي ظلت الدولة تحتكره في العصر البطلمي ، قد منح فيما يبدو وفقا للسياسة الرومانية في تشجيع النشاط الاقتصادي لبعض أهالي الاسكندرية ، وأصبح هناك مصانع حكومية ومصانع أهلية للورق ، وأن هذه المصانع الأخيرة كانت تبتاع حق مزاولتها هذه الصناعة .

ولكن بعد أن صدرت مراسيم الامبراطور البيزنطي جستنيان عام ٥٢٦ م ، ألغى هذا الحق ، وأصبح انتاج البردى قاصرا على مصانع للدولة ويدخل في الطراز ، وصار على الموثقين العموميين وغيرهم من رجال الادارة البيزنطية مراعاة عدم تحرير العقود الا اذا كانت الورقة الاولى من درج البردى سليمة وهي الورقة التي تحوى أسماء موظفي الدولة المشرفين على انتاج البردى ، وأيضا اسم الامبراطور ورسم الصليب وشعار التثليث .

وهكذا كانت الحكومة البيزنطية تحتكر صناعة أوراق البردى ،

(١) يضم متحف برلين مجموعة من أوراق البردى ترجع الى العصر البيزنطي ، وقد تم استخدامها على شكل مسودات رسمت عليها طريقة زخرفة النسيج التي كانت شائعة في ذلك العصر قبل الاسلام وهي طريقة القباطي .

وتشرف عليها اشرافا دقيقا الى حين نجاح العرب فى استيلائهم على البلاد
فى منتصف القرن السابع الميلادى .

كان نبات البردى ينمو فى مناطق وجهات متفرقة من مصر وبخاصة
فى مستنقعات الدلتا والفيوم ، وبعد أن يقطع هذا النبات كانت توضع
سيقانه فى الماء لتنعم ثم تنزع عنها القشرة الخضراء ، وتقسم الساق الى
شرائح ثم ترص عليها شرائح أخرى أفقية وتغطى بشيء أو أداة ثقيلة ،
ويقوم الصناع بعد ذلك بصقلها بآلات من العاج ، وكانت الصحائف يوصل
بعضها ببعض فتكون لفائف يسهل استعمالها ، يطلق عليها درج البردى
أو الدرج (٢) .

وقد ظل العمل بمصانع البردى جاريا دون تغيير يذكر فى العمال أو
فى مستوى الانتاج . كما استمرت هذه المصانع خاضعة لرقابة الدولة بعد
الفتح الاسلامى للبلاد . ومن أهم المراكز لصناعة البردى أو القراطيس كما
ورد فى القرآن الكريم وعلى لسان العرب (٣) ، كانت بوره ووسيمة وهما
من المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط . كذلك كانت افراحون فى
شرق الدلتا (٤) ، والفيوم تضم مصانع لانتاج البردى .

ويبدو أن العاصمة الفسطاط كانت توجد بها مصانع للقراطيس منذ
وقت مبكر ، حيث يذكر ابن عبد الحكم أن العرب كانوا يختطون حول
أصحاب القراطيس الدور والسكن . كما يشير ابن ظهيرة الى أن مدينة
اسيوط بالصعيد كانت تضم مصانع لانتاج البردى أو القراطيس ، ولها
طراز خاص بها .

ولا شك أن أهم مصانع الورق أو البردى ما كان يوجد منها
بالاسكندرية ، فقد اشتهرت منذ العصور القديمة بانتاجها ، وكان من أهم
منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، حيث كان يتم تصديره الى بيزنطة
وغيرها من بلاد العالم الخارجى .

وفى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، حين أمر بتعريب
الدواوين وكتابة المراسلات بالعربية ، تنبه الخليفة الى ما كان يكتبه

(٢) أشار المقرئى الى أنه كان يطلق عليها فى صدر الاسلام الصحف المدرجة
أو الدروج . الخطط ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٣) قال الله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين
كفروا ان هذا الا سحر مبين » ، سورة الأنعام : الآية ٧ .

(٤) وردت فى هذه الجهة بالتعريف فى الفراحون من أعمال الشرقية : ابن الجيعان
التحفة السنية ، ص ٦٤ .

الصناع الأقباط في مصر في طراز القراطيس من العبارات المسيحية (٥) ، فكان أن أصدر الى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر آنذاك بضرورة تغيير ذلك ، فحلت العبارات الاسلامية في طراز النسيج والبردى المعد للتصدير محل بسملة التثليث ، وكان أن توقف تصدير البردى الى حين .

وعندما اضطرت بيزنطة الى استيراد حاجتها منه بطرازه الغربى من مصر وكانت المنتج الوحيد ، اضطرت الى مجاراة الظروف الجديدة ، وعمل الأباطرة البيزنطيين على نقل بسملة التثليث والصليب التى كانت على البروتوكول ، الى قائمة الوثيقة (٦) .

كان الصناع المصريون يجيدون عمل أنواع من البردى منه ما نعم وغلا ، ومنه ما خشن ورخص حتى قيل انه كانت المصانع المصرية تنتج سبعة أصناف من ورق البردى ولا شك أن هذه الأنواع الجيدة المستخدمة فى الدواوين كانت باهظة التكاليف غالية الثمن ، ومما يوضح ذلك أن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) أصدر تعليماته بالاعتقاد فى استعمال الورق (٧) .

وقد ذكر أن دروج البردى منها ما بلغ فى طوله ما يقرب من خمسة عشر مترا ، وكان يباع زوج الطومار منه كما تشير أوراق البردى بمبلغ درهم ونصف ، كما يباع الدرج الواحد منها من النوع الجيد بدينار

(٥) كان الطراز على القراطيس فى مصر لا يزال يكتب عليه بسملة التثليث ، وقد حدث كما يذكر البيهقى وينقل عنه الدميرى ، أنه حينما مر عليه ذلك الطراز لهت نظره وقال : ما أغلظ هذا فى أمر الدين والاسلام أن يكون طراز القراطيس وهى تحمل فى الأوانى والثياب وغيرها وأصدر مرسومه الخاص للكتاب بإبطال ذلك الطراز على ما كان به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وأن يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد « وشهد الله أنه لا اله الا هو » ، المحاسن والمساوى ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، حياة الحيوان ، ص ١١٥ .

(٦) يذكر Wiet أنه على الرغم مما قام به الصناع من استبدال ذلك بما يتفق والدين الاسلامى الا أن الكتاب ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الدولة الرسمية
Precis de l'Histoire d'Egypt, tome 2, p. 147.

(٧) قيل ان أبا نواس فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز شكك من حاجته الى الورق فقال :

أريد قطعة قرطاس فتعجزنى	وجل صحبى أصحاب القراطيس
لهم الله عن ود ومعرفة	ان الميامير منهم كالمقاليس

أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

ونصف (٨) • وقد ذاعت شهرة مصر بإنتاجها من البردى أو القراطيس ، وظلت الدولة الإسلامية تستوردها منها في صدر الاسلام •

والواقع أن إنتاج البردى لم يكن قاصرا في استخدامه أو استغلاله على التصدير والحصول على الدنانير البيزنطية فحسب ، بل كان النساخ المصريون في أعقاب الفتح الاسلامي يستعملونه في كتابة المخطوطات وزخرفتها (٩) ، وكان جلهم من الرهبان في الأديرة القبطية ، حيث ينفقون أعمارهم في نسخ الكتب القديمة وتحلية صفحاتها بأنواع الزخارف وأجمل الألوان •

ومن تلك الأديرة التي ذكرها المقرئ دير أرض الحاجر بالقرب من أسيوط (١٠) إذ كان يضم عدة نساخ من الرهبان لنسخ الكتب الدينية وخاصة الانجيل ، بالإضافة الى كتب العلوم الأخرى •

وكانت أول بردية كتبت بالعربية في مصر الإسلامية بقلم حنا العمدة والشماس وأبي حديدة ، كما ورد بالبردية من مدينة اهناسيا ، وقد عثر عليها مؤرخة بعام ٢٢ هـ • ويبدو أن كثيرا من رجال الكنائس والأديرة ظلموا يمارسون فن الكتابة والنسخ واعداد المخطوطات والكتب ، ولا غرو فقد مارس الرهبان وغيرهم العديد من الحرف والصناعات داخل تلك الأديرة والكنائس القبطية في عصر الولاة • ويعزى لينبول نبوغ الرهبان الايرلنديين وتفوقهم في أعمال النسخ والنقوش البيزنطية الذهبية والفضية في مخطوطاتهم الى هؤلاء الرهبان المصريين ومحاولة تعليمهم وتدريبهم على الكثير من الحرف ، خاصة أعمال النسخ والكتابة وزخرفة المخطوطات •

كما تبرهن تلك المخطوطات والكتب الدينية الإسلامية على أن المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدي أمام غيرهم من أهل الذمة من الأقباط • ويعد أقدم كتاب مكتوب على ورق البردى أو القراطيس المصرية هو كتاب في الحديث (١١) لأبي محمد عبد الله بن وهب الفهرى المولود عام ١٢٤ هـ أو ١٢٥ هـ ، وقد

(٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٨٠ •

الطومار والطامور مشتقة من اللفظة اليونانية Tomarian وهي بمعنى اللقانة وجمع.

الطومار طوامير • عبد العزيز الدالي : البرديات العربية ، ص ٣٠ •

(٩) كانت زخرفة الجلد واستخدامه وتغليف المخطوطات والكتب صناعة زاهرة في العصر

القبطي ، واستمرت كذلك في عصر الولاة •

(١٠) كان من جملة أديرة دركة دير بالقرب من مدينة أسيوط ، وكان يقع على طرف

جبل يطلق عليه : أرافونه وأغرافونا ، ومعناه النساخ • المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ٥٦٠ •

(١١) وهو من جمع عبد الله بن وهب بن مسلم القريشي ، وقد نشره وعلق عليه

David Wiell ضمن مطبوعات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة عام ١٩٣٩ •

عبد العزيز الدالي : البرديات العربية ، ص ٥٨ - ٥٩ •

عثر عليه بمدينة ادفو بالقرب من أسوان ، ولا ريب أنه كان من عمل النساخين المسلمين ، كتلك المصاحف الشريفة التي نسخت بالخط الكوفي على الرق في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة (١٢) .

ومن الطبيعي أن تكون المصاحف الشريفة ميدانا فسيحا لفن تجويد الخط ، وكان النساخ أو الخطاطون في بداية عهدهم يكتبونها بضروب من الخط الكوفي الذي تطور على أيديهم ، وقد أمكن معرفة الأبجدية لخطوط المصاحف المخففة من أبجدية أحد المصاحف التي نسخت منذ وقت مبكر بخط أحمد بن الاسكافي الوراق ، مما يدل على تقدم حرفة الوراقة وأعمال النسخ والكتابة في عصر الولاة .

وتعد أوراق البردي العربية التي جمعها وعلق عليها جروهمان والتي ترجع الى ذلك العصر ، من أهم الوثائق التي تكشف لنا عن شيوع استخدام الطوامير أو القراطيس ، كما أطلق عليها العرب ، واستغلالها في تحرير العقود والمراسلات وغيرها من أعمال نسخ الكتب والمخطوطات العلمية والأدبية ، ولا غرو فقد انفردت مصر بصناعة هذا النوع من الورق ، فضلا عن شهرة المصريين في صناعة الأقلام والمحابر وأدوات الكتابة الأخرى .

وكان الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون يفضلون القراطيس المصرية على غيرها من تلك المواد الأخرى ، ولا سيما ما كان يستخدمه العرب من اللخاف والعشب كأرضيات للكتابة عليها ، أو ما كان حتى المصريون يستعملونه مثل الألواح الحجرية وكسر الفخار وتلك الألواح الخشبية الموصولة قبل الاسلام .

ويبدو شغف أبي جعفر المنصور واهتمامه بأمر الحصول على القراطيس (١٣) هذه من مصر ، حيث كانت ترد الى أسواق بغداد ، فقد وقف الخليفة العباسي على كثرتها في خزائنه وهم يبيعها اذ أوعز لصاحب المصنعي ببيع القراطيس المكسدة حتى لو بيع الطومار بدائق ، في الوقت الذي كان يباع الطومار بدرهم الا أن المنصور عدل عن رأيه هذا وقال

(١٢) يضم معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة من المصاحف المخطوطة منها مصحف شريف مخطوط بالقلم الكوفي مكتوب على رق غزال على طريقة أبي الاسود الدؤلي (قاعة المعرض لوحة ٣) .

(١٣) وقد شمل كل من الجزء الأول والخامس والسادس أوراق البردي التي بلغت نحو مائتين وأربع وخمسون بردية في الجزءين الأخيرين منها ما يتعلق بحسابات الزراعة والصناع والتجار وعقود البيع وغيرها من شئون المجتمع ، وقد كان (H. Becker) أو من نشر نصوصا بردية عربية ، حيث قام في عام ١٩٠٦ ، بنشر اثنين وعشرين ورقة بردي هريسة مما عثر عليه في كوم اشقاو .

عبد العزيز الدالي : البرديات العربية ، ص ٧٩ .

لصاحب المصلى : « فكرت فى كتبنا ، وأنها قد جرت فى القراطيس ،
وليس يؤمن حادث بمصر فتقطع القراطيس بسبب فنحتاج الى أن نكتب
فيما لم نعوده عمالنا فدع القراطيس استظهارا على حالها » .

والواقع أن الجهشيارى لم يوضح لنا أسباب خشية المنصور أو ماهية
الظواهر الطبيعية التى قد تعوق وصول القراطيس المصرية الى عاصمة
الخلافة العباسية ، أم أن أبا جعفر كان يتوقع نفوذ الأمويين وتطلعهم الى
السيطرة على شمال افريقيا ، فتخرج ولاية مصر من قبضة الخلافة لتنضوى
تحت راية بنى أمية فى الأندلس ؟

ومهما يكن من أمر ، فقد ظلت أسواق بغداد تستورد قراطيس مصر
الى أن صارت تزاحمها كواغيد سمرقند فى هذه الأسواق .

كما ظل الصناع فى مراكز صناعة أوراق البردى أو الدروج كما
أشار المقرئى من المصريين الأقباط حتى بداية القرن الثانى الهجرى بدليل
تلك الصيغة التى نجدها على هذه الأوراق التى يرجع تاريخها الى ذلك
الوقت ، حيث تمتع البردى المصرى بشهرة واسعة فى العالم الى نهاية القرن
الثالث الهجرى وبداية القرن الرابع بعد الهجرة .

وتكشف لنا أوراق البردى التى أمكن العثور على بعضها فى الفيوم
والقيس والأشمونين وفى كوم اشقاو بسوهاج ، عن رواج صناعة البردى
وشيوع استخدامه فى شئون الزراعة والمعاملات مثل عقود العمل والايجار
والزواج والبيوع ، فضلا عن أمور الدولة وما يخص الادارة المالية وجوازات
السفر وغيرها . والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذى وصل إلينا
ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ فى بداية عهد الانخشيديين ، على حين أن الرثائق
المكتوبة على الكواغيد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ ، يشهد بذلك الطراز
المكتوب بتولية أبى موسى عيسى بن موسى النوشرى عاملا على مصر من قبل
الخليفة المقتدر أى بعد زوال الدولة الطولونية وهو على ورق بردى أصفر
يميل الى السواد وتاريخه يرجع الى سنة ٢٩٥ هـ ، ولدينا عقد بيع على
ورق أبيض مؤرخ فى شهر المحرم سنة ٣٤١ هـ ، ولعله كشف بمدينة
الفيوم .

وهكذا كانت أهمية القراطيس المصرية ، وعلى الرغم من أن الكاغد

أو الورق الأبيض أمكن تصنيعه في بغداد في عهد الخليفة هرون الرشيد (١٤)،
فانه ظل الخلفاء يفضلونه في أوائل العصر العباسي ، وقد ذكر اليعقوبي
أن « الخليفة المعتصم أرسل الى واليه على مصر أن يحمل اليه من يعمل
القراطيس وغيرهم من أهل الحرف والصناعات . ونحن لا نشك في أن
صناع القراطيس انما كان الهدف من طلبهم صناعة الكاغد أو الورق
والمشاركة في اقامة المصانع الخاصة بذلك في مدينة سامرا العراقية
الشهيرة » .

ولا شك أن سيادة مصر البردية في عالم الورق وصناعته ، وجدت
لها منافسا خطيرا باستخدام الكاغد في الأقاليم الشرقية للدولة الاسلامية
منذ منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، الا أن مصانع الورق
في شمال الدلتا وفي الاسكندرية ظلت تنتج قراطيس البردي حتى سقوط
الدولة الطولونية في مصر وعودة البلاد الى حظيرة الدولة العباسية (١٥) .

ويبدو أن قيام صناعة ورق الكتابة وما يسمى بالكاغد الذي نقلت
طريقة صناعته من الصين الى البلاد الاسلامية ، انما جاءت مع الوقت الذي
انتهت فيه صناعة الورق المصنوع من البردي وقيام دولة الاخشيديين (١٦)،
وكما قيل في ذلك الوقت من أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر .
كما يعزى الى تدهور صناعة قراطيس البردي في العهد الاخشيدى قلة
العملات الأجنبية الواردة الى مصر بسبب قلة الصادرات المصرية من البردي .

وخلاصة القول أن مراكز صناعة البردي ظلت تنتج من القراطيس
أو الطوامير طيلة ثلاثة قرون بعد الهجرة كما كان الصناع المصريون يعملون
منها ما يبلغ طوله ثلاثين ذراعا وأكثر .

(١٤) استولى المسلمون على مدينة سمرقند على يد قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٩٤ هـ ،
وقيل انه تم استغلال هؤلاء الأسرى من عمال الصين في هذه المدينة في تطوير صناعة
الكاغد أو الورق والعمل على تنقيته من الشوائب ، بحيث أصبحت سمرقند بعد فترة قصيرة
من أهم مراكز صناعة الكاغد . وقد انتقلت صناعته من سمرقند الى بغداد حينما أشار
الوزير العباسي الفضل بن يحيى البرمكي على الرشيد بضرورة اقامة مصنع للورق ، وأمر
أخاه جعفر بالعمل على احلال الورق المصنع داخل بغداد محل الورق في دواوين الدولة .

قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٤٠٨ ، آدم متز : الحضارة الاسلامية ،
ج ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص ١٣٤ - ١٣٥ .
(١٥) يقول كرايتشك : ان صناعة تجهيز ورق البردي بمصر قد أصبحت منتفية
بالاجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادي .

(١٦) اذ نجد أن الورق المصري المصنوع من نبات البردي ينتهى في عام ٣٢٣ هـ/٩٣٥م
انتهاء تاما ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ/٩١٢م
وذلك وفقا لما تم العثور عليه وأمكن نشره من أوراق البردي . جروهمان : أوراق البردي ،
ج ١ ، ص ٥٥ ، ص ١٥٣ .

ومن أسماء أصحاب القراطيس التي وصلت إلينا على إحدى شواهد القبور ، على بن جامع القراطيسي وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ٣٠٢ هـ . ويبدو أنه كان يزاول حرفته في مدينة القسطنطينية .

والواقع أن حرفة الوراقة والكتابة كانت مرتبطة أشد ما يكون بصناعة قراطيس البردي المصرية وغيرها من الأرضيات المستخدمة في الكتابة منذ فجر الإسلام كالرق والجلود . ولا شك أن اتخاذ الدواوين ومحاولة تعريبها في عهد عبد الملك بن مروان ، وتعدد كتاب الديوان ، وما أفرد له العلماء كما يذكر المقرئ في كتابة الخراج والانشاء والرسائل وكتابة الجيوش من عدة مصنفات قد شجع على تقدم وازدهار صناعة الورق ونشاط الوراقين في بغداد والقسطنطينية وغيرها من الحواضر الإسلامية .

٢ - الوراقة فى عهد الطولونين والاشيدين :

تشير المصادر الى انتشار محال الوراقة بمصر منذ القرن الثالث الهجرى ، ففى احدى أوراق البردى ورد خطاب يتضمن ارسال بعض العقاقير والكتب المنسوخة ، يقول المرسل فيه « وأحب منك أكرمك الله أن تتفضل وتوجه الى دفاتر ملاح أكون أقرأ فيها » ، وفى بردية أخرى يرجع مكان اكتشافها الى مدينة الأشمونين من القرن الثالث الهجرى ، ومن أهم ما ذكر بها بيان بتلك المصروفات التى دفعت لكل من المكارى الذى قدم بالكتب والحارس الذى خرج بالكتب ، ومن المرجح أنها كانت مرسلة من القسطنطين الى الأشمونين والعامل عليها من قبل الوالى المصرى حينذاك .

ولا شك أن البهنسا التى تقع بالقرب من الأشمونين كان بها عدد من الوراقين وهواة اقتناء الكتب أو المخطوطات فى العصر الاسلامى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كشف خطاب بردى طريف من عهد غير بعيد عن الحياة الممتعة التى كان يعيشها بعض أهالى المدينة من هواة الكتب والدفاتر منذ العصرين الرومانى والبيزنطى (١) . ومن المعروف فى العصر الاسلامى أن البهنسا ظلت تحافظ على شهرتها فى صناعة النسيج وغيرها من الحرف والصناعات حتى أن الصناع كانوا يكتبون على الستور والثياب المصنوعة من الصوف أو القطن أسماء مستعملى هذه الثياب . يقول المقرئ فى شأن ذلك : « فلا بد أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوبا » على ذلك مضوا جىلا بعد جيل .

(١) ورد فى ذلك الخطاب طلب نسخ وارسال الجزئين السادس والسابع من كتاب شخصيات فى الكوميديا ، ويشير المرسل للخطاب أنهما يوجدان لدى ديمتريوس بائع الكتب . بل : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

كانت الوراقة في الفسطاط والاسكندرية وغيرهما من المدن المصرية تشمل صناعة الورق ونسخ المخطوطات وبيعها ، وصناعة أدوات الكتابة مثل الأقلام والمحابر وأنواع المداد أو الأحبار الى غير ذلك . ويمدنا القلقشندي بمعلومات عن نوع الورق المصري الجديد الذي صنعه الوراقون في الفسطاط ، فهو من القطع المنصوري ، وكان أكبر قطعاً وحجماً من نوع الحموي والبغدادى ، ولكنه دونهما في الرتبة . وكان فيه ما يصقل من كلا الوجهين ويسمى في عرف الوراقين المصلوح وهو على درجتين من حيث القيمة فمنه الوسط ومنه غالى الثمن .

ويظهر أن صناع الورق في أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجرى كانوا يستخدمون مادة الكتان المضروبة بالقطن كما كانوا يصنعونه من الخرق البالية (٢) ، ولا شك أنها كانت متوفرة جميعها في نواحي عديدة من البلاد مثل منطقة الفيوم وشمال الدلتا ، ومن الجدير بالذكر أن الورق الذي أخذ الوراقون يصنعونه في مصر في عهد الطولونيين والاختشيديين لم يكن يباع بسعر واحد ، بل كانت أسعاره تختلف بحسب جودته ، فالورق الأبيض المصقول الذي يصنع في الصيف أغلى ثمناً من الورق الأسمر الخشن الذي يصنع في الشتاء ، ويرجع الفرق بينهما في نوع المادة المستخدمة في الصناعة فالنوع الجيد ما كان يتم صنعه من الكتان المضروب بالقطن ، أما الوسط فهو ما كان يصنع من الخرق البالية والمواد الأخرى (٣) .

ومن أنواع الكاغد أو الورق ما كان يتم تعتيقه بمعرفة الوراقين ، حيث يتخذ من الأواني النحاسية المناسبة ما يوضع فيها الماء العذب الصافى وي طرح فيها النشا النقى الجيد ويتم غليانه حتى ينقص الماء ، ثم يضاف اليه يسير من مادة الزعفران بقدر ما يحتاج اليه من تلوين الورق ، ويصب في أطباق واسعة ، ثم يغمس فيه الورق غمسا رقيقا ، ثم ينشر بعد ذلك لكي يجف حتى لا تلتزق أطراف الورق على بعضها ، وكلما جف يسيرا يقلب على الغاب لئلا يلتصق فيه ، وهكذا حتى يصير الورق في أحسن حالاته لاستخدامه في الكتابة .

(٢) تم العثور على مخطوط يرجع تاريخه الى سنة ١٠٠٩م محفوظ بمكتبة الاسكوريال وترجع أهميته الى أنه يثبت أن العرب كانوا هم أول من صنع الورق من القطن . ثوبون : حضارة العرب ، ص ٥٠٩ ترجمة عادل زعيتر .

(٣) ذكر عبد اللطيف البغدادى أن الناس كانوا يبحثون بين المقابر عن الأكفان القديمة المنسوجة من القنب ويبيعونها الى مصانع الورق في مصر . عبد اللطيف البغدادى في مصر ، ص ٤٨ .

كما تفنن الصناع فى صناعة الليق المختلفة وهى تشبه المداد فى استخدامها ، فمنها ما أطلق عليه بالليقة الذهبية وغيرها (٤) ، وكذلك برع هؤلاء فى اتخاذ الشب الأبيض والكبريت الأصفر وغيرها من المواد لمحو الكتابة على الورق ، فكانوا يسحقون هذه المواد ويضيقون عليها الخل الأحمر حيث تحك بها الدفاتر أو المخطوطات فانها تزول كتابتها .

أما أدوات الكتابة وصناعة الأقلام والمحابر ، وما كان الوراقون أو النساخون يستعملونها فى نسخ المخطوطات والكتب ، فتشير المصادر الى صناعة أنواع من أقلام البوص منذ فجر الاسلام ، بعد أن كان يتم عملها من نوع السمار ، حيث كان ينمو بكثرة فى جهات متفرقة وخاصة فى المستنقعات والبرك المالحة . وقد شاع عملها أيضا من الغاب والقصب .

وكان الغالب يقطع ويبرى أو يقلم ، ويذكر القلقشندي أن الوراقين كانوا يتخيرون من أنابيب القصب أقلها عقدا وأكثرها لحما وأصلبها قشرا وأعدلها استواء . وكان يصنع من الأقلام الجيدة خمسة أنواع منها قلم الطومار ، وقلم الراسى والنصف وقلم الثلث ، كما كان لكل خط نوع من الأقلام ينسخ به ، وقد أشارت المصادر الى الشروط الواجب توافرها فى عمل القلم الجيد ، وكلها أمور كان يجيد عملها النساخون أو العاملون بحرفة الوراقة فى عهد الطولونيين والاختشيديين .

كما صنع الوراقون أنواعا مختلفة من المداد المستخدم فى كتابة المخطوطات ، فكانت تتخذ من سخام النفط ، وقد أوضح ابن مقلة طريقة صنع أجود المداد أو الحبر وبيان النسب بين المواد المستعملة من الماء والملح والصمغ والنفط والعسل وغير ذلك . كما أشار صاحب عمدة الكتاب الى الطرق الصناعية التى كان على النساخين اتباعها فى عمل الأحبار بألوانها المختلفة ، حيث كان ما يعمل منها الحبر الأصفر والأحمر والذهبي وحبر السماق ومنها صناعة الأحبار الخاصة بنسخ المصاحف الشريفة . ولا ريب أن الخطاطين والنساخين قد أجادوا هذه الطرق العديدة لصناعة الأحبار ، وما يناسب منها للكتابة على الرق أو الورق كما تكشف لنا أوراق البردى عن شيوع استخدام الحبر الأسود فى كتابة الرسائل والايصالات والعقود وغيرها خلال القرن الثالث الهجرى .

(٤) وذكر ابن عمل الليق الذهبية أنه كان يؤخذ من الزاج الأصفر الجيد ومثل وبعده من النوشادر بحيث يذق الزاج جريشا مع النوشادر ويجعل فى إحدى الزجاجات ثم يحكم إغلاقها وتوضع على تنور فاتر لطيف الحرارة مدة نهار كامل ثم يتم اخراج المادة النخينة فيكتب بها على الثياب والرقوق بعد جفافها بما يشبه الذهب .

وقد ذكر القلقشندي أن هناك نوعا خاصة للرق هو الخبر الراسي فهو المناسب ولا دخان فيه ، وإذا كتب به في الكاغذ نفذ منه مباشرة ، وكان يصنع من العفص الشامي المجروش بعد اضافة المقدار المناسب عليه من الماء ويجعل في طنجير ويوضع على النار حتى ينضج .

وذكر أحمد بن يوسف الكاتب أنه كان يأتي اليه رجل يصنع من أنواع المداد أو الأحبار في عهد خمارويه ، لم ير أنعم منه ولا أشد سوادا منه ، فسأله المعروف بابن الداية من أي شيء استخرجه فأخبره أنه من دهن بذر الفجل والكتان أمكن له صناعة هذا النوع الجيد من المداد .

وتدل مجموعة المحابر الفضية والأدوات الكتابية الأخرى المحفوظة بالمتاحف على تقدم صناعة تلك الأدوات وغيرها من المساحن لصناعة المداد بأنواعه المختلفة (٥) ، كما تكشف لنا عن استخدام ألواح من الخشب والعاج للكتابة عليها ، وشيوع استعمال الكتان الى جانب الحرير كأرضيات يكتب عليها منذ فجر الاسلام (٦) . وقد اشتهرت كل من بوصير وسمنود في مصر بإنتاجهما نوعا من الكتان كمادة يكتب عليها .

وقد انتشرت محال الوراقة في عهد الطولونيين والاختشيديين خاصة بعد شيوع صناعة الورق وتقدمها باطراد منذ أوائل القرن الرابع الهجري ، ولم تعد هناك معوقات في سبيل رواج عمل الوراقين ، حيث كانت أسعار الطوامير وقراطيس البردي باهظة اذا قيست بسعر الورق .

ويمدنا ابن زولاق بصورة صادقة عن نشاط سوق الوراقين بمدينة القسطنطينية في ذلك العهد ، وما كان يدور فيها من المناظرات والمساجلات العلمية والأدبية فضلا عن مزاولة الوراقين لعملهم في نسخ المخطوطات وبيع الورق والأقلام والأدوات الكتابية .

ولم تقتصر صناعة الورق وعمل النساخ والمجلدين على العاصمة القسطنطينية ، بل انه يمكن القول بأن تنيس ودمياط والاسكندرية وغيرها من

(٥) يضم المتحف القبطي مجموعة من المحابر الفضية وعدة من أقلام الغاب ، كما يضم معرض دار الكتاب المصرية واحدا منها كان يُستخدم في القرن الرابع الهجري - رقم السجل : ١٨٩٦٠ .

(٦) وتحتفظ دار الكتب أيضا بمجموعة من الفخار كانت تستخدم كمذكرات ، وقطعة من الخشب مكتوب عليها سورة « والنجم اذا هوى » وقطعة من الحجر الرخام مكتوب عليها ترجع الى عهد الوليد بن معاوية المتوفى ٢٠٥ هـ . ويحتفظ المتحف القبطي بقطع من العظم والخشب مكتوب عليها نصوص دينية وأعداد حسابية وأيضا من قطع الفخار عليها نصوص عربية من الجهتين وبعض القطع الأخرى .

المدن والمراكز الصناعية كانت تضم أسواقا هامة لهؤلاء الوراقين ، فقد نقل ياقوت عن يوسف بن صبيح أحد كتاب ديوان الرسائل في العصر العباسي ، أنه رأى بمدينة تنيس خمسمائة صاحب محبرة يكتبون الحديث وأنه دعاهم سرا الى بعض جزائرها وعمل لهم طعاما يكفيهم فتسامع الناس فجاءه من هؤلاء النساخ ما لا يحصى كثرة ، مما يدل على ازدهار وازدهام المدينة بالنساخ والوراقين .

ويذكر ياقوت أن الوزير أبا الفضل بن جعفر كان فاضلا يحب العلم ونقل عن ابن الجبال المؤرخ المصري أنه كان يصنع للوزير ابن حنزابه الكاغد بسمرقند ويحمل اليه في كل عام ، كما كان في خزائنه عدة من الوراقين الذين يعملون في نسخ الكتب وتجليدها (٧) ومما قيل أن أحد الوراقين حاول ترك خزائنه يوما ، لكنه تبين أن عليه ديناً مقداره نحو مائة دينار ، فعاد الى الوراقة وصرف الأمر عن رفعه الى القضاء .

ومن هؤلاء الوراقين الذين ذاع صيتهم في أيام الاخشيديين ، علي ابن الحسين بن علي العبسي المعروف بابن كوجك ، كان وراقا أديبا فاضلا ، والكاتب ابن حنزابه في عهد الاخشيديين وأوائل حكم الفاطميين .

(٧) تذكر أبو المحاسن أن الوزير ابن الفرات كانت له خزانة كتب خاصة ضمت ألف جزء من كتب التفسير ، كما كانت لديه مائة كتاب في التفسير وأخرى في التاريخ وقد خلف ثمانية عشر صندوقا من الكتب أكثرها بخطه ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

٣ - صناعة الكتابة في مصر منذ فجر الاسلام حتى نهاية عصر الطولونيين والأخشيديين :

ظل الكتاب من الأقباط المصريين في أعقاب الفتح العربي يعملون وفقا للأنظمة البيزنطية الادارية منها والمالية حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) وقد أشار ساويرس بن المقفع الى الكاتبين الأرثوذكسيين أثناسيوس واسحق في عهد عبد الملك وواليه على مصر أخيه عبد العزيز ابن مروان ، حيث كان أحدهما مختصا بديوان مصر العليا ، والآخر بديوان أسفل الأرض أو شمال البلاد . كما ظل رؤساء المالية أو مندوبى ديوان الخراج والأموال من الأقباط .

وقد ارتبطت كتابة الدواوين في صدر الاسلام بما كان يستعمله هؤلاء الكتاب من الدروج وأوراق البردى حتى زوال الدولة الأموية ، ولم تلبث الأمور أن بدأت صناعة الكواغيد في سمرقند وبغداد ، فاتخذت الكواغيد وشاع استخدامها لدى كتاب الدواوين المختلفة . وكان لكل ولاية ديوان ببغداد يشرف على شئونها .

ويشير المقرئ الى تعدد الكتاب ، فأصبح منهم كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضى ، وكان أهم هؤلاء الكتاب فى الرتبة كاتب الرسائل . ويوصى الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان أخيه عبد العزيز والى مصر بأن يهتم بأمر كاتبه فهو يقول له : « تفقد كاتبك وحاجبك وجليسك ، فان الغائب عنك يخبره عنك كاتبك ، والمتوسم يعرف بحاجبك ، والداخل عليك يعرفك بجليسك » . وحينما تخلف عبد الله بن عبد الملك عمه عبد العزيز عام ٨٦ هـ على ولاية مصر ، صرف عبد الله أشتاس الكاتب القبطى عن الديوان ، وجعل عليه ابن يربوع الفزارى

من أهل حمص ، وذلك من أجل تعريب الديوان وما ينسخ فيه من شئون
الإدارة والحكم .

والواقع أن مصر كانت دار إمارات ليس لديوان الإنشاء بها شأن يذكر ،
وكان الولاة يتخذون كتاب رسائل لهم يعملون على تحرير الكتب وصياغتها ،
والقيام بأرسالها إلى مقر الخلافة في دمشق ثم بغداد بعد أن أصبحت عاصمة
الخلافة العباسية .

ويظهر نشاط الكتاب لاسيما كتاب الخراج في عهد الوليد
ابن عبد الملك وواليه على مصر عبد الملك بن رفاعه ، ويذكر ابن عبد الحكم
أنه حينما تولى إمارة مصر عام ٩٦ هـ خرج إلى سائر أنحاء البلاد ليحصى
أهلها وبرفقته طائفة من الأعوان والكتاب ، فأقام في ذلك ستة أشهر
بالصعيد حتى بلغ أسوان ، والكتاب في جد وتشمير يكفونه ذلك ، ثلاثة
أشهر بأسفل الأرض ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية .
ولا شك أن قيام الكتاب بعمل ذلك الإحصاء لعدد السكان والقرى إنما كان
لتقدير الخراج والجزية والضرائب الأخرى التي فرضت على المحرقيين
والصناع في القرى المصرية .

وكما احتاج الولاة إلى كتبة كثيرين ليستعين بهم في تحرير رسائلهم
إلى مختلف الجهات في مصر وإلى الخليفة نفسه ، مما يدل على أنه كان بمصر
في ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان إنشاء ، إلا أنه قليل الأهمية بالنسبة
لديوان الخلافة أو ديوان الإنشاء في مصر في بداية الدولة الطولونية .

وتبدو أهمية كتاب الخراج والشئون المالية في عهد الخلافة العباسية ،
وقد وردت كتابة بخط عكرمة أحد كتاب ديوان أسفل الأرض في خلافة
أبي جعفر المنصور وواليه على مصر حميد بن قحطبة سنة ١٤٣ هـ . كما
يروى الجهمسياري أنه كان لعمر بن مهران عامل الرشيد على مصر
جهنذ (٨) وهو أحد كتاب الخراج يقوم بوظيفة محاسب لدى العامل
أو الولاة في مصر آنذاك .

وكان على هؤلاء الكتاب أن يكونوا من الفصاحة والبلاغة وحسن
الالفاظ ، ولهم ملكة يقتدرون بها على مدح المذموم وذم المدوح على حد
تعبير الكتاب أنفسهم كما كان من شروط الكاتب أن يكون عالماً بصنوف
الحياة وما تتطلبه من اجادة فن الحساب وعلوم الهندسة والري ، ومعرفة

(٨) يرجع ظهور الجهنذ ككاتب خراج إلى زمن الساسانيين ، وقد عرف محمد بن مسلم بن
حنبل أوائل حكم الأمويين في عهد معاوية بن أبي سفيان .

عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

بالموازين وأنواع المكييل ، يقول ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ : « من لم يكن عالما في وزن الموازين وذرع المثلث والمربع ومختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه وحال أدوات الصناعات ، ودقائق الحساب ، كان ناقصا في حال الكتابة » .

وهكذا كانت صناعة الكتابة تتطلب من الخبرات والمهارات والالمام بكافة شئون الحياة ، بقدر ما تتطلب من البلاغة وحسن البيان وجودة الخط وفن النقش على ألواح الرخام وغيرها ، كما تجلى ذلك في الكتابات الأثرية . فقد وصلتنا من هذه الكتابات كتابة أثرية كانت على قنطرة الفسطاط يرجع تاريخها الى سنة ٦٩ هـ / أغسطس ٦٨٨ ، جاء فيها : « هذه القنطرة أمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير وقام ببنائها سعد أبو عثمان وكتب عبد الرحمن » .

وتكتشف لنا شواهد القبور التي يضمها المتحف الاسلامي عن تطور الخط العربي على الحجر في عصر الولاة والعصور اللاحقة (٩) ، كما تدلنا في الوقت نفسه على أسماء هؤلاء الكتاب والخطاطين المشهورين ، فهناك كتابة أثرية تحمل اسم أحد كتاب الخراج ، أذ تم العثور على شاهد من الرخام مكتوب عليه « يعقوب سلمراك الكاتب » .

ومن شواهد القبور التي تدل على ظهور الكتابة البارزة ما جاء على لوح منها مؤرخ سنة ٢٠٣ هـ ، وكان على الصانع أن يحفر اللوح الحجري كله ما عدا الكلمات المكتوبة فيتركها بارزة ، ومن أقدم تلك الكتابات الكوفية البارزة التي أجادها صناع الكتابة والحفر ، الكتابة التي تعلو جدران البئر الذي يتوسط مقياس النيل بالروضة ، الذي أمر بإنشائه الخليفة العباسي المتوكل سنة ٢٤٥ هـ ، وقد نفذت هذه الكتابة بطريقة الحفر البارز في الحجر ، وتحمل الكتابة بعض آيات من القرآن الكريم ، وتنتهي بنص تاريخي على جانب كبير من الأهمية .

ومن الشواهد الرخامية نعرف اسم أحد الكتاب الذي عاش في عهد المتوكل العباسي بمصر هو مبارك المكي ، وجاء توقيعه على شاهد منها بتاريخ ذي الحجة سنة ٢٤٣ هـ ولا ريب أن الكتابات الأثرية وتلك النقوش والزخارف على جدران المساجد تدل على تقدم صناعة الكتابة ، حيث وزدت صيغة كاتب أو مشتقاتها في كثير من هذه الكتابات الأثرية المخطوطة بمتحف

(٩) كان يتحتم على صانع الكتابة التذكارية أن يكون ملما بصناعة الخط وصناعة الحفر في المواد الصلبة في وقت واحد ، وترجع بداية صناعة هذه الكتابات الأثرية في وادي النيل الى أعقاب الفتح العربي مباشرة ، وخير شاهد على ذلك نقش أسوان المؤرخ ٣١٠هـ / ٦٥٠هـ إبراهيم جمعة : دراسة في تطور الكتابات الكوفية ، ص ١٣٠ .

الفن الاسلامي ، وربما كان الكاتب خبيراً بصناعة المادة التي كتب عليها
النقش مثلاً ، وربما كان هو الذي رسم حروف النقش فقط وقام بحفرها .

ومن خير الشواهد على ما بلغه هؤلاء الصناع وأصحاب حرفة الكتابة
في عصر الولاة ما قام به هؤلاء من نقش وزخارف على جدران المساجد
بالقرآن الكريم كاملاً ، ومنها تلك الألواح الرخامية البيضاء التي استطاع
الكتاب أن يكتبوا عليها القرآن الكريم بالخط الكوفي ، وبها زين جدران
جامع عمرو ابن العاص بالذهب واللازورد ، فيقرأ الانسان جميع القرآن
منها وهو قاعد ، . وهكذا لتكون المساجد مساجد ومباني في وقت
واحد ، ومن المرجح أن تكون هذه الألواح الرخامية قد تمت كتابتها ونقشها
من جملة الزيادة وأعمال الإصلاح التي قام بعملها الوالي عبد الله بن طاهر
من قبل الخليفة المأمون عام ٢١١ هـ .

وهكذا تنوعت أغراض الكتابة كما تعدد الكتاب فمنهم من كان يعمل
كاتبا للرسائل وكانوا من المنزلة لدى الولاة والحكام المسلمين كما يسميهم
الجهشياري كانوا تراجم الملوك ، ومنهم من يعمل في كتابة ديوان الخراج
والمال ، ومنهم كذلك من كان يحرق عقود الناس ومسنداتهم وما يتصل
بشئون المعاملات وغيرها (١٠) .

وكما حدث الاسلام على الكتابة وأمر بها ، فإن المصادر الأدبية تشير
الى تفضيل العرب لهؤلاء الكتاب على غيرهم من أصحاب المهن وأرباب
الصنائع (١١) ، فقد قيل أن الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك ،
وذكر أيضا أن الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة مما شجع على
رواج صناعة الكتابة والسعي اليها دون غيرها من الحرف والصناعات
الأخرى في عصور مصر الإسلامية .

وبدأت الكتابة مرحلة جديدة بمجيء أحمد بن طولون الى مصر سنة
٢٥٤ هـ ، فقد كان أول من أنشأ ديوان للرسائل أو المكاتبات على غرار
ديوان الانشاء بعاصمة الخلافة العباسية بغداد . كما كان من أهم مظاهر

(١٠) وقد ورد في شأن المعاملات قول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا ابتدأتم
بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا ياب كاتب أن يكتب كما
علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ، سورة البقرة : الآية ٢٨٢ .

(١١) ذكر الجاحظ أنه كان أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما يكتبان للنبي
صلى الله عليه وسلم ، ثم صارا الى الخلافة بعد ذلك .

القلقشندي : ضوء الصبح المسفر ، ص ١١ .

الاستقلال بمصر السيطرة على ديوان الخراج فأصبح خاضعا لابن طولون
بعد أن استطاع أقصاء أحمد بن مديبر عن ولاية للخراج بمصر (١٢) .

وكان من أهم الكتاب الذين أصبحوا يدينون لمؤسس الدولة الطولونية
بالطاعة والولاء ابن عبد كان ، حيث كان أهل بغداد يخسرونه عليه
« ويقولون بمصر كاتب محرر يقصدون ابن عبد كان ليس لأمير المؤمنين
بمدينة السلام مثله » ، وكانت تصدر عنه جليل المكاتبات الى ديوان
الخلافة وغيرها ، وقد اشتهر بالبلاغة وحسن الكتابة .

ويشير البلوى الى تفضيل ابن طولون للكتاب المصريين على غيرهم من
الكتاب ، فهو يذكر أنه حينما اتخذه جعفر بن عبد الغفار كاتباً له ولم يكن
من الكفاية مثل ابن عبد كان ، بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء منصبه ،
أشار ابن خاقان على الأمير أحمد بن طولون بصرفه عن الكتابة فقال له :
« أنا أحتمله لأنه مصري » ، فقال له ابن خاقان : أراك أيها الأمير تفضل
الكاتب المصري على الكاتب البغدادي ، فقال لا والله ، ولكنه أصلح الأشياء
لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه .

ومن كتاب حمارويه الذي خلف أبيه في حكم البلاد عام ٢٧٠ هـ ،
الكاتب اسحق بن نصر العبادي ، وقد بلغت صناعة الكتابة على يديه ومن
سبقة أمثال ابن عبد كان درجة عالية تشهد بتطور الحياة الأدبية في مصر في
عهدهم .

وقد نهج محمد بن طنج الإخشيد حينما استقل بالحكم على منوال
أحمد ابن طولون في العناية بشئون الدواوين وبالكتاب العاملين بها ،
وكان من أشهر هؤلاء إبراهيم النجيمي ، وكان مجيدا لفن الكتابة ،
وحفظ لنا ابن سعيد نسخة الكتاب الذي بعث به الإخشيد الى أرمانوس
ملك الروم ردا على كتابه ، وكما يذكر ابن سعيد أن الأمير الإخشيد لم يختار
من جماعة الكتاب إلا النجيمي لعلمه بوجوه الكتابة وذلك للرد على ما جاء
في كتاب حاكم بيزنطة في ذلك الحين .

وقد ازدهرت صناعة الكتابة في عهد الإخشيديين حتى أن الكتاب
أنفسهم وضعوا الكتب وصنفوا التأليف ، نذكر من هؤلاء أحمد بن محمد
التخاس الكاتب ، فقد صنف كتابا بعنوان « أدب الكتاب وصناعة الكتابة »

(١٢) ذكر الكندي : أنه لما ورث كتاب المعتمد الى أحمد بن طولون يستحثه في حمل
الأموال اليه كتب اليه قائلا : لست أطيق ذلك والخراج بين يدي ، فانفذ المعتمد نفيس
الخادم الى أحمد بن طولون لتقليده الخراج بمصر وبولايته على الثغور الشامية . الولاة .
ص ٢١٧ .

تحدث فيه عن فضيلة الكتابة ، وما يجب على الكتاب أن يتبعوه حتى يجودوا
صنعتهم وكانت وفاته سنة ٣٣٧ هـ .

وكان يحتاج الكاتب في صناعته الى أن يكون ماهرا في أصل
الترسل عارفا بوجوه المعاني ، لا بد له أن يقف على وجوه كتب قد كتب
في أمثالها ، وقد أفاض في وصف ذلك وأتى على نسخ كثيرة من السجلات
الصادرة بولاية الثغور والبريد وغيرها الكاتب الشهير قدامة بن جعفر
الذي تولى الكتابة لابن الفرات في ديوان الزمام (١٣) ، وقيل أنه كتب
لبنى بويه لمعز الدولة البويهى . ومما لا شك فيه أن كتابه الخراج وصناعة
الكتابة وما اشتمل عليه من فصول ، إنما يدل على ما بلغت صناعة
الكتابة من تقدم وازدهار ، وتلك الصفات التي كان على الكتاب الاحاطة
بها (١٤) .

ومن الكتاب أيضا الذين ذكرهم ابن سعيد نقلا عن ابن ذؤلاق في
عهد الاخشيديين كان عبد الوهاب بن سعيد ، وكاتب الاخشيدية ابن قوماقس ،
وعلى بن محمد بن كلا الذي أوفده محمد بن طغج الاخشيد الى منعم
ابن رائق وكان بالرملة للموافقة على عقد الصلح بينهما .

كما نذكر من هؤلاء محمد بن عبد الرحمن الروذباري الكاتب قيل
ان الاخشيد قبض عليه وصادر أملاكه ، وكذلك عيسى بن بقطر بن شفا
كاتب الخراج ، وكان أحد الكتاب الأقباط الذين تولوا ديوان الخراج في
عهد الاخشيديين . ومن الكتاب نذكر على بن صالح الروذباري ، وقد كتب
المقريزي أنه كان كاتباً لكافور وأنه حسن له أن يوفر له من الأموال وذلك
بخفض الرواتب ، وأن الله ابتلاه بمرض قضى عليه سنة ٣٤٧ هـ ، وأن
هذه موعظة من الله لمن توسط للناس بالسوء .

ويبدو من الموازنة بين النصوص التاريخية المختلفة أن طائفة الكتاب
في عهد الاخشيديين كانت تنقسم قسمين ، الأول : الكتاب السياسيون ،
وكان القوم يخطون بينهم وبين الوزراء ، أما القسم الثاني فهم الذين كانوا
يشغلون بتحرير الرسائل ويؤلفون ديوان الانشاء .

(١٣) كانت وفاته سنة ٣٢٨ هـ وقبل سنة ٣٣٧ هـ أيام الخليفة المطيع العباسي .
ياقوت معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ١٢ ، الخراج وصناعة الكتابة ، ٥ - ٩ شرح وتعليق
محمد حسين الزبيدي .

(١٤) ألف قدامة ووضع كتابا كثيرة كان في أولها كتاب الخراج وصناعة الكتابة .

ابن النديم : الفهرست ، ص ١٨٨ .

٤ - ازدهار حرفة الوراقة وفن الكتابة في العصر الفاطمي

أخذت صناعة الورق تتقدم باطراد منذ أوائل القرن الرابع الهجري، وكان لمجيء الفاطميين إلى مصر وتأسيسهم للقاهرة وحكمهم للبلاد أثر كبير في ازدهار هذه الصناعة وحرفة الوراقة، فقد كان تشجيعهم للعلماء والأدباء كبيراً، وحرصوا على جمع أكبر قدر من المخطوطات وتكوين المكتبات العامة والخاصة في قصورهم، حيث وجد الوراقون فرصتهم، وقد أشار الكتاب إلى اتساع نطاق صناعة الورق بمصر في العصر الفاطمي فذكر أبو صالح أن بمصر صناعة الورق الأبيض، كما ذكر ابن سعيد الوراقات وقال أن الفسطاط اختصت بالمطابخ التي كان يصنع فيها الورق المنصوري.

ولا شك أن تقدم صناعة الورق وشيوع استخدامه كان له الأثر الملموس في انتشار محال الوراقة في الفسطاط وغيرها من المدن المصرية كالاسكندرية وتنيس في الوجه البحري.

وقد حظى الوراقون باهتمام وتشجيع كثير من جانب الخلفاء الفاطميين ووزرائهم، الذين حرصوا على اقتناء المكتبات العظيمة في قصورهم، وإخراج الكتب والمخطوطات في أحسن صورة، وإنجازها في أسرع وقت حيث كان بمقدار الناسخ القيام بنسخ مائة صفحة في اليوم الواحد من أجل الحصول على أعلى المكافآت السخية.

وقد سار الخليفة العزيز على نهج أبيه المعز (١) في حرصه على جمع

(١) كان الخليفة المعز يهوى الاطلاع يقضى معظم وقته بمكتبة قصره في المنصورية وكان يقول: «وَاللَّهِ مَا تَلَذُّتُ بِشَيْءٍ تَلَذُّى بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ» القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، ج ٢، ورقة ٥٩٩ مخطوط.

النسخ الموجودة من بعض الكتب والمراجع حتى تكون المكتبة بالقصر الفاطمي هي المكان الوحيد الذي يوجد به هذا الكتاب أو ذاك . ومما يدل على درجة اهتمام الخليفة العزيز بالله بهذه المكتبة ما ذكره المقرئ من أنه كان يشرف عليها بنفسه ويقوم بزيارتها فهو يقول : « فيجئني راجعا ثم يترجل ويتخذ مجلسا له فوق دكة منصوبة ويمثل بين يديه أمين الخزانة ، ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين كما يعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص » . ونقل المقرئ عن ابن أبي طي المؤرخ الفاطمي وصفه لهذه المكتبة بأنها كانت من عجائب الدنيا وأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها ، فقد احتوت على أصناف من الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات والمخطوطات التي كان بعضها مزيينا بالصور والرسومات الدقيقة .

وكان من أشهر المكتبات الخاصة ما كانت ليعقوب بن كلس الوزير الفاطمي وقد عمل على تكوينها في قصره ، والتي سرعان ما أصبحت تنافس مكتبة القصر الفاطمي ، ولا غرو في ذلك إذ رتب لها الكتاب والأطباء والعلماء ، وأفرد مكانا بها لعدة كتب لنسخ المصاحف وكتب الفقه والأدب ، كانوا إذا فرغوا من نسخها روجعت وضبطت وضمت إلى مكتبته التي زخرت بأصناف الكتب . ذكر ابن خلكان أن الوزير ابن كلس كان يجري بأمر العزيز بالله في كل شهر على أهل العلم وهؤلاء الوراقين والمجلدين العاملين بهذه المكتبة نحو ألف دينار . كما ذكر المقرئ أنه كان يوجد في قصره خزانة للدفاتر . ومن طريف ما ذكره المقرئ أيضا أنه كان يستخدم الكواغد في الرسائل التي تحملها الحمائم إلى القاهرة من بلاد الشام وغيرها .

وفي عهد الحاكم بأمر الله تم افتتاح دار الحكمة بعد أن تم إعدادها وتجهيزها . في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ ، وقد اشتملت على مكتبة عامرة بها عدد كبير من النسخ والوراقين حيث كان يؤتى لهم بالكتب لينقلوا صورها منها تزود بها المكتبة ، وبما عسى ألا يكون موجودا بها . وكان الغرض من إنشاء دار الحكمة أو دار العلم كما أطلق عليها بث الدعوة الفاطمية بطريقة علمية منظمة ، تمتزج فيها النظريات والآراء الفلسفية بالاصول والمذاهب الفقهية وتكون أبعد أثرا في غزو الأذهان من مجالس القصر التي عرفت في ذلك الوقت بمجالس الحكمة .

كانت حرفة الوراقة وصناعة الكتابة تتطلب كل منهما معرفة بفنون مختلفة من العلوم وسبغة الإطلاع على النجوم الذي كان عليه ابن النديم صاحب الفهرست ، كما كانت تتطلب جودة الخط والبراعة فيه وكذلك صناعة

الألوان الفضية والذهبية وأنواع المداد والأحبار المختلفة ، والطرق اللازمة لتثبيت الكتابات على أنواع الورق ، وكيفية إزالة الكتابة عن الورق أو محوها (٢) .

ومن المعروف أن الكتابة العربية سواء ما سطر في المخطوطات منها أو تلك الكتابات الأثرية على ألواح الرخام وغيرها ، كانت من أعظم ما خلفه هؤلاء النساخ والخطاطون في مصر وغيرها من الدول الإسلامية ، فقد كانت تلك السطور العربية دليلا على سيادة الاسلام والمسلمين ، ولأنها الخط الذي دون به القرآن الكريم ، وطالما تنافس الخطاطون في تحسين حروفها الجميلة . وقد عمل الخطاطون في العصر الفاطمي على تحسين هذه الكتابات ونسخ الكتب في أحسن صورة يرونها حتى أصبح الكتاب الجميل كنزا لا يقدر بثمن ، بل أصبح كما يقول كريستي تحفة فنية يتسابق الهواة الى حيازتها واقتنائها » .

والواقع أن ذلك لم يكن غريبا على المصريين ، فقد أجادوا فن النقش والكتابة والزخارف الخطية منذ أقدم العصور، كما عبر عبد اللطيف البغدادي عن دهشته حينما شاهد هذه النقوش الأثرية أثناء زيارته لمصر في أواخر القرن السادس الهجري وبعد سقوط الدولة الفاطمية بزمان قليل (٣) .

وقد شجع الفاطميون على ازدهار الوراقة والكتابة في القسطنطينية وغيرها من المدن المصرية منذ بداية عهدهم ، ومن الطريف أن نذكر ظهور اختراع القلم الأبنوسي أداة للكتابة في عهد المعز لدين الله ، فقد ورد على لسان القاضي النعمان ابن حيون أحد قضاة المعز أن هذا الخليفة أول من فكر في عمل القلم النباع ، وكان يرمز به الى علم الباطن ، فهو قلم يكتب به بلا استمداد من دواة ، ويكون مداده من داخله ، فاذا قلب في اليد أو مال الى كل ناحية لا يبدو منه شيء من المداد . فكان الكاتب يجعله في كفه أو حيث شاء دون أن يلمح اليد أو الثياب ، ويقول المعز : « فيكون آلة

(٢) يشرح صاحب عمدة الكتاب طرق إزالة الكتابة حيث كان يعتمد النساخ الى أخذ كمية من البورق (الاسفنج) وكمية مثلها من صمغ عربي وما يعادلها أيضا من الكبريت ويدق الجميع ويسحق المخلوط جيدا يخفف في القل ، وعند الحاجة اليه يصب عليه قعدا من الماء ، ويؤخذ منه بطرفه القلم ويكتب به على الحروف أو تطلق الكتابة لئلا تزول .

مجهول المؤلف : ورقة ٣٦ ، مخطوط .

(٣) شاهد عبد اللطيف البغدادي على المسلات الفرغونية بعض الكتابات الأثرية وعلق على إحدى تلك المسلات التي وآها بقوله : وللمسلم كلها كتابات بذلك القلم .

عبد اللطيف البغدادي في مصر ، ص ٤٩ .

عجيبة لم نعلم أنا سبقنا اليها دليلا على حكمة بالغة لمن تأملها وعرف وجه المعنى منها ، . وهكذا كان الابتكار لهذا النوع من الأقلام المنسوب الى الخليفة المعز دليلا على اهتمام الأئمة الفاطميين بأدوات الكتابة والتوصل الى صناعة أقلام الحبر من الأبنوس التي لم يسبقهم اليها أحد ، حيث كان ظهورها احدى حسنات الفاطميين .

كما تشير المصادر الى اهتمام الفاطميين بمثل هذه الأدوات الكتابية والى مكانة الدواة في دولة الفاطميين ، وهى المكانة التي لم تعرفها الدواة فى أى زمان آخر قبلهم أو بعدهم ، فقد اعتبرت من شاراتهم الرسمية فهى احدى شارات الخليفة الفاطمي نفسه ، مثل تاجه الشريف الذى يضعه على رأسه وقضيب الملك الذى يكون بيده ، فكانت دواة ثمينة ، يقنول القلقشندي « وتعتبر أعجوبة من أعاجيب الزمن » وكان يتم صنعها من خالص الذهب كما كانت حليتها من المرجان وتلف عادة فى نسيج شفاف أبيض ، ولها أستاذ محنك يحملها فى موكب الخليفة لتعرض مع غيرها من شارات أمام الناس ، وقد ذكر المقرئى أن احدى النساء تدعى ست غزال كانت هذه صاحبة دواة الخليفة ، لا تعرف شيئا الا صناعة الدوى والليق ومسح الأقلام والدواة ، وكان يرسم خدمتها الأستاذ مأمون الدولة الطويل (٤) .

وكانت الدواة فى الدولة الفاطمية ترمز الى كبار موظفيها ، ولاسيما الذين يشتغلون بصناعة القلم أو الكتابة ، حيث كان لكل منهم دواة ذات قيمة خاصة تلازمه فى عمله الرسمى أو حتى فى تنقلاته مثل الوزير الذى كانت دواته محلاة بالذهب أيضا ولها صاحب يرسم حملها فى مجالسه ومواكبه الرسمية ، أما دواة قاضى القضاة وهو على رأس الجهاز القضائى ، فكانت محلاة بالفضة ولها موظف خاص بها ، يضعها على الكرسي أو القمطر فى مجلس الحكم .

وهكذا كان اهتمام الفاطميين وتشجيعهم من أهم الأسباب التى دعت حيث صناعة الورق ونسخ الكتب وصناعة الأقلام وأنواع المداد والمحابر وغيرها من أعمال الوراقين .

(٤) وكان لهذه السيدة مسجد إشتهر باسمها قامت ببنائه فى القرابة الكبرى عام ٥٣٦هـ ، المخطوط ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ .

(٥) يمكن مقارنة سوق الفسقاط العظيمة وانتشار محال الوراقة بها بما كان عليه الوراقين فى مدينة بغداد ، فقد ذكر اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٤هـ أنه كان فى عصره أكثر من مائة وراق فى بغداد .

وكان لهؤلاء الوراقين أماكنهم في الأسواق أسوة بغيرهم من أصحاب الحرف والتجار كما كانت مجالسهم ملتقى الطبقات المثقفة في ذلك العصر ومن هؤلاء الذين أجادوا حرفة الوراقة على بن محمد المصري ، ذكر أبو المحاسن أن الوزير ابن الفرات المتوفى سنة ٣٨٤ هـ كانت لديه خزانة كتب خاصة ، ضمت ألف جزء من كتاب التفسير بخط على بن محمد المصري وحده .

واشتهر بحرفة الوراقة في عهد العزيز بالله الفاطمي على بن نصر ابن سليمان الزنبيقي ، وكان يتقن الخط والضبط ومقامه بمدينة الفسطاط ، ذكر ياقوت أنه رأى له كتباً أدبية وغيرها بخط يده ، وكان بمجرد نسخ الكتاب وخروجه من يد مؤلفه يتهافت الوراقون على نسخه وسرعان ما ينتقل من مكان إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر آخر ، ويتداول في الأيدي ويجلد ويوضع في القماطر (٦) .

ويذكر السبكي أن حرفة الوراقة ونسخ كتب العلم هي من أجود الصنائع ، وعلى الوراق أو الناسخ أن يرفق بطالب العلم ، وعليه أن يفضل من يشتري منه الورق لنسخ الكتب العلمية دون غيره ، مما يدل على أن أصحاب هذه الحرفة لم يكونوا مجرد تجار ينشدون من ورائها الربح فحسب ، وإنما كانوا يرغبون من وراء امتهائهم لحرفتهم مساعدة طلاب العلم والأدب بقدر ما تكفل لهم من أسباب المعيشة الكريمة .

ونذكر من هؤلاء الوراقين الأدباء على بن الحسين بن علي العباس المعروف بابن كوجك ، وأخيه أبي القاسم الحسين بن الحسين العباسي ، وكان صاحب شهرة في الخط المعروف والمرغوب فيه ما يشبه خط ابن جرير الطبري ، وقد غلبت عليه حرفة الوراقة مثل أخيه وقرض الشعر .

وفي عهد العزيز بالله وابنه الحاكم بأمر الله كان الشاعر ابن أبي الجوع من الوراقين المشهورين بالفسطاط ، ذكر ابن خلكان أنه كان مشهوراً بالنسخ الجيد ينسخ كل خمسين ورقة بدينار ، وخطه موجود بأيدي الناس مرغوب فيه . كما اشتهر بحرفة الوراقة وبخطه الجيد في ذلك الوقت أيضاً محمد بن علي بن محمد أبو سهل ، قام بنسخ العديد من كتب اللغة والنحو وغيرها . وكان على هؤلاء الوراقين ألا ينسخوا شيئاً من الكتب المضلة مثل أهل البدع والأهواء ، ولا يكتبون الكتب التي لا ينتفع بها أو ينفع الله بها .

(٦) القماطر وجمعها قماطر هي ما يضاف فيها الكتب ، المصباح المنير ، محمد كردعي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٩٥ .

ومن الذين اشتهروا بتجليد الكتب بعد نسخها اسماعيل المجلد ،
فقد ذكر المسيحي في ترجمته أنه كان مشهورا بحرفة النسخ والتجليد ،
وكانت وفاته في عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله .

ومن هؤلاء الوراقين المشهورين في العصر الفاطمي علي بن خلف
الوراق ، فقد ذكر ابن القفطي أنه عهد اليه بمهمة تطوير مكتبة القصر
في عهد المستنصر ، وتجديد ما أتلّف من كتبها وإعادة تجليدها وعمل
فهرست لها .

ومما شجع على ازدهار حرفة الوراقة أيضا العمل على تخصيص مكتبة
في كل جامع كبير كجامع عمرو والجامع الأزهر وجامع الحاكم وغيرها من
الجوامع ، فهي تحتاج الى المزيد من الكتب التي كان النساخ يعملون على
نسخها . كما كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على هذه الجوامع .
وكان أبو الحسين بن علي بن بقاء المصري من هؤلاء العلماء الوراقين ، ذكر
ابن العماد أنه كان من علماء الحديث في عهد المستنصر ، لكن شهرته جاءت
بسبب كثرة اشتغاله بأعمال النسخ للكتب في داره ، وكانت وفاته سنة
٤٥٠ هـ .

ومن هؤلاء المحدثين والمؤرخين في عهد الخليفة المستنصر من اشتغل
بنسخ الكتب والمجلدات والاتجار فيها ، مثل أبي اسحق الحبال ، يذكر
ابن العماد أنه حدث بعد منعه منلقاء دروسه في الجامع ، أن ازداد
نشاطه في مجال الوراقة وصار طلاب العلم يلتمسون الكتب بخط يده
الى حين وفاته عام ٤٨٣ هـ .

والواقع أن حرفة نسخ الكتب وبيعها لم تقتصر على الوراقين في
أسواق الفسطاط في ذلك الوقت ، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة وغيره أن
الحسن بن الهيثم كان يشتغل بحرفة النسخ بجوار الجامع الأزهر ، وذلك
بعد أن خرج من عزلته بعد وفاة الحاكم بأمر الله عام ٤١١ هـ ، فكان ينسخ
في كل سنة ثلاثة كتب في علوم الأوائل من الفلك والرياضيات ، وكان
إذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين دينارا يجعلها
مؤونته طوال العام . وتشير المصادر الى أنه كان صاحب خط جيد في غاية
الصحة مرغوب فيه ، وقد عاش في عاصمة الفاطميين الى حين وفاته في
عهد الخليفة المستنصر وذلك فيما بعد سنة ٤٣٠ هـ .

ويمكن القول بأن حرفة الوراقة لم تكن قاصرة على الفسطاط أو
القاهرة بل كانت منتشرة ورائجة في المدن المصرية الأخرى كالاسكندرية
وتنيس ودمياط وغيرها في العصر الفاطمي ، فمن هؤلاء الوراقين الذين

اشتغلوا بنسخ الكتب والعمل على تجليدها وبيعها بعد ذلك في ثغر الاسكندرية أبو الرضا يزيد بن محمد بن عبد الحميد الطرابلسي المجلد ، وأبو محمد محمد بن عبد الوهاب بن اسماعيل الوراق .

وكذلك اشتهر أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن الحسين بن يحيى الجيزي الكتبي ، وكان من أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب .

ومن الجدير بالذكر أنه لم يقتصر عمل الوراقين على نسخ الكتب وبيعها ، بل كانوا يصنعون من أدوات الكتابة كالمحابر والأقلام ، فقد كانوا يصنعون الدوى المختلفة من المعادن كالنحاس والحديد تارة ، ومن الزجاج تارة أخرى ، كذلك كان يتم صنعها من الأبنوس المحلى بالذهب (٧) ، وكانت مجالس الكتابة وحوائيت الوراقين تزخر بأنواع الدوى حتى أنه كان يعرف عدد الطلاب بإحصاء محابريهم التي يضعونها أمامهم التي كانت أهم عتاد الطالب . كما ذكر ياقوت أن أحد الكتاب أحصى نحو خمسمائة محبرة بأيدي الكتاب وعلماء الحديث بمدينة تنيس وحدها .

وقد بلغ من شأن النساخ وشيوع ذكرهم أن المؤرخين وأصحاب التراجم كانوا محل اهتمامهم ، يذكر المقرئزي أنه في سنة ٥٠٦ هـ في عهد الخليفة الأمر ووزيره الأفضل ، وصل يانيس الناسخ من الشام ، فاستخدم في خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنائير في الشهر وثلاث رزم كسوة له في السنة ، وذلك بالإضافة إلى الهبات والرسوم التي كانت تخلع عليه من الوزير الفاطمي .

وتبدو قيمة الكتب وفضل اقتنائها في ذلك الوقت ، من قول أحد القوادحين يصف الكتاب قائلا : « ولا أعلم جارا أبر ولا خليطا أنصف ولا رقيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل حسنا ولا أكثر أعجوبة وتصرفا من الكتاب » . وقد أشار المقرئزي إلى سوق الكتبيين التي كانت موجودة في القسطنطينية آنذاك (٨) ، ولا شك أنها كانت تضم الكثير من دكاكين الوراقين ، كما كانت ملتقى العلماء والأدباء يترددون عليها لشراء الكتب وما يلزم من الورق وأدوات الكتابة الأخرى فضلا عن تبادلهم للآراء العلمية ونحو ذلك .

(٧) ذكر المقرئزي أنه وجدت بخزانة الكتب بالقصر الفاطمي صناديق مملوءة أقلاماً مبرية من براية ابن مقله وابن البواب ، وكان ابن البواب من النساخين المتفوقين في كتابة الخط الكوفي ، وقد تفوق على ابن مقله الذي نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٤٥ ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٦٣٧ .

(٨) كانت تقع هذه السوق تجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص في الزاوية ذقاق القناديل . المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

ويصف ابن الحاج حركة الصنّاع بمحّال الوراقة وهم يصنعون الورق ، ويحذّر طلاب العلم وغيرهم ممن يرغبون في شراء ما يلزمهم من الورق إلا في الأوقات المناسبة لذلك فهو يقول : « وليحذر عند شراء الورق من الوراقة أن يكون في وقت يعلم أنه يكشف فيه على عورات من يعمل فيها من الصنّاع ، إذ أن أكثرهم يجعلون في أوساطهم خرقّة تصف العورة لصفرها وانحصارها على العورة وابتلالها بالماء والفخذ عن آخره مكشوف فان دخل والحالة هذه فهي معصية » ، وكما يحذر ابن الحاج الوراقين من قيامهم بغش الورق وخلطه بالنوع الخفيف منه الذي لا يصلح للنسخ لأن ذلك تدليس على المشتري حيث لا يتحمل الورق الخفيف الكشط لازالة الكتابة لخفته .

ويظهر أن محال الوراقة لم تعد تكفي حاجة القوم في العصر الفاطمي من الورق ، خاصة الورق الأبيض منه فكانوا يجلبونه من طرابلس بالشام وكان مثل الورق السمرقندي وأفضل منه ، ومن المعروف أن طرابلس وغيرها من بلاد الشام كانت تابعة للخلافة الفاطمية .

ولا شك أن محال الوراقة كان الصنّاع بها يقومون بتجليد الكتب فيها ، وقد تعلم هؤلاء الصنّاع هذه الصناعة من الأقباط المصريين منذ فجر الاسلام ، ونقلوا أساليبها الى سائر أنحاء العالم الاسلامي . ومن الجدير بالذكر أن أقدم جلود الكتب المعروفة في العصور الاسلامية قد تم صنعها في مصر ويمكن تأريخها فيما بين القرنين الثامن والحادي عشر للميلاد .

وكانت عملية التجليد تشمل الجلد والبطانة والحرير ، فكان يختار الجلد الصافي الحسن اللون الجيد الدباغة ، وكما يستخدم الورق في عمل البطانة ولصق الجلد عليه ، وكان المجلد يستخدم في ذلك آلات منها الابر والسيف والبيكير لمساعدته على التجليد (٩) ، وقد اعتبر عمل المجلد متما معمل الناسخ والرسام وغيرها ، إذ كان يتوقف عليه حفظ أوراق الكتاب ، والعناية بمظهره الخارجى معا بحيث يتناسب ذلك وقيمة الكتاب وما يحتويه من فصول العلم .

ويصف أصحاب الصناعة بما يجب أن يكون عليه المجلد من سرعة الفهم واجادة النظر والتأني وملاحة الاستعمال ، كما يصفون هؤلاء المذهبين الذين كانوا يعملون على تذهيب المخطوطات ، وكانت تلك المعرفة تلى مهنة الخطاط في الأهمية ، فالمذهب هو الذي يقوم بزخرفة الصحيفة ، وكانوا يبذلون عنايتهم الفائقة في فاتحة الكتاب في المصاحف الشريفة بحيث

(٩) البيكير نوع من الآلات التي كان يستخدمها المجلد في عمل الدوائر المقوسّة التي تقع في وسط الكتاب . ذكر محمد حسين ، كنوز الفاطميين ، ص ١٠٧ .

تختفى تصونها ومفرداتها في هالة من الذهب واللون . وكانت بعض المخطوطات تزين بالصنور والرسوم الدقيقة . وقد اهتم المذهب في مجال الوراقة بتلك الجلود الجميلة التي كانوا يجلدون بها المخطوطات فجاءت جميلة النقوش بديعة الصناعة ، وكان المجلدون في اليمن يلزقون الدروج ويطنون الدفاتر بالنشا ونحو ذلك (١٠) .

وتشير المصادر الى ما أخرج في سنوات الشدة العظمى وما نهبه الجنود الأتراك من خزائن الكتب بالقصر ، وما حقلت به من الكتب الجميلة المعدومة المثل في سائر الأمصار ، وقد أخذ العبيد جلود هذه الكتب الجميلة وعملوا منها أمدة يلبسونها في أرجلهم ، وكان المجلدون والمذهبون قد بذلوا فيها من العناية الفائقة والجهد الشئ الكثير .

ومهما يكن من شيء فقد استمر صناع التجليد والمذهبين في العناية بصنعتهم حتى أواخر العصر الفاطمي ، وقد نسج الصناع في عهد المماليك على منوالهم ، كما أخذ الغربيون عنهم في العصور الوسطى كثيرا من أساليبهم .

وقد ظلت حرفة الوراقة رائجة حتى سقوط الدولة الفاطمية ، يذكر المقرئ أن القاضي الفاضل كان يعتنى بالكتب ويقتنى من كل فن منها ، ويتبذل الجهد في الحصول عليها ، وكان له عدة نسخ لا يفترون ومجلدون لا يتوقفون عن نشاطهم في التجليد ، قيل ان خزانة كتبه بلغ عددها مائة وأربعة وعشرون ألف كتاب . وذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان من جملة النساخ بخزانة كتبه جمال الدين المعروف بابن الحماله حيث كان خطه منسوبا جيدا .

وهكذا كان تشجيع الفاطميين وكبار دولتهم من القضاة والكتاب والأعيان واهتمامهم بشأن الحصول على الكتب واقتنائها من أهم أسباب رواج حرفة الوراقة وازدهار سوق الكتبيين بالفسطاط وغيرها ، ذكر ابن خلكان أن ابن صورة سمسار الكتب كان يجلس في دهلج داره ، ويجمع لديه في يومى الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب ، ولا يزالون مجتمعين عنده الى انقضاء وقت السوق (١١) . كما كان تقدم فن التجليد الذي أبدى فيه الصناع مهارة كبيرة وروحا فنية عالية في ذلك العصر ، اذ به كانت تصان المصاحف وكتب الأحاديث والعلوم الشرعية .

(١٠) ذكر المقدسي أن أهل اليمن في ذلك العصر كان يعجبهم التجليد الحسن ويبدلون فيه الأجرة الوافرة . أحسن التقاسيم ١٠١٠ .

(١١) هو أبو القتيح ناصر بن أبي الحسن على بن خلف الأنصاري المعروف بابن عثرة .

٥ - الكُتَّاب في العصر الفاطمي

وتنوعت أغراض الكتابة وأخذت في النمو والازدهار بمجيء الفاطميين الى مصر وحكمهم للديار المصرية (١) ، حيث أخذ نفوذ ديوان الانشاء يزداد على التدريج ، وارتفع شأن الكتاب وصاروا يعدون من أعيان الدولة وكبرائها .

وكان اهتمام الفاطميين وعنايتهم منذ بداية حكمهم بكتاب ديوان الانشاء من هؤلاء الحاصلين على قدر كبير من العلوم والمعارف ، حيث كان يتم اختيارهم من بين أفاضل العلماء ونابغهم . ولا شك أن تلك الصفات التي كان ينبغي على كاتب هذا الديوان أن يتحلى بها ، قد دفعت الكثير من رجال العلم والأدب الى الاقبال على صنعة الكتابة والعمل على اجادتها ، لاسيما وأن منصب الكتابة هذا كان يؤهل صاحبه للوصول الى الوزارة أو الوساطة وغيرها من المناصب الكبرى في الدولة الفاطمية .

وكان يلقب صاحب الديوان أو رئيس ديوان الانشاء بكاتب الدست الشريف وبكاتب السر ، وقد ذكر القلقشندي أن الفاطميين لما ولوا الديار المصرية بذلوا عنايتهم الفائقة لديوان الانشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره وذاع صيته في الآفاق ، كما أوضح القلقشندي كذلك أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها رئيس الديوان ، ومن أهمها أنه يجب عليه أن يكون عالما بالعربية وتصريف اللغة فانه أحوج الناس الى هذه العلوم . وكان

(١) جاء الفاطميون الى مصر وهم عرب لهم الذوق العربي والثقافة العربية ، وكان الخلفاء من الأدباء والشعراء أيضا ، فقد ذكر ابن خلكان أن الخليفة المعز كان أديبا شاعرا دقيق الحس رقيق الشعور ، فلا غرو أن بلغت أساليب الكتابة على أيديهم ما بلغه النشر والشعر من تقدم وازدهار في عصرهم . وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

ديوان الانشاء أهم دواوين الادارة فى عهد الفاطميين ، وقد أطلق عليه ديوان الرسائل ، حيث كان من اختصاص الكتاب العمل على اخراج تلك الرسائل والسجلات من هذا الديوان على شكل رسائل أدبية لخدمة الاعلام الفاطمى والدعاية لمذهبهم الدينى . وقد عبر آدم متز عن تلك الرسائل التى كانت تخرج من ديوان الانشاء فقال : « كانت رسائلهم هى أدق آية من ازدهار الفن الاسلامى » .

وقد حفلت مصر بطائفة من الكتاب فى دواوين الدولة المختلفة ، وكان من جملتها ديوان الجيش وديوان الرواتب والاقطاع وديوان التحقيق ، وديوان المجلس وديوان خزائن الكسوة وديوان الأحباس ومنها أيضا ديوان الصعيد ، وديوان أسفل الأرض ، وديوان الثغور والعمائر ، وديوان الخراج ، وديوان الجوالى والمواريث الحشرية ، هكذا تعددت الدواوين التى زخرت بالعديد من هؤلاء الكتاب العاملين بها .

وقد حرص الفاطميون على أن يكونوا من ذوى الخبرة والمعرفة فى أعمالهم ، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية . ويذكر المقرئى أن يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله نصب فى داره الدواوين ، فجعل ديوانا للعزيزية فيه عدة كتاب ، وديوانا للجيش فيه عدة كتاب وديوانا للأموال فيه عدة كتاب وجهابذة ، وديوانا للخراج وديوانا للسجلات والانشاء وديوانا للمستغلات ، وأقام على هذه الدواوين زمانا . كما جعل فى داره خزانة للكسوة وخزائن للمال ، وخزائن للدفاتر ، وخزانة للأشربة ، وعمل على كل خزانة ناظرا ، ولا شك أن هذه الدواوين كانت تتطلب من أنواع الكتاب وممن يكونوا على علم ودراية بكافة ما يحتاج اليه فن الكتابة .

وقد أمدنا ابن ممتى ببيان مستفيض عن أنواع الكتاب الذين كانوا يعملون فى ديوان الخراج وغيره من الدواوين الفاطمية (٢) ، وذكر من هؤلاء الكتاب المستوفى (٣) والمعين (٤) ، والعامل والجهبذ (٥) والحائز

(٢) ابن ممتى كان جده من كبار الكتاب لدى أمير الجيوش بدر الجمالى فى أواخر عهد الخليفة المستنصر .

(٣) يطالب المستخدمين بما يجب عليهم رفعه من الحسابات فى أوقاتها وينبه متولى ديوان الخراج الى ما يجب استخراجه من المال فى حينه ويقيم الجرايد ويقابل بكل ما يرد عليه من حساب ويستوفيه قوانين الدواوين ، ص ٣٠ .

(٤) المعين : هو الكاتب المساعد للمستوفى فى الأعمال المذكورة ، ويوقع بشهادته على الجريدة . نفس المصدر .

(٥) الجهبذ هو المتخصص لقبض المال واعطاء الايصالات الدالة على ذلك .

والماسح ، والشاهد والنايب والخازن والحاشر ، وكان يخرج كتاب الخراج من الأقباط المصريين وكانت لهم معرفة بعلم الخراج ، فيحررون مساحة ما شمله رى الفيضان من الأراضي ، مما لحته بار أو شرق ، ويكتبون بذلك المكلفات الواضحة بالمساحات والقطائع على جميع الأصناف المزروعة ، ثم يقومون باحضار سجلاتهم الى الدواوين بالقصر الفاطمي ، وهكذا لم تكن أعمال الكتاب هي رسم الحروف أو زخرفة في الرسائل والمكاتبات بقدر الحاجة الى علمهم وخبرتهم بصنوف الحساب والهندسة وأعمال المساحات وغيرها من الشئون المدنية والادارية التي أشرنا اليها من قبل .

ولا شك أن كتاب ديوان الانشاء كانوا من أهم طوائف الكتاب في العصر الفاطمي ، وتشير المصادر الى أنه لم يكن هناك ثمة اختلاف في الوظيفة بين الوزير والكاتب وصاحب الوساطة (٦) . وكان صاحب الانشاء يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا ، وكان يتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت امرته ثلاثين دينارا . ويلى صاحب الانشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذي كان يوقع على المظالم ويجالس الخليفة في خلوته ، وصاحب التوقيع بالقلم الجليل لبسط ما أشار اليه صاحب القلم الدقيق .

ومن أهم هؤلاء الكتاب الذين تولوا رئاسة ديوان الانشاء وغيره من الدواوين الفاطمية ، وبلغوا المنزلة السامية لدى الخلفاء حتى أن المؤرخين عملوا على الإشارة بأسمائهم ، نذكر منهم يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن حيث كتب لهما بذلك سجلا في عهد المعز لدين الله وقرىء على منبر جامع أحمد بن طولون . كما كتب يعقوب بن كلس للعزیز بالله الفاطمي ثم أبو عبد الله الموصل من بعده ، وكذلك أبو منصور بن سورين فقد كتب للخليفة العزيز ومن بعده لابنه الخليفة الحاكم بأمر الله ، يذكر ابن سعيد أنه وجد له خطا مكتوبا في بعض الكتب كما كان شاعرا أدبيا .

(٦) يشير القلقشندي الى هؤلاء الوزراء من أرباب الأعلام ويقول : « اعلم أن أكثر وزرائهم في ابتداء دولتهم (يعنى الفاطميين) الى أثناء خلافة المستنصر كانوا من أرباب الأعلام تارة (وزارة تامة) وتارة وساطة وهي رتبة دون الوزارة » وكما يصف كاتب الدست الشريف وهو صاحب ديوان الانشاء ومنزلته لدى الخليفة الفاطمي قائلا : « ويستشير الخليفة في أكثر أموره ولا يحجب عنه متى قصد المثل بين يديه ، وربما بات عنده الليالي ، ولا سبيل الى أن يدخل الى ديوانه ولا يجتمع بكتابه أحد الا خواص الخليفة وله صاحب من الأمراء الشيوخ وله مرتبة عظيمة للجلوس عليها بالمخاد والمسند ، ودوايته من إخص الدوى وأحسنها » .

صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٨٩ ، ص ٤٩٠ ،

Lane-poole : A History of Egypt, p. 155.

وفى عهد الحاكم بأمر الله كان أبو الطاهر محمد البهركى النحوى ممن تولوا ديوان الانشاء ، وكان يبلغ الحاكم بما يشكو الناس منه بشأن ظهور أهل الذمة من النصارى وغلبتهم أو سيطرتهم على شئون الحكم ، وكان أبو المنصور بن حورس النصرانى يكتب للخليفة الحاكم من قبله . وتذكر المصادر من أهل الذمة هؤلاء كذلك ابن أبى الدم اليهودى أحد كتاب الانشاء ، وحبيش النصرانى الكاتب ، فقد ذكر المسيحى أنه حينما أمر الحاكم بلبس العيار والزناز لأهل الذمة ، وكانت حاله قد حسنت وصار لديه من المال الكثير من جراء وظيفته ، فانه فضل اعتزال الوظيفة والسكنى على ساحل القسطاط .

ومن كتاب الحاكم بأمر الله نذكر أيضا على بن ظفر الأزدي ، والكاتب أبا القاسم على بن أحمد الجرجرائى ، الذى أمر بقطع يده بسبب أنه كان يكتب عند أخته الشريفة ست الملك ، فانتقل من خدمتها الى خدمة أحد القواد خوفا على نفسه من خدمتها فقبضت عليه ودست له عند الحاكم ، وقد أنشد ابن ظفر الأزدي الكاتب حين أمر الحاكم بقطع يديه بسبب ذلك شعرا .

ويمدنا ابن سعيد وغيره من الكتاب والمؤرخين بطائفة أخرى من هؤلاء الكتاب الذين تفوقوا فى الكتابة ونظم الشعر أيضا ، كان منهم أحمد ابن الحسن الكاتب وقد مدح المؤرخ الشهير الفاطمى المسبحى فى قصيدة له . وكذلك كان حسن بن عيسى من جملة الكتاب الذين خدموا فى عهد الخليفة الحاكم .

وكتب للحاكم بعده القاضى أبو الطاهر الهولى ، ثم كتب لابنه الخليفة الظاهر . ومن أشهر الكتاب كان ولى الدين بن خيران تولى ديوان الانشاء الخليفة المستنصر ، وقد ذكر ياقوت أن ابن خيران تولى هذا الديوان بعد أبيه فى عهد الظاهر لاعزاز دين الله ، وكان أبوه فاضلا بليغا أعظم قدرا من ابنه وأكثر علما ، بلغ رزقه فى العام نحو ثلاثة آلاف دينار .

ثم تولى الكتابة بعد ابن خيران أبو الفرج الدهلى سنة ٤٣٦ هـ ، كما تذكر المصادر من هؤلاء أبا سعيد العيذى وكان من علماء اللغة والنحو فى عصره .

ومن هؤلاء الذين ذاع صيتهم فى الكتابة والعربية معا ، أبو الحسن طاهر بن بابشاذ ، وقد عهد اليه المستنصر بتصحيح الرسائل الصادرة من ديوان الانشاء ، فكان لا يخرج كتابا أو رسالة من هذا الديوان الا وتعرض

عليه فيراجعها ويصوب ما قد يكون قد وقع فيها من الأخطاء اللغوية أو النحوية .

كانت صناعة الكتابة في العصر الفاطمي من الصنائع التي أقبل عليها الناس ، فقد قيل في ذلك العصر لو أن في الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة ربا لكل صناعة . كما قيل أيضا إن الكتابة قطب الأدب وملك الحكوة وبالكتاب قامت السياسة والرياسة . وقد اهتم الفقهاء والمؤرخون وغيرهم بهذه الصناعة وما يجب على كاتب ديوان الرسائل مراعاته فيما يكتب يقول أحد الفقهاء في ذلك : « وعليهم بالرفق بالرعية فيما يكتبون والتخفيف من التشديدات التي يؤمرون بكتابتها ولا يسوغ الأمر بها ، فان كان لا يقدر على التخفيف فلا أقل من ألا يزيد الطين بلة ويشدد » .

ومما نقله المقرئ عن ابن خيران الكاتب في توقيعه عن الخليفة المستنصر وأثر عنه ، كتابته بخط يمينه : « الفقر من المذاق والحاجة تذل الأعناق وحراسة النعم بادرار الأرزاق فليجروا على رسومهم في الإطلاق ، فما عندكم ينفد وما عند الله باق » . وهكذا كانت بلاغة الكتاب ومراعاتهم لمقتضى الأحوال .

والواقع أن المصادر التاريخية لم تحفل بذكر أسماء الكتاب الذين كانوا أشبه بالكتاب العموميين وغيرهم من الخطاطين المشهورين وأصحاب النقوش والكتابات الأثرية البديعة ، وذلك كما زخرت بأسماء أصحاب صناعة الكتابة في الدواوين الحكومية ، ممن بلغوا المكانة المرموقة في عصر الفاطميين .

وليس هناك شك في أن الخطاطين كان لهم دور هام في تقدم صناعة الكتابة وازدهارها في ذلك العصر ، يشهد بذلك ما رآه ناصر خسرو من الكتابات الذهبية الجميلة على حائط الكعبة ، ومنها باسم الخليفة العزيز بالله ، كما يدل على ذلك ما شاهده من الألواح الأخرى المصنوعة من الفضة ، وعلى كل لوح من هذه الألواح الأربعة كتابة جميلة تحمل اسم السلطان (أي الخليفة) الذي أرسله من سلاطين مصر ، وكان كل من الخلفاء الفاطميين يرسل لوحا في عهده ، وكلها تبرهن على ما بلغه الخطاطون المصريون من المهارة الفائقة وما قاموا به من أعداد مثل هذه اللوحات بأنواع الخطوط الذهبية والفضية بكامل زخرفتها .

ولم تقتصر حرفة الكتابة على كتاب ديوان الأنشاء أو غيرهم من كتاب الدواوين وموظفي الإدارة الفاطمية ، بل كانت هناك جماعات من الكتاب يجلسون في المساجد ، ويأتيهم من الأميين من يريد كتابة عقد أو خطاب

ونحو ذلك ، وقد ذكر ناصر خسرو أن جامع عمرو بن العاص كان لا يكاد يرسم أو يجدد وحتى يستهلك لكثرة تردد الناس فيه حتى قيل ان عدد الموجودين فيه في أى ساعة من ساعات النهار لم يكن يقل عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحرون الصكوك والعقود وغيرها . وليس هناك شك في أن الجوامع الشهيرة في الاسكندرية وتونس ودمياط وغيرها في شمال البلاد ، كما كانت الجوامع ومساجد الصعيد في أسوان وادفو وقفط واسنا وقوص وقنا وغيرها من المدن بأنحاء الصعيد الأوسط على هذا النحو ، فهي فضلا عن تأدية الشعائر الدينية وعقد الحلقات العلمية بها (٧) ، كانت حافلة بهؤلاء الكتاب الذين احترفوا مهنة الكتابة وصاروا يتكسبون منها رزقهم .

ولا شك أن وقوع الأزمة وانتشار الأوبئة والمجاعات ، مما عرف في التاريخ بسنوات الشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر (٨) ، كان له أثره في نشاط حركة الكتاب وصناعتهم ، فقد أقفرت الدواوين ، وأصبح الخليفة لا يجد من حوله من الكتاب أو غيرهم من الخدم ورجال حاشيته ، وتوقفت أعمال الكتابة ومحال الوراقة بالفسطاط وغيرها ، وبات الناس لا يجدون ما يأكلونه حتى قيل ان الناس آكل بعضهم بعضا فضلا عن القطط والكلاب وما أشبه ذلك .

على أية حال لم يمض وقت طويل حتى عاد الاستقرار والرخاء بفضل أمير الجيوش بدر الجمالي الذي عاد الى مصر من بلاد الشام ، وخلص البلاد من دعاة الفتنة وأعمل القتل في قاداتهم ، ونجح في القضاء على الجند الأتراك الثائرين من العرب ومن العبيد السودان في جنوب الصعيد .

(٧) اشتهرت من الأسرات التي انفردت باشتغالها بالعلوم والآداب في صعيد مصر أسرة بني السيد حيث كانت لهم شهرة واسعة ، كما كان بنو النضر من أجل العلماء الذين ذاع صيتهم في العصر الفاطمي فقاموا ببناء جامع الخطبة بمدينة اسنا في عهد الخليفة الظاهر ، وكان من أشهر علمائهم علي بن النضر فقد نبغ في علوم كثيرة ، فلا غرو اذا انتشرت الكتابة وكثر عدد الكتاب في هذه المدن أو تلك الجهات . الإدريسي : اطناسع السعيدة : ص ٣٧ - ٣٨ .

(٨) تمتعت البلاد بفترة من الرخاء والاستقرار بعد مجيء الفاطميين الى مصر عام ٣٥٨هـ ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد حلت المصائب وعم الوباء والقحط في سنة ٤٤٦هـ حيث القطع ماء النيل وأهملت الزراعة وعم الوباء وامتد ذلك ثماني سنوات (٤٤٦ - ٤٥٤هـ) ثم عاد القحط والفلاء وما أعقبه من الوباء والموت في سنة ٤٥٩هـ وظل الحال كذلك الى سنة ٤٦٤هـ ، واقترب ذلك بقيام الفتن والحروب الأهلية بين الجند الأتراك الثائرين بقيادة ناصر الدولة ابن جمدان وبين الجند والسودان التي كانت تشد من أزرهم أم الخليفة المستنصر .

ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٣ ، ص ٢٠ ، المقرئى : اغائة الأمة ، ص ٢٤ .

وهكذا انتظمت الحياة العامة ، وبدأت الحياة الثقافية ومجال الوراقة وغيرها تستعيد نشاطها من جديد في أواخر القرن الخامس الهجري .
ومن الذين اتصلوا بخدمة أمير الجيوش بدل الجمالي وكتب في ديوان مصر شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى المليح (٩) ، وقد ولى استيفاء الديوان ، ولما توفى ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا ديوان الجيش بمصر في أواخر أيام الدولة الفاطمية .

وتولى ديوان الانشاء في عهد الخليفة الأمر ومن بعده من الخلفاء الفاطميين الكاتب الشهير أبو القاسم على بن منجب الصيرفى ، مؤلف كتاب قانون الرسائل . وقد عنى فيه بكل ما يتصل بصناعة الكتابة ، وما ينبغى على الكتاب مراعاته وتلك الصفات الواجب التحلى بها أثناء تأدية مهمتهم بديوان الرسائل . وقد ذكر ابن ميسر أنه أخذ صناعة الترسل والكتابة من ثقة الملك أبى العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ، ثم انتقل الى ديوان الانشاء ، وبه الشريف سناء الملك أبو محمد الحسينى ، ثم تفرد بالديوان بعد ذلك فصار فيه بمفرده . وكانت وفاته في شهر صفر سنة ٥٤٢ هـ في عهد الخليفة الحافظ .

ومن هؤلاء الكتاب الذين حظوا بالمكانة السامية لدى الخلفاء عبد العزيز بن الحسين بن الحباب السعدى التميمى ، وكان يدعى بالجليلى المكين لجلوسه الى الخليفة الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وقد ذكر أنه تولى ديوان الانشاء للفائز مع الكاتب الشهير القاضى الموفق بن الخلال . وكان ابن الخلال من الذين تولوا ديوان الانشاء بقية أيام الخليفة الحافظ الى آخر أيام الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . ويقول السيوطى : « ثم أشرك العاضد مع ابن الخلال فى ديوان الانشاء القاضى جلال الدين محمود الأنصارى » .

وفى وزارة صلاح الدين الأيووبى فى أواخر أيام الفاطميين ، كتب القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى بين يدى ابن الخلال فى ديوان الانشاء (١٠) . فلما ملك صلاح الدين البلاد كتب له القاضى الفاضل ،

(٩) وهو جد أسعد بن مهذب بن زكريا بن قدامة الشهير بابن مماتى مؤلف كتاب قوانين الدواوين المتوفى سنة ٦٠٦ هـ . مقدمة كتاب القوانين ، ص ٩ ، المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

(١٠) هو عبد الرحيم بن على بن الحسن بن أحمد بن الفرج ، كان أبوه يتقلد قضاء مدينة بيسان فلهاذا نسبوا اليها وكانت ولادته بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ وخدم الموفق يوسف بن محمد الخلال صاحب ديوان الانشاء فى أيام الحافظ لدين الله ، وعنه أخذ صناعة الانشاء .

المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ .

ثم أضيفت إليه الوزارة ، ويذكر الادفوى أن أول من كتب الانشاء للملك
الناصر صلاح الدين كان ابراهيم بن محمد الأسواني الملقب بفخر الدولة ،
وكان ابن أخت الرشيد والمهذب بن الزبير الأديب الكاتب • ويقول الادفوى
أن الفاضل عبد الرحيم البيساني بعد أن تولى الوزارة كان اذا بلغه أن ولده
فخر الدولة ببابه وأحمد بن عرام واستأذنا عليه يقول (١١) : « يدخل رضى
الدولة لأجل أبيه يعنى فخر الدولة هذا وابن عرام لأدبه » • مما يدل على
منزلة الكتاب لدى الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ومن حكم البلاد من بعدهم
من الأيوبيين •

وهكذا لعب الكتاب فى مصر أيام الفاطميين دورا هاما ، واليه يعزى
فضل ازدهار فن الكتابة فى ديوان الانشاء أو الرسائل وفى غيره من
الدواوين ، كما أصبحت الكتابة قطب الأدب وربما لكل صناعة فى العصور
الإسلامية المختلفة •

الفصل الثالث

صناعة الأواني والأدوات الخزفية والزجاجية منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمي

- ١ - صناعة الفخار والخزف منذ فجر الاسلام •
- ٢ - صناعة الزجاج في عصر الولاة والولاة المستقلين •
- ٣ - ازدهار صناعة الزجاج والبلور الصخري في العصر الفاطمي •

١ - صناعة الفخار والخزف منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمي

كانت صناعة الفخار من الصناعات المصرية القديمة (١) ، وفي العصر البيزنطي استخدم الصلصال في صناعة الأوعية الفخارية وغيرها على نطاق واسع ، وتخصصت بعض المدن المصرية في انتاج أنواع معينة كالجرار الفخارية التي اشتهرت بها مدينة قنا ، وجرار النبيذ التي كانت تصنع منها كميات هائلة ، تستخدم في الأغراض الدينية وغيرها .

كما انتشرت مصانع الفخار في كل من البهنسا والشيخ عبادة والفيوم وطيبة وغيرها من المدن المصرية (٢) ، فكانوا يصنعون الأزيار والقلل وأوعية الخل والعسل والنبيذ والسمن وغير ذلك من الأدوات التي كانت ذات أهمية في حياة الشعب (٣) ، وقد ترك العرب بحلة الصناعة تدور كما كانت في العصر القبطي ، وظلت البلاد تصنع أدوات وأواني الفخار مثل المسارج Lamps ، والأواني الصغيرة ذات الرسوم الدينية التي أجادها الصانع المصري أجادة قامة ، حيث زينت المسارج بنقوش دينية وخاصة تلك التي

(١) عشر جتري على عشرات من الجرار المصنوعة من الفخار عليها كتابات بالمداد ، وهذه الجرار ترجع صناعتها وهما الى منتصف عهد الأسرة السابعة للبلك مينا • لو كاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٥٨٦ .

(٢) ذكر Johnson أنواعا عديدة من الفخار والخزف التي عثر عليها في كل من البهنسا وطيبة وباشم وهيرمونتش وأرسينوى والأسمولين والفيوم وغيرها من المدن المصرية والتي ترجع صناعتها الى ما بين القرن الخامس والسابع الميلاديين .

(٣) تشير المصادر الى انه تم تاجير عدد ٢٤٠٠ جرة من الجرار الفخارية لمدة عام في الهروديتو (كوم اشقاو) وذلك في سنة ٥٦٥ م .

كانت تصنع بجوار أديرة وكنائس القديس ميناس ، وكانت تعرف بقوارير مينا (٤) .

وكانت صناعة الفخار منتشرة في الوجه القبلي ، وخاصة في الصعيد الأعلى ، ويحدثنا أبو صالح الأرمني عن طين أسوان فينعتة بطين الصناعة ، حيث صنعوا منه الأواني ، وهو نوع من النبيذ يتخذ من الشعير - كما أشرنا من قبل (٥) . وكان بالقرب من مدينة أسوان جبل هناك يعرف بجبل الطفل يعمل منه الفخار . وكان المصريون يصنعون من مادة الطفل الأزيار والقلل المستخدمة في حفظ الماء ، كما كان الفخار المصنوع بالأقصر لا نظير له في ديار مصر ، وقد استخرج من المعدن أو الطين بالقرب من قنا وقوص وأطلق عليه معدن البرام ، صنع منه المصريون بعض الأواني المنزلية المستخدمة في طهو الطعام .

ولا شك أن المادة التي كانت تصنع منها بقية الأواني ومعظم الأوعية لحفظ الخل والعسل والنبيذ كانت هي الطمي المتوفرة في كل مكان بسائر أنحاء البلاد . وقد بلغ من انتشار صناعة الفخار من الطمي أنهم كانوا يصنعون من تلك الأواني والأوعية بمختلف الأشكال والأحجام ، ومجموعات من لعب الأطفال بأشكال العرائس والفرسان والحيوانات كالحصان والجمل وغيرها (٦) .

كما انتشرت في عصر الولاة صناعة الأنايب الفخارية لاستخدامها في توصيل وتوزيع المياه داخل الدور والمنازل في المدن المصرية .

أما صناعة الفخار المدهون أو الخزف Pottery فقد عرفت لدى المصريين القدماء ، لكنها كما يبدو لم تكن واسعة الانتشار في العصر

(٤) ظل الأقباط في العصر السزنتي وبعد دخول العرب مصر يحرسون على اقتناء قوارير مينا كي يملئونها باثاء تبركا بالقديس ماري مينا في مريوط ، وكان ضابطا بالجيش الروماني واعتنق المسيحية وقد استشهد بسبب ذلك سنة ٢٩٦ م ومما يذكر أنه شاعت بين الناس بعد دفنه في مكان بالصحراء غرب الاسكندرية أن من يشرب من عين الماء القريبة من قبره كان يشفى من مرضه ، حتى أنهم أقاموا مصنعا لعمل الأواني الفخارية الصغيرة خصيصا لذلك ، وقد زينت هذه الأواني بصورة القديس ، وتم اكتشاف العديد من تلك الأواني في أكسرلخوس (البهنسا) وأنطويوبوليس ، الشيخ عبادة يرجع معظمها للقرن السادس الميلادي .

(٥) كما عثر في منطقة قل البندارية في الوجه البحري على مجموعة من المياني المبنية من الطوب اللبن وأسقفها مغطاة بالفخار ومجموعة من مصانع الفخار ترجع إلى العصر القبطي والاسلامي . جريدة الأهرام : العدد : ٣٦٠٥٨ - ١٣ ذي الحجة سنة ١٤٠٥ هـ .

(٦) يضم المتحف القبطي مجموعة من لعب أطفال مصنوعة من الفخار ، كما يضم وعاء مصنوع من الفخار عليه كتابة تتضمن دعاء لثلاثة من الرهبان ، وترجع صناعتها إلى القرن السابع وحتى القرن العاشر الميلادي .

البيزنطى ، وتشير المصادر الى أن منطقة مصر الوسطى والفيوم كانت إحدى مراكز صناعة الخزف (٧) ، فقد اشتهرت كل من البهنسا والشيخ عبادة بهذه الصناعة حيث وجد عدد من مصانع الخزف بها (٨) ؛ وليس هناك ما يشير الى توقف تلك المصانع فى فجر الاسلام .

كما تشير الحفائر التى أجريت فى منطقة الفيوم أن حركة صناعة الفخار والخزف لم تتوقف فى صدر الاسلام ، فقد عثر على أوان فخارية وخزفية ، مما يدل على استمرار المصانع فى إنتاجها . وقد استطاع صناع الخزف ، كما يذكر كريستى Christie فى مصر بعد الفتح العربى أن يجربوا طرقا فنية وموضوعات زخرفية جديدة ، وكان مما أنتجه المصرى آنذاك لوحات القاشانى التى كانت تكسى بها الجدران ، تلك اللوحات أو البلاطات المصنوعة من الخزف بالألوان والأشكال المختلفة .

وفى عصر الولاة استمر إنتاج أنواع من الأختام التى كانت تصنع فى مصر البيزنطية ، كما استمر إنتاج نوع من الخزف ذى المهاد الأحمر وعليه زخارف نباتية ، وقد كان هذا النوع معروفا فى مصر فى نهاية العصر الرومانى وظل مستعملا فى فجر الاسلام (٩) .

وقد استطاع الصناع فى مراكز صناعة الخزف فى مصر أن يبتكروا أنواعا جديدة من الخزف كالأطباق والصحون العميقة والمسطحة التى كانت تستخدم فى الطعام (١٠) ولا ريب أن المسلمين قد شجعوا هؤلاء الصناع حيث زاد الاقبال والطلب على الأواني الخزفية الذين وجدوا فيها عوضا عن الأواني الذهبية والفضية والتى كره الاسلام استعمالها (١١) .

(٧) الفرق بين الفخار والخزف ، فالأول ما صنع من الطين أو الطمى فقط دون تزجيج أما الخزف فهو المصنوع من الطين وقد غطى بطبقة من الزجاج بعد دهانه بماء الزجاج الذائب ، فالزجيج glazing أن يدهن الاناء المصنوع من الطين المحروق بعد دهانه بماء الزجاج الذائب ، عبد العزيز مروة : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ص ٥٢ .
(٨) عثر على بقايا عدد من مصانع الخزف ، وتشير أوراق البردى اليونانية الى أنه تم إيجار أحدها مقابل ألفين وأربعمائة دراهمة .

The Oxyhnehus papyri, No, 1655.

(٩) يحتفظ المتحف البريطانى من هذا النوع بصحن مربع عليه كتابة نصها « عمل أبو نصر البصرى بمصر » . زكى محمد حسن : أطلس الفنون ، ص ٤٠٣ .

(١٠) ومن المرجح أن هذه الأنواع من الأطباق الخزفية وغيرها كانت تصنع فى مدينة القسطنطينية فى عصر الولاة Johnson : Economic Studies, p. 114.

(١١) وردت أحاديث نبوية شريفة منها قول النبى صلى الله عليه وسلم : (لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها فانها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة » ويقول أيضا صلى الله عليه وسلم : « الذى يشرب فى اناء الفضة انما يجرجر فى بطنه من نار جهنم » صحيح البخارى : كتاب الأطعمة ، كتاب الاشربة .

كما حاول الصناع تقليد الخزف الصيني في مصر ، خاصة في العصر العباسي نتيجة العلاقات التجارية بين مصر والصين ، حيث وجدت الأواني الخزفية الصينية سوقا رائجة لها في البلاد ، وكانت تلك الأواني من الغضائر والطرف البديعة ، مما كان لها في نفوس المسلمين مكانة سامية .

ويشير بتلر الى أن صناعة الخزف الاسلامي في مصر في عصر الولاة لم تكن أقل من مثيلتها في منطقة العراق ، وأن الخزف المصري المحلي والمتطور عن العصور السابقة ، قد استمر انتاجه بنفس الطرق والمهارات السابقة التقليدية والموروثة عن تلك العصور (١٢) . والواقع أنه ليس هناك ما يحول دون قيام المصريين بصناعة مثل هذه الغضائر الصينية ، أو ما تم صنعه على يد الفخاريين في مدينة سامرا نفسها بالعراق ، وأن يحذو المصريون حذوهم في هذا التقليد في العصر العباسي أو في أواخر عصر الولاة وفي بداية عهد الطولونيين .

ولا غرابة في ذلك فقد مهر المصريون في صناعة أنواع الخزف بأساليب متعددة وعرفوا الوقت المناسب لعمل أواني الخزف من السنة ، وكما يذكر المقرئى فإنه اختص شهر أمشير من الشهور القبطية بصناعة أواني الماء ، فإن ما عمل فيه من هذه الأواني الخزفية يبرد الماء في الصيف أكثر من تبريد ما يعمل في غيره من الشهور . هذا ولم تقتصر مراكز صناعة الخزف على الفسطاط ، بل كانت أسوان واسنا واخميم وأسيوط والأشمونين والفيوم وغيرها من المدن المصرية . وقد صنع الخزافون في هذه المراكز الصناعية من الأنواع المختلفة لتلبية احتياجات الناس مثل الفناجين والأقداح والكؤوس والصحون والسلاطين والأكواب والقوارير والأباريق والأزيار والمسارج .

كما سادت صناعة الفخار في ذلك العصر (١٣) ، وقد وردت لفظة الجرار وهو صانع الجرار أو القدور من الخزف وذلك في عقد بيع من ادفو على أوراق البردي مؤرخ بآخر صفر سنة ٢٣٣ هـ ، واسم البائع أو الزوج فيه « يزيد بن قاسم الجرار » كما ورد في عقد آخر يرجع تاريخه الى شهر ذي القعدة سنة ٢٣٩ هـ واسم البائع فيه يزيد الجرار من جهة

(١٢) يرى بتلر أن صناعة الخزف في مصر ترجع الى العصور القديمة ، وأن الصناعة التي ظهرت في المغرب والأندلس في العصر الاسلامي ترجع في أصلها الى الصناعة المصرية . فتح العرب لمصر ، ص ٩٦ .

(١٣) وفي خطاب بشيخ سفيينة من جهة ادفو بالصعيد الأعلى تضمن طلب ارسال عدد ١١٧ جرة من الجرار الفخارية ، وكانت الجرة تسع ما بين ١٣٦ الى ١٤٠ رطلا من العسل . جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٥ ، ص ١٣٥ - ١٣٧ .

ادفو بالقرب من أسوان ومما يدل على أن منطقة الصعيد الأعلى كانت إحدى المراكز الهامة لصناعة الجرار الفخارية والقصور الخزفية .

وفي عهد الطولونيين تطورت صناعة الخزف في مصر ، وأنتج الصناع نوعاً جديداً من الخزف عرف بالخزف ذو البريق المعدني Lustre-painted pottery ومن المرجح أن المصريين في مصر قد

اكتسبوا فن صناعة هذا النوع الجديد من هؤلاء الصناع الذين قدموا في صحبة ابن طولون إلى مصر (١٤) ، ومن المعروف أن مؤسس الدولة الطولونية كان متأثراً إلى حد بعيد بما كانت تجرى صناعته في سامرا بالعراق ، والتي عاش فيها شطراً كبيراً من حياته ، وكانت سامرا إحدى المراكز الهامة لترويج وصناعة المنتجات والغضائر الصينية .

ويختلف الخزف ذو البريق المعدني عن الخزف العادي الذي كان منتشراً في عصر الولاة في طريقة صناعته ، حيث كان يبدأ الخزاف بتشكيل الاناء من الطين العادي ، ثم يغطي هذا الطين بطبقة رقيقة من البطانة Slip ، ثم يسوى الاناء في الفرن ، ويخرج بعد تسويته لكي يتم دهانه بالزجاج الأبيض المعتم ، ثم يدخل الفرن مرة ثانية لكي يثبت هذا الدهان الزجاجي ثم يخرج الصانع لكي يزخرفه بأن يرسم عليه مزيج مكون من مواد مختلفة قوامها الكبريت وأكسيد الفضة أو أكسيد النحاس الأحمر وبرادة الحديد ، وتذاب هذه المواد في الخل . وكان الخزافون يستخدمون هذه المواد في رسم عناصره الزخرفية المختلفة ، ثم يدخل الخزاف الاناء بعد تجميده للمرة الثالثة لكي يثبت الزخارف عليها ، وينبغي أن يراعى أن يكون الفرن ذا نار هادئة (١٥) ، بحيث تكسبه النار في النهاية بريقاً معدنياً يختلف لونه بين الأحمر النحاسي ، والأصفر الضارب للخضرة ، وكانت تنبعث من هذا البريق أحياناً ألوان قوس قزح الشهيرة .

وتشير المصادر إلى الخزف ذو البريق المعدني الذي صنع بهذه الطريقة في العصر الطولوني في مراكز صناعة الخزف المصرية ، من أنها لم تكن تختلف كثيراً عن الخزف ذو البريق المعدني الذي عثر عليه في سامرا

(١٤) ليس هناك اتفاق بين مؤرخي الحضارة في تعيين الاقليم الذي نشأت فيه صناعة الخزف ذو البريق المعدني ، ففريق يرى أنه نشأ في مصر ، وفريق آخر يجذب فكرة نشأته في بلاد المشرق أو في بلاد فارس على الوجه الخصوص .

كريستي : تراث الاسلام ، ج ٢ ، ص ٤٥ .

(١٥) يشير اخوان الصفا إلى استخدام النار والأفران ، حيث كان الجرارون والقصوريون والغضارون ، ومن يطبخ الآجر يستخدمونها في صناعة الفخار والخزف والغضار المذهب كما أطلق عليه العرب .

رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

وفى الرى ومدينة الزهراء • يؤيد ذلك ما عثر عليه من آلاف القطع الصغيرة والكبيرة التى كشفت عنها حفائر الفسطاط وقد يكون من بينها قطع مستوردة من العراق وقطع أخرى قد صنعت فى مصر تقليدا للغضار المذهب العراقى Golden Lustre Pottery .

وقد امتاز الغضار المذهب المصرى فى الواقع عن نظيره العراقى ببعض الخصائص الناتجة عن طبيعة التربة المصرية • فالطينة تميل فى لونها الى الاحمرار ، وكذلك من الناحية الزخرفية فمنها العناصر الهندسية والمستمدة من صور الحياة العامة بما يكشف عن قدرة الصناع المصريين ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة من الأواني المصنوعة من الخزف ذى البريق المعدنى زخارفها مرسومة فوق الطلاء الخارجى بأكاسيد معدنية تعطى بريقا معدنيا خاصا ، وكانت هذه الأنواع من النماذج التى أثبتت مهارة الصناع المصريين وقدرتهم على ابتكار أساليب جديدة تفوقوا بها على نوع الخزف الصينى بعد فترة قصيرة •

ومن أسماء الصناع المصريين التى أمكن قراءتها على قطعة من الغضار المذهب اسم ابن دهان أو ابن خلدان ، وربما كان هو الخزاف الوحيد فى عهد الطولونيين الذى عمل على إنتاج هذا النوع من الخزف ذى البريق المعدنى •

وقد أصبحت الفسطاط من أهم مراكز صناعة الخزف فى العصر الطولونى ، كذلك ظلت الفيوم تنتج أنواعا من الخزف المسمى بخزف الفيوم ، واشتهرت أيضا مدينة البهنسا بمصانعها الخزفية ، كما حافظت أسيوط على شهرتها فى هذه الصناعة ، وكان أحد الصناع منها هو المعلم أحمد الأسيوطى ، يشهد بذلك تلك القطعة من الخزف التى يحتفظ بها من القطع العديدة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة •

وهكذا ازدهرت صناعة الفخار والخزف بأنواعه المختلفة وشاع استخدام تلك الأواني والقصور والقصاص المصنوعة منها ، ويشير المقرئى الى تلك الصدقات التى كان يقوم ابن طولون بتوزيعها على الفقراء من عامة الشعب ، حيث كان يذبح فى مطابخه من البقر والكباش وتفرق للناس فى القصور الفخار والقصاص الخزفية • وكما استمرت صناعة المسارج والقلل والأواني المختلفة من الفخار والخزف ، فانه كشفت حفائر الفسطاط عن مجموعة من التماثيل الصغيرة ولعب الأطفال وبعضها على هيئة كباش أو أسود ولا غرو فقد صنعت منها فى ذلك العهد تماثيل من كل نوع من أنواع المواد ، منها ما يصنع من الفخار أو الخزف ، ومنها ما يصنع من الذهب والفضة أو حتى من الكافور والعنبر •

ويظهر تقدم صناعة أنواع الخزف والغضائر فى عهد الاخشيديين

ويذكر ابن دقماق من بين المواضع زقاق الغضارين بالفسطاط ، ولا شك أنه كان يضم العديد من حوانيت صانعي الأواني الخزفية وبائعيه في ذلك الوقت .

وتشير رواية ابن سعيد كما ينقلها عن ابن زولاق الى استخدام الغضائر والطياير وغيرها من أنواع الخزف ذي البريق المعدني في بلاط الاخشيد ، فقد حدث يوما أن كانت أم الاخشيد تشرف على المائدة ، ولم تعجب بالأواني والطياير المصنوعة من الغضار لقدمها ، فأمرت بشراء مائدة حسنة ومجموعة من الغضائر والطياير الجدد ، والتي فرح الاخشيد بها عند مشاهدته اياها .

يضم متحف الفن الاسلامي العديد من قطع الخزف التي ترجع صناعتها الى عهد الاخشيديين ، منها ذات الزخارف المرسومة على هيئة طيور على حافتي شجرة الحياة ، كما ورد اسم أحد الصنائع المهرة ويدعى هارون ابن قاسم الفخار على شاهد جنازى من حجر رملي يرجع الى سنة ٣٢٤ هـ محفوظ بالمتحف ، لعله كان أحد الفخارنيين أو الغضارين الذين كانوا يعملون بزقاق الغضارين بالعاصمة الفسطاط في ذلك الوقت . وفي الواقع فإن ما تم العثور عليه من منتجات العهد الاخشيدى من الخزف بأنواعه المختلفة لا يكفي للحكم على نشاط الخزافين ، ويمكن القول بأن عهد الطولونيين والاخشيديين لم يطرأ فيه على صناعة الفخار والخزف من جديد سوى ما شاع ذكره وأقبل عليه الناس في مصر وما عرف بالخزف ذي البريق المعدني .

كما عرفت مصر في ذلك العهد صناعة الأواني الفخارية السوداء ، لاستخدامها في نقل الزئبق وفي تحضير الأدوية ، وكذلك قوارير النفط التي شاع استعمالها خاصة في أوقات الحرب . وقد تم العثور على مجموعات كبيرة من الأواني الخزفية المتعددة الأشكال ، والأواني الفخارية المستعملة بين مداميك البناء كما عثر في مدن الفسطاط والاسكندرية والفيوم على بعض الأواني الفخارية السوداء التي أطلق عليها الفقاعات ، يبدو أنها كانت تستخدم في حفظ الفقاع أو في شربه كما هو الحال بالنسبة لتلك الأواني التي كانت تصنع من طين أسوان الذي سبق ذكره .

ويعتبر العصر الفاطمي هو العصر الذهبي لصناعة الخزف وخاصة هذا النوع المعروف بذي البريق المعدني . فقد عشق الفاطميون الآداب والفنون ، وشجعوا الصناع في كل ميدان لابتكار أدوات الترف والنعيم ، كما بلغ بهم الأمر أن كانوا يستدعون من بغداد وغيرها من الحواضر الاسلامية

الأخرى هؤلاء الحرفيين للنهوض بصناعة الخزف ذى البريق المعدنى وغيرها
من الصناعات الأخرى .

وتشير المصادر الى ازدهار صناعة الخزف بأنواعه المختلفة فى كل
من الفسطاط ثم القاهرة والاسكندرية والفيوم ، وقد كانت من أهم مراكز
صناعة الخزف ذى البريق المعدنى فى مصر الفاطمية ، ومما يدل على ذلك
ما أمكن العثور عليه بظاهر الفسطاط من القطع الخزفية ، وهى تختلف
صناعتها عما كانت عليه من قبل العصر الفاطمى من حيث رقة جدارها
وتغطيتها بطلاء أبيض يرسم عليه ببريق معدنى وضاء باللون الذهبى أو
البنى (١٦) ، كما عثر على مجموعة من الخزف فى مدينة الفسطاط من نوع
الخزف المحروز تحت الدهان ، وتشبه كثيرا فى زخرفته موضوعات الخزف
ذى البريق المعدنى .

ومن هؤلاء الذين ذاع صيتهم فى صناعة الخزف مسلم وسعد فقد
كانا من أمهر صنّاع الخزف ذى البريق المعدنى فى العصر الفاطمى ، وقد
كان مسلم بن الدهان من أعلام الخزافين وكان له صبيان وتلاميذ يتعلمون
منه أصول الصنعة ، ومن المرجح أن مصنعه كان بمدينة الفسطاط ، ويميل
أحد الباحثين الى أن هذا الخزاف الشهير مسلم بن الدهان كان يعمل فى
مصنعه فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، بينما عم نشاط سعد فى عهد
الخليفة المستنصر (١٧) .

ولعل من أشهر الأطباق التى شاع ذكرها طبق غين مولى الحاكم بأمر
الله ، وتنسب صناعة هذا الطبق الى على البيطار الخزاف ، حيث جاء مطابقا
فى أسلوبه الزخرفى . كذلك اشتهر من تلاميذ مسلم بن الدهان كل من
ابراهيم الخزاف وابنه هيثم بن ابراهيم ، حيث كان يعد ابن الدهان صاحب
مدرسة كبيرة من الخزافين المصريين فى القرن الخامس الهجرى .

وقد وردت من توقيعات هؤلاء الخزافين على قطع الخزف ما نعرف منها
أسماءهم نذكر منهم الطيب ، والحسين بن نظيف الأمري ، وجعفر

(١٦) تميزت زخارف الخزف الفاطمى بأنها كانت مزودة بالموضوعات الآدمية ورسوم
الطيور أو الحيوانات على أرضية من الزخارف النباتية .

ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢١٧ .

(١٧) لا يتفق كارل جوهان لام أستاذ الفنون الاسلامية بمعهد الآثار مع على بهجت
الذى كان يعمل مديرا لدار الآثار العربية فى تحديد الزمن الذى عاش كل من مسلم وسعد
فيه ، وفى أن سعد عاش فى عصر سابق لعصر زميله مسلم بن الدهان ، الخزف الفاطمى ،
بحث نشر مجلة المقتطف ، ص ٥٧١ ، ترجمة عبد الرحمن زكي .

المصرى (١٨) . كذلك نعرف بعض الأسماء لصناع الخزف فى العصر الفاطمى الغيبى والمصرى والشامى وغزال الهرمى وأبى العز ، وكانت شهرتهم فى التصوير على الخزف وغيره من طلاء الجدران فى ذلك العصر .

ولا شك أن أوجه الخلاف بين صناعة مسلم بن الدهان وتلاميذه وبين ما كان ينتجه سعد فى مصنعه ومعه تلاميذه أيضا ، إنما كان يتركز حول زخرفة الأطباق والأواني الخزفية ، حيث جاءت زخارف الخزاف الشهير سعد خالية من زخرفة ظاهر الأطباق ، بما يشبه تلك الزخارف والرسومات المختلفة التى تميزت بها منتجات أبى القاسم مسلم بن الدهان . ومن أهم القطع الجميلة التى كانت من صناعة الفنان سعد تلك السلطانية المحلاة برسم شخص يحمل فى يده مشكاة أو مبخرة والمحفوظة حاليا بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن .

ولا ريب أن تنوع انتاج الخزف والزخارف إنما يدل على ازدهار صناعة الخزف ذى البريق المعدنى وغيره ، كما كان تشجيع الخلفاء الفاطميين ورجال الدولة لأصحاب مصانع الخزف من عوامل تقديم هذه الصناعة وسائر الصناعات والفنون الأخرى . فقد كانت الأطباق الخزفية تستخدم بكثرة على أسمطة الفاطميين ، حيث كان يصل عددها نحو خمسمائة على المائدة الواحدة من تلك الصحون المترعة بالألوان الفاتكة من الحلوى وكان يسع طبق الواحد منها سبع دجاجات بالإضافة الى أنواع أخرى من الأطعمة والحلوى ، وكان من رسوم الدولة الفاطمية توزيع الحلوى فى الجوامات المصنوعة من الخزف وأيضا المتارد وغيرها .

ويذكر القلقشندى أن خزانة الشراب فى القصر الفاطمى كانت تحتوى على مجموعة كبيرة من الأواني والأدوات النفيسة ، منها الأواني والزبادى والصحون والبرانى والأزيار وكلها مصنوعة من الخزف ذى البريق المعدنى وغيره من أنواع الفخار الحسن الصنعة .

ومما يدل على ازدهار صناعة الخزف فى عهد الخليفة المستنصر ما أشار اليه ناصر خسرو فى وصفه للخزف المصنوع بالفسطاط ، حيث قال : « ان المصريين كانوا يصنعون بمصر الفخار من كل نوع وهو لطيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع

(١٨) يحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة من التحف الخزفية منها سلطانية من الخزف ذى البريق المعدنى وجزء من اناء مكتوب عليه من عمل الطبيب ، وسلطانية أخرى من الحسين بن نظيف الآمرى .

حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، ج ٢ ، ص ٧٥٩ .

منه الكثوس والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونوها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف في كل جهة تكون بها . وهكذا كان الصناع المصريون يصنعون من أنواع الفناجين والقدور البراني والصحون وغيرها ويقومون بزخرفتها بألوان تشبه ألوان القماش المسمى بالبوقلمون .
ومما يدل على شيوع استخدام الأواني الخزفية وازدهار صناعتها أيضا في العصر الفاطمي ما ذكره ناصر خسرو عن استخدام التجار والبقالين لهذه الأواني الخزفية فيما يستخدمه التجار من الورق في العصر الحاضر ، فقد كانوا يضعون فيها ما يبيعونه ويأخذها المشتري بالمجان .

كما يشير الشيزري الى استخدام مدقوق الخزف المصنوع بالفسطاط وغيرها من مراكز الصناعة ، في تنظيف مقالي النحاس وغيرها من أواني النحاس المستعملة في اعداد وتجهيز أنواع الحلوى ، وقد شاع استعمال الخزف كذلك في صنع بلاطات ونجوم لكسوة الجدران ، كما صنعت القوارير والمسارج والمباخر ومساند الأقلام فضلا عن التماثيل الصغيرة .
وكان يؤخذ على الخزافين ألا يبيعوا قدور الخزف أو الأواني المغشوشة بحيث لا تخفى أعمال الدهان على جدارها العيوب أو الثقوب والكسور التي بها أو أن تعمل من الجبس المعجون بالشحم وبياض البيض أو الخزف الأحمر المسحوق ، حتى يمنعهم العريف أو أمين الصنعة من ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن صناعة الفخار غير المدهون كانت واسعة الانتشار ، وقد شهد العصر الفاطمي تطورا ملحوظا في أشكال الأواني وانتاج القدور ذات الأحجام المتوسطة والجرار الكبيرة ، كما انتشرت صناعة الاختام الفخارية لزخرفة الكعك وغير ذلك من الأغراض .

كما تعددت أشكال المسارج المصنوعة من الفخار ، وتنوعت زخارفها في العصر الفاطمي ، حيث نجح الخزاف أو الفخاراني في عمل جدارين لها الخارجي منهما ذات زخارف هندسية والداخلي منهما فهو لحفظ الزيت .

ولم تكن الفسطاط فحسب من مراكز صناعة القلل ، بل كانت المراكب النيلية ترد محملة بأنواع الفخار من القلل والجرار من جهات اسنا والأقصر وقنا من مدن الصعيد ، حيث كان لكل مركز أو مدينة طراز خاص يناسب ميول الصناع ومهارتهم الفنية .

وكانت الاسكندرية تؤلف مركزا هاما لصناعة التحف الفخارية الصغيرة المتخذة للزينة كأنواع الكثوس ذات الرسوم البارزة وكانت تغطي

باللون الأصفر ، أما الجزء الداخلى فكان لونه يميل الى الاصفرار (١٩) .
وهكذا أثبت الصانع المصرى حرصه على أن يضيف على كل ما أخرجته يده
جمالا زخرفيا يبعث على البهجة والسرور . كما يشهد له بحسن الذوق
والمهارة .

وتشير المصادر الى استمرار تقدم صناعة الفخار غير المدهون وأنواع
الخزف المختلفة حتى أواخر العصر الفاطمى ، فقد ذكر ابن ميسر أن الوزير
الأفضل بعد مقتله عام ٥١٥ هـ ، خلف من أنواع الأباريق والقدور
والزبادى ، ومن برانى الصينى ما لا يعد ولا يحصى ، كما تدل مجموعة
القدور والصحون من الخزف ذى البريق المعدنى المحفوظة بمتحف الفن
الاسلامى على ازدهار هذه الصناعة ، وكذلك المجموعة الأخرى التى يحتفظ
بها المتحف القبطى المشتملة على أجزاء من رقاب وبرابغ للقلل التى تم
زخرفتها بالأشكال النباتية والهندسية وبالكتابات العربية الجميلة (٢٠) .

(١٩) أسفرت الحفائر الأثرية فى كوم الدكة بالاسكندرية عام ١٩٤٨ عن كشف قطع
هائلة من الخزف الفاطمى ، والخزف الشائع فى مصر فى عصر الممالك .

السيد عبد العزيز شالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٥٢٩ - ٥٣٠ .

(٢٠) ومن الكتابات العربية التى أبدعها الصانع مثل « من خف عف » وترجع صناعتها
الى إواخر العصر الفاطمى .

٢ - صناعة الزجاج فى عصر الولاة والولاة المستقلين

عرف المصريون القدماء صناعة الزجاج (١) ، كما ذاعت شهرة الاسكندرية فى العصر الرومانى والبيزنطى بصادراتها من الورق والزجاج والمنسوجات (٢) ولم يقتصر الحاكم الرومانى على حمل الرمال الجيدة بالسفن البحرية وارسالها الى روما بل حمل معها صناعات الزجاج من أهل الاسكندرية لشهرتهم فى ذلك الوقت المبكر ومهاراتهم الفائقة فى صناعة أنواع الأطباق والسلالين والقوارير وزجاجات العطور ، وفى عمل الأكواب الزجاجية المطلية بالمينا .

وكانت الاسكندرية قبل الفتح العربى تنتج كميات كبيرة من الزجاج تكفى لحاجة الاستهلاك المحلى ، ولسد حاجة الأسواق الخارجية .

وقد عثر فى جهات الفيوم وهيرموبوليس (الأشمونين) وأكسرينخوس (البهنسا) فى منطقة مصر الوسطى ، وفى أرمنت بالصعيد الأعلى على

(١) بدأ إنتاج الزجاج على نطاق واسع فى مصر القديمة فى أوائل الأسرة الثامنة عشر ، وكان من أنواعه الخرز والمائم الصغيرة والأواني من الزجاج الأخضر . وقد عثر على جففات صغيرة لصهر الزجاج بنواحي تل العمارنة بالقرب من المنيا ، وأشار فلندرز بترى الى أنها كانت تستخدم فى أعمال الزجاج وفى زخرفة الاناء الزجاجى .

لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٩٧ ، ٣٠٦ - ٣١٤ .

(٢) كان الزجاج من بين السلع التى فرضها اغسطس الامبراطور الرومانى على المصريين بعد احتلال البلاد عام ٣١ ق م ، حيث كانت ترسل عينا ضمن الجزية السنوية . بلير : فتح العرب لمصر ، ص ٩٥ ،

Johnson : Byzantine Egypt, Economic Studies, p. 100.

بعض قطع الزجاج ، مما يدل على الأرجح أنها كانت تضم مصانع للزجاج منذ العصر البيزنطي (٣) . وليس من شك أن تأثيرات الصناع الفنية - كما تشير النماذج العديدة التي عثر عليها - على زملائهم في العالم الخارجى كانت شاملة ، من حيث طرق الصناعة وأشكال المنتجات الزجاجية منذ القرنين الثالث والرابع الميلاديين .

ومما لا شك فيه أن وفرة المواد الخام اللازمة لصناعة أنواع الزجاج كان احدى الأسباب الهامة لتقدم هذه الصناعة ، فقد كان النطرون يوجد في وادى النطرون بالقرب من الاسكندرية ، وفي جهات البحيرة في شمال البلاد ، كما توفرت في نواحي الكاب بالوجه القبلى ، أما الرمال الصالحة فقد عرف المصريون أماكنها المنتشرة على شواطئ البحر المتوسط وفي سيناء وغيرها منذ العصور القديمة (٤) . وفي صحراء النطرون كما ذكر استرابو كان صناع الزجاج المصريون لهم أسرار يحفظونها ولاسيما في معامل (ديوسبوليس) وانهم كانوا يقلدون الجواهر في صناعتهم ويعملون قماقم المر لحفظ الدهون . ولعل هذه المعامل المشار اليها هي التي انفرد المقریزی يذكرها بعد ذلك من المؤرخين المسلمين .

أما استخراج النطرون من البركة التي عرفت باسمه بعد الفتح العربى وكما أشار القلقشندى فانه كان مباحا لعامة الشعب من هذه الجهة التي كانت تقع الى القرب من مديرية البحيرة ، ومن جهة الخطارة من أعمال مديرية الشرقية . ولا شك أن هؤلاء المصريين الذين كانوا يعملون على استخراجها ، كانوا يذهبون به الى معامل الزجاج بوادى النطرون أو بمسابك الفسطاط بعد انشائها في عصر الولاة .

(٣) قامت بعثة الحفائر التابعة لجامعة ميتشجان بالبحث في جهات كارنيس Caranis وفي أرمنت ، وقد عثرت على قطع زجاجية عديدة ترجع صناعتها الى القرن الرابع الميلادى ، وكما أجريت حفائر أخرى في هيرموبوليس (الأشمونيين) وأرسينوى بالقرب من الفيوم وغيرها من الجهات فضلا عما عثر عليه بحفائر مدينة الاسكندرية ، وما أشارت اليه الوثائق التي عثر عليها في تلك الجهات .

Johnson : Economic Studies, p. 112.

(٤) كانت وفرة المواد الخام مثل رمل الكوارتز وكربونات الكالسيوم والنطرون بالقرب من مراكز صناعة الزجاج ، وكانت توجد كميات وافرة من الرمل الصالح للصناعة على السواحل المصرية . ومن المعروف أن الزجاج الخام يتكون بتسخين مواد الرمل والجير والصودا عند درجة حرارة معينة حتى تتحد سيليكات الصوديوم والكالسيوم ، كما كان الرصاص يحل محل الكالسيوم في صناعة أنواع خاصة من الزجاج ، هولمز : قصة الكيمياء ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٤١٧ .

ومن الطبيعي أن يصبح المركز الرئيسى لصناعة الزجاج فى العاصمة
الفسطاط خاضة بعد أن تم تخطيطها وازدادت أعداد السكان بها وتبحرت
فى العمران على حد قول ابن خلدون (٥) . ويبدو من رواية ابن عبد الحكم
التي ذكرها فى معرض حديثه عن خطط الفسطاط من أنه كان يوجد مصانع
للزجاج قائمة بالمواضع التي اختطت بها القبائل العربية فهو يقول : « أن
بلى اختطت خلف خارجة بن حذافه ثم مضوا بخطتهم من دار عمرو بن يزيد
الى دار مسيلة ودار واضح ، حتى جاوزوا دار مجاهد بن جبير الى درب
الزجاج » . وهكذا يمكن القول بوجود مواضع لصناعة الزجاج أثناء سكنى
العرب واستقرارهم بها .

أما عن اشارة ابن سعيد بوجود مسابك للزجاج ، بمدينة الفسطاط
فلا غرابة فى ذلك (٦) ، حيث أمكن العثور على قطع من الزجاج المزخرف
بالبريق المعدنى فقد كشفت حفائر الفسطاط عن كأس جميلة تزينها زخارف
نباتية متنوعة وعلى حافتها من الخارج كتابة بالخط الكوفى نصها : « الأمير
عبد الصمد بن على » وكان واليا على مصر سنة ١٥٥ هـ ، ولعله الأمير
موسى بن على كما ذكر الكندى ، فقد تولى الامارة على مصر من قبل الخليفة
العباسى أبو جعفر المنصور فى هذا العام المشار اليه .

ويؤيد أيضا مدى تقدم صناعة الزجاج المصرى فى العصر العباسى
ما يحتفظ به متحف الفن الاسلامى من قطع الزجاج ذى البريق المعدنى ،
وعلى قاع اناء صغير مزخرف من تلك القطع كتابة كوفية نصها « مما عمل
فى طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣ هـ » والواقع أن هذه اشارة هامة تدل
على وجود أكثر من مصنع للزجاج فى القرن الثانى الهجرى بالفسطاط
وغيرها من المدن المصرية ، وربما كان يقع مصنع الزجاج المعروف بطراز
الفيلة بالقرب من بركة الحبش بجنوب الفسطاط ، وذلك وفقا لما أوضحه

(٥) يذكر ابن خلدون فى مقدمته أسباب ازدياد الطلب على الحرفيين والصناع وأرباب
المهن فى مائر الصناعات ، حيث يقبل الناس على البناء والعمارة وما تتطلبه من المواد الخام
والسبلع المصنوعة وأعمال النجارة والحداة ومن الأدوات والأواني والألواح الزجاجية وغيرها .
المقدمة ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٦) لم يحدد ابن ديمق شيئا عن تاريخ انشاء أو قيام تلك المسابك بمدينة الفسطاط
ولم نثر على شيء من المصادر التي نقل عنها ابن سعيد روايته ، وحتى ابن سعيد فى كتابه
المغرب فى حلى المغرب لم يذكر ذلك صراحة كما نقل عنه صاحب الانتصار ، ومن المرجح أن
العرب بعد استقرارهم بالعاصمة الفسطاط واقبالهم على اقتناء أدوات الترف والكماليات
وجدوا أنفسهم يعملون على قيام مثل هذه المصانع الخاصة بسبك الزجاج ، وصناعة الأواني
الزجاجية وغيرها ، دون التأثير على المصانع القائمة بالاسكندرية أثناء الفتح الاسلامى للبلاد ،
ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١١ ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .

المقریزی فی بناء جامع الفیلة المثل على بركة الحبش ، وقيل ان السبب فی تسميتها كذلك انما يرجع الى وجود تسع قباب بهذا الموضع ، اذا رآها الانسان من بعيد شبيها بمدرعین على فيلة كالتی كانت تسير فی المواكب أيام الأعياد وعليها السرير وفوقها المدرعون أيام الخلفاء العباسيين .

ومن خير الشواهد على تقدم صناعة الزجاج فی مصر منذ فجر الاسلام ما أنتجته تلك المصانع والمعامل من الصنّج والأوزان الزجاجية اذ كان ضرب السكة وتحقيق أوزانها عن طريق الصنّج الزجاجية معروفا منذ العصر البيزنطي (٧) ، وكان لابد عند اصلاح الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٥ هـ) ، للسكة من ضرورة التحقق من أوزان الدينار والدرهم الشرعية ، ولم يكن يتحقق ذلك الا عن طريق تلك الصنّج المصنوعة من الزجاج (٨) .

ومن أقدم الصنّج الزجاجية التي تحمل اسم الولاة ، التي تم العثور عليها اسم الوالي على مصر قره بن شريك (٩٠ - ٩٦ هـ) وليس بين أيدينا من دليل واضح يدلنا على أنها صنعت بمعامل الزجاج بدصر أم أنه تم صنعها بمصانع الاسكندرية . وهناك مجموعة من الصنّج هذه تكشف عن أسماء بعض هؤلاء الزجاجيين وأسماء الخلفاء الأمويين والعباسيين (٩) . كذلك تحتفظ المتاحف بمجموعة من صنّج أوزان العملات كنصف الدينار وثلثه وعلى دينار باسم الأمير يزيد بن حاتم (١٠) ، وعبارة صنعة «كفيل» وغير ذلك من الأسماء على هذه الأوزان الزجاجية التي تدل على ازدهار صناعتها في عصر الولاة .

(٧) كان الزجاج مستعملا في صناعة الأوزان الزجاجية وتلك الصنّج ابان العصر الروماني . زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٧٩ .

(٨) كانت تصنع على شكل اقراص زجاجية تتخذ عيارات للوزن ، كما كان يطبع بها على الأواني لبيان أحجامها المختلفة وكثيرا ما كانت تحمل أسماء الولاة أو الحكام المسلمين ، زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٨٢ ، عبد الرحمن فهمي ، صنّج السكة في فجر الاسلام ، ص ١٣ .

(٩) وصلت الينا بعض القطع التي تحمل اسم عبد الملك بن يزيد ، وأخرى تحمل توقيع نصه « صنعة كميل على صنّجة زجاجية بدبنار باسم الخليفة أبي جعفر المنصور » .

(١٠) الأمير يزيد بن حاتم تولى إمارة مصر من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور سنة ١٤٤ هـ وهو أول من قام بضم بركة الى أعمال مصر وأمر عليها عبد السلام بن عبد الله ابن هبيرة وذلك في سنة ١٤٨ هـ . الولاة والقضاة ، ص ١١١ - ١١٩ ، رقم السجل : ٦٩١٦ .

وتشير المصادر الى اقبال المسلمين في مصر وفي غيرها من البلدان المفتوحة على استعمال الاواني الزجاجية والقوارير لحفظ العطور وغيرها أكثر ممن سبقهم (١١) ، والى تفضيل اواني الشرب المصنوعة من الزجاج على غيرها لما لها من مميزات وفوائد جمة، فهي لا تصدأ ولا تندى ولا يتخللها وسخ كما يقول الغزولى ، وان اتسخت فالماء وحده لها جلاء ، ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ، والشراب فيها أحسن منها فى كل جوهر .

ولا شك أن الاسكندرية ظلت فى عصر الولاة على حالها فى انتاجها للزجاج ، حيث كان الصناع يشكلون الزجاج بنفخه فى قالبين الواحد بعد الآخر (١٢) وكانت القوالب أحيانا عبارة عن قطعتين من الفخار أو المعدن أو من الخشب ، وكانت تصنع من الزجاج الاواني والقارورات والاختام . وتشير رواية الكندى الى أنه حينما توفى عقبة بن أبى سفيان وكان واليا على مصر سنة ٤٤ هـ تم دفنه بمنية الزجاج بالاسكندرية (١٣) ، مما يدل على أن هذا الموضع كان يخص صناعة الزجاج فى العصر الاسلامى المبكر (١٤) ، كما أشار المقرئ الى معمل الزجاج بوادى النطرون بالقرب من الاسكندرية ، وتبدو مهارة المصريين فى استغلال المواد الخام اللازمة لصناعة الزجاج التى كانت متوفرة فى هذه المنطقة .

وكانت مصانع الاسكندرية تنتج أنواعا من الزجاج ، وقد نقل الصناع الذين وفدوا من العراق طريقة صنع الزجاج على أيدي المصريين ، حيث كشفت حفائر مدينة سامرا عن وجود نماذج كثيرة من نوع الزجاج المسمى الف زهرة والذي استمرت مصانع البلاد فى انتاجه فى فجر الاسلام .

وهكذا أصبحت صناعة الزجاج فى الاسكندرية والفسطاط وغيرها من المدن المصرية تمثل جزءا هاما من الحرف والصناعات التى اشتهرت بها

(١١) ورد فى احدى الرديات المتضمنة نفقات مختلفة بالمتحف منها قارورة ماء ورد جيد ، جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٨٠ .

(١٢) اكتشف الصناع المصريون منذ العصر البيزنطى طريقة نفخ الزجاج ، ولا يزال الزجاج المصنوع باليد يستغرق زمنا طويلا ، ويتطلب مهارة فائقة ، ولذلك فهو نادر الوجود وغالى الثمن . بحث نشر مجلة الشباب وعلوم المستقبل عام ١٩٨٤ .

(١٣) وقد ذكر أن منية الزجاج كانت من ضواحي الاسكندرية ، وهى تقع على ترعة المحمودية فى المنطقة الواقعة بين قم التربة وشارع الرصافة بقسم مجرم بك بالاسكندرية . الولاة والقضاة ، ص ٣٦ ، محمد رمزي : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ٤٣٢ .

(١٤) ظل النطرون مستعملا فى صناعة الزجاج بالاسكندرية منذ العصر الرومانى وحتى عام ١٧٩٩م حين مجيء الحملة الفرنسية على مصر ، لو كاس : المواد والصناعات ص ١٤٧ .

مصر ، فقد تم صنع الألوان الزجاجية بمختلف الأشكال والأحجام ، فضلا عن الأدوات والصنع الزجاجية وما الى ذلك من القوارير لحفظ العطور (١٥) .

وحينما استقلت البلاد تحت حكم الطولونيين والاختشيديين شهدت نشاطا ملحوظا في سائر الحرف والصناعات ، فقد تطلبت نشأة القطاع ومظاهر الترف في القصور الطولونية المزيد من انتاج مصانع الزجاج ، وازدياد نشاط العاملين بالمسابك الزجاجية وغيرها من مسابك الفولاذ والنحاس التي اقيمت بالفسطاط .

ومن أشهر الصناع الذين سجلوا توقيعهم على احدى التحف الزجاجية في عهد الدولة الطولونية ، كان نصير بن أحمد بن هيثم ، فقد صنع لأحد أمراء هذه الدولة تحفة من الزجاج مكتوب عليها « مما عمل للأمير ربيعة » (١٦) ولعل نصير الزجاج هذا كان ابنه اسحق الذي أشار اليه ابن النديم في أخبار الكيميائيين ، وقد جاء في ترجمته أنه كان يخرط الزجاج ويصنف الكتب في هذه الصناعة ، ومنها كتابه المسمى بالتلاويح وسيول الزجاج ، وكتاب صناع الدر الثمين ، وقد توفي سنة ٣٢٦ هـ في بداية عهد الاختشيديين .

فلا غرو ان تقدمت صناعة الزجاج في عهد الطولونيين والاختشيديين، وقد عرف الصناع الطرق الكيميائية وراحوا يمارسون عمليا ما لم يختبر قبل ذلك ، كما اخترعوا آلات التقطير ، وباشروا تحليل المواد ، ولم يقتصر نشاطهم على مجال الصناعة ، بل انهم وضعوا الكتب في صناعة أنواع الزجاج .

كما تشير المصادر الى أن أصحاب صنعة الكيمياء لم يقتصر الأمر عليهم في الاشتغال بخرط الزجاج (١٧)، بل كان من علماء المسلمين وأرباب

(١٥) يضم متحف الفن الاسلامي (قاعة الطراز الفاطمي) مجموعات من النقشاني والقماقم المصنوعة من الزجاج ذات زخارف مختلفة بارزة منفوخة في قوالب معينة وترجع صناعتها الى القرن الثاني وحتى القرن الثامن بعد الهجرة ، كما ورد في أوراق البردي ذكر القوارير لحفظ الروائح العطرية ، جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ٦ ، ص ١٨٠ .

(١٦) والامير ربيعة هو في الغالب ابن أحمد بن طولون الذي قيل انه قام بثورة ضد ابن أخيه هارون بن خماروية في سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م ، ولكن انتهت بالفشل وقتل ربيعة . الكندي : الولاة ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ، مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ص ٢٢٩ .

(١٧) ورد اسم الحسين بن صالح الزجاج في عقد بيع يرجع تاريخه الى سنة ٢٧٤هـ وكان يعمل في صناعة الزجاج بمدينة أشمون احدى مدن الصعيد الأوسط .

جروهمان : أوراق البردي العربية ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، ١٢٥ .

البلغة والنحو من كان يخرط الزجاج مثل أبي اسحاق بن ابراهيم الزجاج النحوى ، وكانت وفاته سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م .

وقد نجح الصناع أو الزجاجون فى ذلك العهد فى عمل نوع من الزجاج السميكة لعلمهم قصدوا به تقليد البلور الصخرى الذى كانت له فى النفوس مكانة ستامية . وأمدتنا حفائر الفسطاط وغيرها من مناطق صناعة الزجاج بكثير من القطع عبارة عن أكواب وأباريق بأشكالها التى تشبه الكمثرى وكذلك عثر على مجموعة منها حليت رسومها بالكتابات الكوفية وبالاختام والنقوش البديعة ، وكما اشتهرت مصانع الزجاج فى كل من الفسطاط والاسكندرية والفيوم بانتاج ما يلزم الاستعمال المنزلى من كافة الأواني الزجاجية وما يستخدم لحفظ الزيوت والعطور ، كانت من الجودة والكثرة ما عبر عنه ديماند قائلا : « وبلغت أشكال هذه الأواني وأجسامها من التنوع والكثرة مبلغا يصعب معه حصر أنواعها » .

وفى عهد الطولونيين والاختشيديين تقدمت صناعة البلور الصخرى ، ويبدو أن شهرة مصر فى هذه الصناعة كانت واسعة قبل الاسلام ، يتضح ذلك من وصف الجاحظ لأنواع البلور المعروف فى عصره حيث كان منه الزجاج البلورى الصافى الأبيض النقى ، ومنه الفرعونى الفائق .

وكان الصناع فى الاسكندرية والفسطاط يحصلون على البلور الصخرى من مناطق الحجاز ، ومنه ما يؤتى من الصين ، كما ظهر منه بالمغرب على مقربة من مراكش ، حيث يأخذون القطعة من حجر البلور ، ثم يهذبونها ويحولونها الى التحفة التى يريدونها ، ثم ينقشون عليها بالزخارف والكتابات العربية بطريق الحفر عليها .

ويمدنا البلوى بوضف لتلك الأباريق المعمولة من البلور الصخرى ، وكانت تقدم بين يدي الأمير أحمد بن طولون فيقول : « وقدم بين يديه صينية فيها ثلاث خرداديات وكوز ماء وقدح لطيف (١٩) ، وجعل بين يدي البخارية صينية فيها خردادى وقدح لطيف وكوز ماء ، وكانت الخرداديات تستخدم فى الشرب :

وهكذا تشير المصادر الى شيوع استخدام هذا النوع من أواني وأباريق البلور فضلا عن استخدام الزجاج المطلق بالمينا منذ أوائل القرن الثانى الهجرى فى مصر وغيرها من البلدان الاسلامية . فقد قيل ان الخليفة

(١٨) الخردادى هو ابريق من البلور له عنق ضيق وجسم يزداد اتساعا من أعلى الى أسفل ، والخردادى الحمر وهو مغرب . والقالب انه الإناء المخصص لشرب الحمر .

العباسي المعتمد لما ورد الخبر بوفاة ابن طولون في مصر اشتد حزنه عليه ،
فكان اذا قعد للشرب جعلت بين يديه صينية فيها خردادي وقدح وكوز
مصنوعة كلها من البلور .

وكان يصنع في مصر وفي بعض بلاد العالم الاسلامي نوع من البلور
المزخرف يستخدم في صناعة المصابيح البلورية المزدانة بالنقوش والآيات
القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، وكثيرا ما كانت تزدان
الجوامع والقصور بهذا النوع من المصابيح .

٣ - ازدهار صناعة الزجاج والبلور الصخرى

فى العصر الفاطمى

ويبدو أن صناعة المصابيح البلورية وغيرها من الأواني والتحف قد عادت الى الاحياء والازدهار من جديد خلال العصر الفاطمى ، يتجلى ذلك فى قيام الصناع المهرة بالفسطاط والاسكندرية بانتاج المصنوعات البلورية المزدانة برسوم الطيور والأشكال النباتية والزخارف البديعة ، ويعد خير شاهد على تقدم هذه الصناعة وازدهارها ذلك الابريق الصخرى المحفوظ فى كاتدرائية القديس مرقس بالبندقية ويحمل اسم الخليفة العزيز بالله الفاطمى .

ولا شك أن حياة الترف التى عاشها الخلفاء الفاطميون ورجال دولتهم كانت احدى العوامل الهامة فى ازدهار صناعة التحف البلورية ورواجها فى أسواق الفسطاط وقد بلغ الأمر فى عهدهم أنهم خصصوا لهم خزانة خاصة بالقصر الفاطمى تسمى خزانة البلور . وينقل المقرئ عن مؤلف كتاب الذخائر والتحف أنه رأى بطرابلس قطعتين من البلور الصافى حسن الصنعة ، احدهما خردادى والآخر باطيه ، مكتوب على جانب كل واحدة منها اسم العزيز بالله ، تسع الباطيه سبعة أرطال ماء بالمصرى ، والخردادى تسعة ، وكان أحد الناس قد اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من خزانة البلور فى سنوات الشدة العظمى .

وكان من أسباب انخفاض ثمنه ، انتاج الأدوات والتحف الكثيرة من البلور ، حتى استطاع الخلفاء والوزراء وعليه القوم فى العصر الفاطمى أن يجمعوا منها المقادير الكبيرة ، كما اتخذ الفاطميون من أواني البلور المرصع بالجوهر . وتشير وثائق الجنيزة الى تنوع صناعة الزجاج والبلور فى ذلك العصر حتى أصبح عمل عصا الكجل لتزيين المرأة ، صناعة قائمة بذاتها فى أسواق الفسطاط .

ويعصف ناصر خسرو حركة الصناع وتفوقهم في هذه الصناعة في هذه الأسواق العامرة فيقول : « ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية في الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب ، وقيل انه ظهر حديثا عند بحر القلزم بلور اللف وأكثف شفافية من بلور المغرب » . وهكذا أصبح من الميسور جلب هذا النوع من البلور من القلزم وسواحل البحر الأحمر ، وكان يفوق المستورد من المغرب شفافية وجمالا .

ومن التحف البلورية التي حملت اسم الخليفة الفاطمي الظاهر تلك الحلقة من البلور على شكل هلال ، وعليها كتابة بالخط الكوفي العبارة الآتية : « لله الدين كله الظاهر لاعزاز دين الله أمير المؤمنين » ، مما يدل على أن صناعة البلور قد بلغت أوج ازدهارها في عصر الفاطميين ، وقد شاعت تحلية قطع البلور بالزخارف النباتية ورسوم الطيور فضلا عن الكتابات الكوفية عليها .

كما تدل أعمال الصناع على مهارتهم الفائقة وشيوع استخدام البلور، فمن ذلك ما قام به الصناع المصريون من عمل تلك المرمة من البلور الخالص بمسجد قبة الصخرة وذلك في سنة ٤١٨ هـ في عهد الخليفة الظاهر . ويذكر الغزولي أن من جملة التحف المصنوعة من البلور ما وجد منه في خزانة السيدة بنت المعز لدين الله حين وفاتها ، كان أبريق من البلور مزخرفا بالياقوت الأحمر وزنه تسعة وعشرون مثقالا .

كما يذكر ابن ميسر أن من جملة ما أخرج من التحف والطرائف من خزائن المستنصر ثلاثون ألف قطعة بلور كبار . مما يدل على مدى شغف الفاطميين واقبالهم على اقتناء التحف المصنوعة من البلور الخالص .

وقد ذكر أن من جملة الصناديق التي نهبت أيام الشدة العظمى من خزائن القصر كان منها صندوق مملوء بأباريق من البلور المنقوش بالزخارف والرسومات الجميلة وبعضها غير منقوش . ويذكر المقرئ أن أحد الذين يوثق بهم نقل أن قدحا من البلور النفيس الذي لا زخارف له بيع أمامه بمائتين وعشرين دينارا ، وأن خرداديا من البلور بيع بثلاثمائة وستين دينارا ، وأن كوز بلور بيع بمائتين وعشرة دنانير ، وأن صحوتا مموهة بالمينا كان يباع الواحد منها بمائة دينار أو أكثر .

وكانت الأواني والأباريق المصنوعة من البلور الصخري تختلف في قيمتها وثن شرائها بحسب كبر الآنية واحكام صنعتها ، فالقطعة التي تحمل وطلا اذا كانت في غاية الصفاء والسلامة من التشعير تساوي عشرة دنانير مصرية في ذلك العصر . وليس هناك شك في أن الاقبال على شراء

أو اقتناء مثل هذه الأواني والأباريق وغيرها لم يكن قاصرا على بلاط
الفاطميين ، بل تعداه إلى سائر المصريين ، لاسيما بعد أن تمتعوا بحياة
النعيم والاستقرار في ظل الحكم الفاطمي . فقد أقبل عليه القوم على شراء
الأباريق والخرداديات والمصابيح البلورية لأنها كانت أصلب من الزجاج
العادي وألطف منظرا ، كما اتخذوا من البلور آنية اعتقدوا أن للشرب
فيها فوائد .

ويظهر أن صناعة البلور الصخري كان لها أثرها على صناعة الزجاج
على مثال أواني البلور ، واستخدموا في زخرفتها أسلوب القطع على غرار
ما كان متبعاً في زخرفة البلور الصخري (١) . ومن الملاحظ أنه كثر
استخدام الأواني الزجاجية ذات الزخارف بدلا من الأواني البلورية ، وذلك
لرخص ثمنها ومساواتها في القيمة الزخرفية إلا أنها كانت دونها بكثير
من حيث القيمة الصناعية .

وتشير المصادر إلى ازدهار صناعة أنواع الزجاج في العصر الفاطمي ،
فقد اشتهرت مصر بصناعة الزجاج المطلي بالمينا ، وقد عثر على قطع منه
عليها زخارف مختلفة ورسوم متنوعة وكتابات وشعارات . حيث تمكن
الصناع من ابتكار أساليب صناعية جديدة مثل النفخ واستخدام القالب
والزخرفة بالإضافة إلى أعمال القطع والطبع والتذهيب والتلوين بالمينا (٢)
أو بمادة البريق المعدني .

ومن أهم أنواع الزجاج ذي البريق المعدني الذي أنتجه الصناع أو
الزجاجيون في القسطنطينية وغيرها ، ذلك النوع الأحمر وعليه
زخارف من رسوم بطيور ، يبدو أنها ذات الصلة الوثيقة بتلك الرسوم
التي نعرفها على الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني ، وهناك قطعة من هذا
نوعها توقيع الخزاف الشهير « سعد » . كما أنتج الزجاجيون في القسطنطينية
وفي مراكز صناعة الزجاج الأخرى نوعاً من الزجاج الأبيض السميك (٣) .

(١) كلن من أبرز النماذج هذه المتحف الزجاجية التي صنعت تقليداً للبلور مجموعة
من الكؤوس اصطلاح الأوروبيون على تسميتها باسم كؤوس هديج وتضم المتاحف الأوربية
منها حتى الآن ثلاثة عشر كوباً في نورمبرج ومتحف ركس بأمستردام وغيرها . ديمانند :
الفنون الإسلامية ، ص ٢٣٧ .

(٢) المينا : مادة كالزجاج نصف شفافة يذاب وتستخدم في زخرفة المعادن كالذهب
والفضة والنحاس . زكي محمد حسن : الكنوز الفاطمية ، ص ٣٧ .

(٣) يضم المتحف القبطي بالقاهرة مجموعة من الأواني المختلفة المصنوعة من هذا النوع
من الزجاج الأبيض السميك .

كما استمرت فى العصر الفاطمى صناعة الصنّج الزجاجية لوزن نقود الذهب والفضة ، ويرجع ذلك الى احتفاظ هذه الأوزان الزجاجية بنظافتها فلا يعلق بها شىء الأمر الذى يجعل الوزن بها دقيقا ، فضلا عن عدم قآكلها . وقد اكتشف فى سمناء إحدى قرى جزيرة تنيس فى القرن التاسع الهجرى مجموعة من الصنّج الزجاجية مكتوب عليها أسماء الخلفاء الفاطميين ابتداء من الخليفة المعز وحتى الخليفة المستنصر (٤) ، كما أمدنا لينبول ببعض نماذج وأشكال تلك الصنّج والكتابات الكوفية المنقوشة عليها أسماء معظم الخلفاء الفاطميين (٥) وكانت هذه الصنّج الزجاجية يتم صنعها بدار العيار ويتم بيعها لأصحاب الحرف والصنائع تحت إشراف المحتسب بعد تصحيح عيارها أو وزنها كسائر الصنّج والموازين والأكيال الأخرى .

وكانت أكبر مراكز صناعة الزجاج مسابك الزجاج بالقسطاط التى أشار إليها ابن دقماق ، وقد ظلت هذه المسابك فى عملها وإنتاج أنواع الزجاج رغم ما أصاب المدينة الكبيرة فى سنوات الشدة العظمى ، وبعد الحريق الذى أمر به الوزير شاور فى خلافة العاضد . وكانت صناعة الزجاج من الصناعات المقلقة للراحة والتى ربما تضر بالصحة ، ولذلك كان يفرد لمسابكها أطراف المدينة ، كما كان يشترط على أصحابها شروط صحية ، مثل سعة الأماكن وتهويتها وارتفاع سقفها ، وكان على وإلى المدينة أن يشرف على توفير ذلك .

ولعل سوق الزجاجين الذى أشار إليه المقرئى كان يقع بالقرب من منيل الزجاج أو معمل الزجاج الواقع بأرض الحسينية خارج باب الفتوح بالقاهرة ، ولا شك أنه كانت تباع فى هذه السوق كافة أنواع الأواني والأدوات المصنوعة من الزجاج (٦) .

ومن أسماء الزجاجين الذين نعتقد أنهم زاولوا عملهم بمسابك الزجاج والمعامل التى أشارت إليها المصادر التاريخية ، كانى عباس بن نصير

(٢) تم اكتشاف هذه المجموعة حوالى سنة ٨٣٧هـ وكان مكتوب على بعضها اسم الامام المعز ، وعلى بعضها اسم الامام العزيز بالله ، ومنها ما عليه اسم الامام الحاكم بأمر الله ومنها ما يحمل اسم الظاهر لأعزاز دين الله ، والمجموعة الكبرى منها تحمل اسم الخليفة المستنصر . المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٩ ، زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٨٠ .

(٥) أحصى Lane-poole من أسماء الخلفاء الفاطميين التى حملتها تلك القطع من الأوزان الزجاجية مثل الحاكم بأمر الله والخليفة المستنصر ، والأمر بأحكام الله ، وكذلك الظاهر والخليفة العاضد .

(٦) استمرت تفرض عليه رسوم الإنتاج حتى العصر المملوكى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ ، ابن الجيمان : التحفة السنوية ، ص ٧ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ٤٢٢ .

ابن ابى يوسف جرير بن سعيد البلاوى ، فقد ورد توقيعه على قطعة من
الزجاج المشرب بالزرقه من مصر ، ويرجع تاريخها الى حوالى سنة
٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م .

كما كان من هؤلاء الزجاجين المشهورين فى بداية العصر الفاطمى ،
أبو جعفر الوزير أبو الفضل ، فهو كما يذكر المسبحى كان حاذقا فى صناعة
الزجاج ، وكانت وفاته فى عهد الخليفة الظاهر فى سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م .
ومن أسماء محترفى خراطة الزجاج فى ذلك العصر ما تشير اليه
شواهد القبور ، منها شاهد يرجع الى سنة ٤٠٢ هـ ويحمل اسم « محمد
ابن مرزوق بن رزق الله بن عيسى بن اسحاق بن كامل الزجاج » ، وشاهد
آخر يحمل اسم « يوسف بن اسحاق بن كامل » . ومن الشواهد أيضا
التي يحتفظ بها متحف الفن الاسلامى شاهد من مصر العليا باسم « معلا
ابن أحمد بن رزق » وكانت وفاته فى سنة ٤٢٠ هـ / ابريل ١٠٢٩ م .

ولا شك أن نشاط حركة البناء فى العصر الفاطمى مما تجلى فى القصور
والمناظر والمساجد والمشاهد وغيرها ، استلزم الاكثار من مسابك الزجاج
لسد حاجة هذه المباني العديدة من المصابيح والقناديل التي كان لها سوق
خاص فى القسطنطين (٧) ، يذكر ناصر خسرو بأنه لا يعرف سوق مثله فى
أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف .

وهكذا كانت صناعة القناديل أو المصابيح من الصناعات الرائجة
فى العصر الفاطمى ، وقد حرص الفاطميون على تزويد الجوامع والمساجد
مثل الأزهر وجامع عمرو بن العاص وجامع الحاكم بالكثير من هذه المصابيح ،
وكان من عاداتهم الاكثار من اضاءتها فى ليالى المواسم والأعياد حيث كانت
تزيد عن سبعمائة قنديل لجامع عمرو منها مائة قنديل وجده . وكان لأرباب
صناعة هذه المصابيح من المهارة والفن الزخرفى لكى يظهروا روائع
مبتكراتهم ، وما يستلزم ذلك من قطع الزجاج المناسب لهذا الفن الزخرفى
الرائع .

وكانت قصور الخلفاء والأمراء والأعيان تضم الآلاف من القطع
الزجاجية التي كانوا يستخدمونها فى الأسمطة والأغراض الأخرى ، فضلا
عن تلك المصابيح أو القناديل التي تزين تلك القصور ، ومما يذكره المقرئى

(٧) سمي بسوق القناديل لكثرة ما كان يصنع ويباع من القناديل كما ذكر أنه قد
اكتسب اسمه من قيام سكان الحى الواقع به بوضع على باب كل واحد منهم .

انه وجد للسيدة رشيدة ابنة المعز لدين الله نحو مائة قطرميز مملوءة بالكافور .

وقد حافظت الاسكندرية كاحدى مراكز صناعة الزجاج الهامة فى العصر الفاطمى ، ولم تفقد كل ما كان لها من خطير شأن فى ميدان هذه الصناعة وبعض الصناعات الأخرى . وكشفت الحفائر الأثرية بمنطقة كوم الدكة عن كميات من القطع الزجاجية والبلورية وقطع من الزجاج المزخرف والمموه بالمينا من النوع الشائع فى المشكاوات .

كما كشفت الحفائر عن العديد من التحف الزجاجية فى كل من قوص وأبيدوس وأخميم وأسيوط والبهنسا واهناسيا وهواره وسقاره وأطفيج وغيرها . ولا يعنى اكتشاف بعض قطع الزجاج على هذا النحو فى تلك المدن أو الجهات أنها كانت مراكز لصناعة الزجاج ، مثلما كان الأمر فى مدن الفيوم والأشمونين والشيخ عبادة بمنطقة مصر الوسطى .

ويمكن القول بأن اتساع نطاق التجارة الداخلية يجعل من الميسور معرفة أن الكثير مما عثر عليه من القطع الزجاجية قد تم صنعها بعيدا عن أماكن صناعتها . ومن الجدير بالذكر أن التجار المسافرين الى بلاد النوبة كانوا يحملون معهم الكثير من السلع والأواني الزجاجية والخرز ، كما كانت مصر تصدر من أنواع الزجاج الى البلاد الأوروبية وبلاد المشرق الأقصى . فقد ورد فى أوراق الجنيزة من بين قوائم البضائع التى أرسلت من موانئ البحر الأحمر مجموعات من الأقمشة الحريرية ، وأنواع الزجاج الى بلاد الهند .

ولا غرو أن أصبحت للسلع والأواني الزجاجية سوق رائجة فى العالم الخارجى فى العصر الفاطمى ، وذلك لما بلغت من الشهرة ودقة الصنعة وطرق الزخرفة التى مارسها صناع الزجاج ، فقد دلت حفائر الفسطاط على أن هؤلاء الصناع مارسوا الرسم على القطع الزجاجية بالذهب الخالص ، اذ تم العثور على قطع عديدة لم تستخدم فيها رقائق الذهب ، بل تم رسمها وزخرفتها بماء الذهب (٨) .

وهكذا حافظت مصر على شهرتها فى صناعة أنواع القنينات والقوارير والأطباق والأواني الزجاجية لحفظ المواد الكيماوية ، كما استطاع الزجاجون أن يصنعوا نوع الزجاج المسمى بالفسيفساء الزجاجية والذي بلغت فيه مصر الذروة فى عصر المماليك .

(٨) يحتفظ المتحف البريطانى بجزء من قنينة عليها زخارف عبارة عن راقصات وأشجار

وطيور مرسومة بالذهب ترجع صناعتها الى العصر الفاطمى .

ديمالد : الفنون الإسلامية ، ص ٢٣٥ .

الفصل الرابع

الصناعات المعدنية من الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمي

- ١ - استخراج المعادن والأحجار الكريمة .
- ٢ - صناعة الأدوات والآلات الحديدية والنحاسية وصناعة التكفيت .
- ٣ - صناعة الحلي والمجوهرات .
- ٤ - صناعة سك النقود ودور ضرب المصرية .
- ٥ - صناعة الأسلحة الخفيفة والثقيلة .

الصناعات المعدنية في مصر الإسلامية

عرف المصريون المعادن المختلفة منذ العصور القديمة (١) ، حيث تم اكتشاف معدن الحديد في الصحراء الشرقية وفي شبه جزيرة سيناء ، وبالقرب من أسوان وفي واحات الصحراء الغربية . كما كان الرصاص من أقدم الفلزات التي عرفها المصريون القدماء حيث تم اكتشافه في منطقة جنوبى القصير على شاطئ البحر الأحمر ، وقد استخدم الأكسيد الأحمر للرصاص (السلاقون) لتلوين أحد الجدران منذ العصر اليونانى والرومانى . وقد دلت الأبحاث على أن النحاس والذهب والحديد والرصاص والفضة والقصدير كانت من المعادن الهامة التي استخدمها المصريون منذ قرون طويلة قبل الفتح الإسلامى للبلاد . ولا شك أن المصريين الأقباط قد عرفوا المعادن وغيرها ، وأنهم صنعوا منها التحف المعدنية المختلفة .

(١) - تعنى كلمة معدن أنها المادة التي تستخرج من المناجم ، وهناك فرق بين المعادن التي تعنى الفلزات بالمعنى الحديث ، والمعادن الأخرى كالأحجار البناء والأحجار الكريمة الأخرى .
التيفاشي : نزعة الأفكار ، ص ٤١ - ٤٢ .

١ - استخراج المعادن والحصول على المواد الخام والأحجار الكريمة

دلت الأبحاث أن قدماء المصريين استغلوا مناجم ومعادن تلك البلاد منذ وقت بعيد (١) . وقد وجد الذهب قديما في مصر ، وكانت الطريقة لاستخراجه من خامات بسيطة ، وتتخلص في غسل الرمل والحصى بالماء الحار عند وجود خاماته الطفلية ، فيحمل الماء معه المواد الخفيفة تاركا حبيبات الذهب الثقيلة التي كانت تجمع وتصهر وتتكون منها الكتل الصغيرة .

وكانت خامات الذهب تقع في تلك المنطقة الفسيحة فيما بين وادي النيل والبحر الأحمر في الصحراء الشرقية الممتدة من جنوب طريق قنا - القصير الى حدود السودان . كما وجدت عدة مراكز قديمة لاستخراج الذهب على مسافة كبيرة شمال خط عرض قنا ، وهناك مراكز أخرى تقع في بلاد النوبة .

وكانت بيزنطة تعتمد على مناجم الذهب منذ القرن الخامس الى القرن السابع وعلى ما يرد اليها من ذهب النوبة وشمال السودان عن طريق أسوان (٢) .

(١) تشير بردية تورين وهي أقدم خريطة في العالم الى مناجم العلاقي على انها أقدم مناطق استخراج الذهب في وادي النيل .

م سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٦ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) يرى موريس لمبار أن ذهب مناطق النوبة والعلاقي لم يعد منتظما في القرن الثامن الميلادي حيث كان البيزنطيون (ويعني قبائل البجة) يغيشتون على الذهب وارتباد الصحراء الشرقية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ومطبعة الحبشة .

الذهب الاسلامي منذ القرن السابع ، ص ٤٥ .

وهناك من يرى أن الفضة والذهب التي استخدمت خاماتها في سك النقود وفي صناعة الحلى إنما تم جلبها من الخارج ، ولم يكن يوجد في مصر خلال العصر البيزنطى سوى أعمال التعدين فى مناجم الحديد والنحاس التى حظيت بشهرة واسعة فى ذلك الحين .

وربما انطبق ذلك على معدن الفضة التى كانت من أندر المعادن وأنفسها عند المصريين القدماء لقلة توفرها ، على عكس الذهب الذى كان متوفرا فى مصر الفرعونية ، خاصة فى الصحراء الشرقية فيما بين قفط من وادى الحمامات وعند أم الروس عند ساحل البحر الأحمر وفى مناجم النوبة (٣) . وليس هناك ما يدل على توقف استمرار البحث من أجل الحصول على الذهب من تلك المناطق قبل الفتح العربى للبلاد .

ومن المعروف أن السيطرة على بلاد النوبة بدأت مع الفتح العربى ، فقد وجه عبد الله بن سبيد بن أبى سرح جمالاته عام ٣١ هـ التى وصلت إلى دنقلة ، وانتهى القتال بعقد معاهدة تجارية تفتح بلاد الطرفين أمام رعاياهما . غير أن استغلال ذهب النوبة لم يبدأ إلا بعد إخضاع قبائل البجة الضاربة فى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، وكانت تعمل على قطع الطريق للحصول على الذهب فى أواخر العصر البيزنطى ، فصالحهم عبد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر فى خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) ومن ثم أمكن استغلال مناجم الذهب هناك .

ولما نزع العرب إلى بلاد البجة وخاصة عرب ربيعة عرفوا طريقهم إلى هذه المناجم وعملوا على استخراج التبر من المنطقة التى عرفت باسم العلاقى . ويذكر اليعقوبى عدة مواضع لمعدن التبر كانت توجد جنوب أسوان وتنتهى إلى وادى العلاقى يقصدها أصحاب المطالب من العرب فيجتمعون فى الوادى الذى صار كالمدينة العظيمة على حد قوله ، وبها الأسواق والتجارات .

وحدث أن ثارت قبائل البجة عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، وامتنعت عن دفع الجزية . وهاجمت الصعيد عند مدينتى أسينا وادفو ونهبوها وطردها أهلها منهما . فكتب بذلك عنبسه بن اسحق العيسى « وإلى مصر » آنذاك .

(٣) كانت مناجم النوبة وحدها تفل على البلاد ما يقدر فى المتوسط بمائتين وسبعة عشر كيلوجراما من الذهب كل عام . لإحمد بن عبد الحميد يوفى : مصر فى القرآن والسيرة ، ص ١٧٢ .

الى الخليفة المتوكل ، فأرسلت حملة كبيرة عن طريق النيل ، وأخرى عن طريق البحر الأحمر واستطاعت اخماد الثورة واخضاع بلاد البجة .

وقد استطاع العرب بعد توقيع الصلح الذى عقده عبد الله القمى مع البجة وايقاف غارتهم على الصعيد ، أن يواصلوا العمل فى مناجم الذهب ومعادن الزمرد دون خوف من تعرض البجة لهم . واجتذبت حالة الهدوء والأمن جماعات عربية أخرى جاءت تبحث عن الثروة . ولم يقتصر الأمر على ربيعة التى أدت مصاهرتهم بعد ذلك مع أهل البجة واستيلائهم على معدن الذهب بالعلاقى الى اتساع نفوذهم وكثرة أموالهم بل توافدت موجات من بنى سليم وغيرهم التى استقرت فى مراكز عدة نزلوا بها لاستخراج معادن التبر بها (٤) .

أما عن طريقة استخراج الذهب ، فلم تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل نزوح قبائل ربيعة وغيرها من القبائل الى تلك المنطقة ، فكان الناس هناك يتجولون فى الليالى التى يضعف فيها ضوء القمر ويعلمون على المواضع التى يرون فيها شيئا مضيئا بعلامات يعرفونها ، ويبيتون هناك . فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التى علموا عليها ومضوا بها الى آبار هناك ليغسلوها بالماء ويستخرجوا منها التبر ، ثم يقومون بمزجه بالزئبق ويسبكونه بعد ذلك (٥) .

والواقع أن الحصول على الذهب لم يقتصر منذ الفتح العربى على استخراجها من تلك المناطق ، بل تشير المصادر الى الكنوز والدفائن التى كان يحتفظ بها الأقباط المصريين واستيلاء الحكام العرب عليها ، فقد ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر : ان من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته .

وتشير الروايات الى كثرة الكنوز التى صادرها عمرو بن العاص من قبط مصر .

(٤) ذكر المقريزى : من المراكز التى نزلت بها قبائل العرب موضع يقال له الشكرى وآخر يقال له « الكلبى » وموضع ثالث أطلق عليه اسم « العجلى » ولعل هذه الأسماء ترجع الى رؤساء القبائل التى نزلت وخالطت قبائل ربيعة الذين هاجروا الى أرض المعدن وذرياتهم فى أعداد كبيرة .

البيان والإعراب ، ص ١٦٣ .

(٥) آدم مثر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ ، محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ص ١٢٨ - ١٣٩ .

وثمة مورد آخر من موارد الثروة استغله الفاتحون في مصر وهو الكنوز المدفونة في المقابر الفرعونية ، إذ يذكر المؤرخون أنه منذ أوائل الحكم العربي وحتى القرن الحادى عشر الميلادى عثر على الكثير من هذه الكنوز ، فمن ذلك أنه أمكن العثور فى عهد عهد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٥ هـ) على تماثيل من أنواع الصور المختلفة المصنوعة من الذهب ، وعلى أجربة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها وتم احكام غلقها بأعمدة من الذهب الخالص (٦) .

وفى عهد الطولونيين والإخشيديين زادت الهجرات العربية الى بلاد البجة ، وكان يهدف أحمد بن طولون من وراء تشجيع الهجرة الى تلك البلاد إبعاد عدد كبير من القبائل العربية التى نزحت الى مصر فى تلك الفترة ، والعمل على تأديب النوبة والبجة وكف هجومهم على بلاد المسلمين . ويروى المسعودى وهو مؤرخ معاصر ما تم من عملية الاندماج بين قبائل ربيعة بالبجة وما أدت إليه المصاهرة والتزاوج بين رؤساء ربيعة من بناء رؤساء البجة ، من اتساع نفوذها وزيادة ثروتها . كما صارت لهم بلاد البجة مرافق ، واختطوا لهم بها قرية تعرف بالنمايسن حفرها بها آباراً . وهكذا استقرت أعدادا كبيرة من قبائل ربيعة وجهينة ، وزادت أعمال البحث والحصول على المزيد من الذهب .

كما تشير المصادر التاريخية الى أعمال البحث عن الكنوز فى مصر وزيادة الاهتمام بها منذ عهد ابن طولون ٢٥٤ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م حيث أصبحت تتولاها السلطة الحاكمة ، وكون أصحاب المطالب أو الباحثون عن الكنوز نقابة حقيقية من نقابات الحرف ، وصارت خاضعة للضريبة كشائر الحرف الأخرى .

ومما يذكر أنه تم العثور على كنز قيمه بألف ألف دينار (٧) أيام ابن طولون ، وهو ما شاع ذكره بحديث الكنز .

(٦) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ : ص ٣٦٧ . ويذكر المسعودى أن الأمير عبد العزيز بن مروان بذل آلاف الدنانير لأجرة العمالي وزاد فى عددهم وأوسع فى النفقة عليهم من أجل البحث عن الدنانير والكنوز الفرعونية . نفس المصدر ، ص ٣٦٦ .

(٧) يقول موريسن لمبار : أن مليون دينار تساوى أربعة آلاف كيلوجرام من الذهب ويرد فى تعليقه على كنز ابن طولون : « لكننا لا يجب أن نتهم المؤرخ الذى أورد لنا هذه الحادثة بالمبالغة التى عرف بها الشرق ، إذ أنه فى عهدنا هذا قدر وزن الذهب الصافى فى كنوز مقبرة توت عنخ آمون بضغف الغطاء الذهبى فى البنك الأهلى المصرى ، الذهب الاملاى منذ القرن السابع ، ص ٦١ - ٦٢ .

ويتحدث المسعودى عن استمرار البحث فى عهد الاخشيديين فمن ذلك ما قيل أنه فى باطن الأهرام مطلباً عجيباً ، وصار خبره الى محمد ابن طنج الاخشيد ، فأذن لهم فى حفره وذلك فى سنة ٣٢٨ هـ ، ولكن عمال الحفائر لم يعثروا على الكنوز من الذهب ، وإنما بعض الصور من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفروز والزبرجد وغير ذلك من الآلات من المرمر والرخام .

ومن المصادر التى حصلت منها الادارة العربية على الذهب تلك الثروات التى تجمعها فى كنوز الكنائس المصرية والسورية ، وخير دليل على ذلك ما أشار اليه يحيى بن سعيد الانطاكى حينما تم فتح خزائن كنيسة تنيس فى أوائل حكم الاخشيديين ، فقد أخرج منائر آلاتها وجمع صياغاتها ونحاسها وستورها عن آخرها وكانت من الوفرة بمكان حتى أن ذهبها فضتها لكثرتها تم وزنها فى القرسطون (٨) وكما يقول يحيى ابن سعيد : « وعظم تعجب من حفر من المخالفين فى الديانة من كثرة ما شاهدوا ورأوا فيها » ويعنى المسلمين ، وهكذا عادت كميات ضخمة من الذهب المدفون داخل الكنائس والتى كانت تجمعت منذ قرون الى الدورة النقدية بعد قيام دور الضرب وغيرها بسكها من جديد .

وفى عهد الفاطميين ، ظلت موارد الذهب فى العلاقى متوفرة ، وقد أشرفت الدولة على هؤلاء المشتغلين باستخراج الذهب من بنى الكنز وغيرهم ، يقول موريس ليار : « فعاد الحال الى ما كان عليه من ازدهار استغلال الذهب فى عهد البطالة » ، ولم تتوقف الجهود المبذولة من أجل الحصول على معدن الذهب النفيس الا حينما بدأت موارد هذه المنطقة فى النضوب فى أواخر أيام الفاطميين ، حيث زهد هؤلاء فى الاقامة بصحراء مصر الشرقية ، وبدأوا فى الرحيل عنها نحو بلاد النوبة والسودان فى بداية حكم الأيوبيين للبلاد .

وكان الفاطميون فى بداية القرن الرابع الهجرى وقبل مجيئهم الى مصر ، قد أصبحوا سادة طرق الذهب الوارد من السودان وأعماق أفريقيا ، وصارت لديهم المقادير الهائلة من الذهب ، حيث خصصوا مبالغ ضخمة لدعايتهم فى وادى النيل منها . وقيل انه لما قدم المعز لدين الله الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ حمل معه من السبائك الذهبية فى هيئة الأحجار الطواحين المستديرة ليسهل حملها على الجمال ، كما ذكر أن القائد جوهر فى غزوته

(٨) القرسطون : لعله نوع من الموازين الكبيرة مثل الميزان القبانى فى عصرنا الماضى .

من أجل فتح مصر حمل معه ألف حمل من الذهب (٩) . وهكذا كان دخول الفاطميين للبلاد يحملون معهم تلك المقادير الضخمة من الذهب وقيام دولتهم في مصر من أهم العوامل التي أدت الى وفرة الثروة من هذا المعدن النفيس .

ومن وادى العلاقى كان يحمل التبر خلال العصر الفاطمى بعد سبكه الى ميناء أعينداب على ساحل البحر الأحمر ، حيث يأتى التجار فيجلبونه وغيره من الفاج واللؤلؤ فى المراكب الى القلزم ومنها الى القسطنط .

أما عملية صهر المعادن وصيها ، فكانت معروفة لدى المصريين منذ عصورهم القديمة (١٠) . وقد ساعد على ذلك معرفة تحضير الفحم النباتى فى الصحراء الشرقية موطن المعادن النفيسة ، وفى شبه جزيرة سيناء المصرية (١١) كما تمكن المصريون من صهر خامات الحديد بالقرب من الاسكندرية وخير دليل على ذلك ما وجد من آثار لأعمال الصهر التى قام بها الصناع المصريون فى القرن السادس الميلادى وقبل الفتح العربى لمصر .

ومن المحقق أن خبرة المصريين العالية فى صهر المعادن ، واجادتهم لتشكيل الذهب والنحاس والرصاص والفضة والبرونز والقصدير (١٢) ،

(٩) ويذكر القيريزى أنه حينما عبرت عساكر القائد جوهر الى القسطنط ومعهم مناديق المال على البغال ، قيل ان المال كان فى ألف وخمسمائة صندوق ، اتعاط الحنفا ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، تحقيق الشيال .

(١٠) تظهر عملية صب المعادن فى النقوش المصورة على جدران مقبرة رخمارع بطيبة من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وهى تمثل صنع يابن لمعد آمون بالكرنك وكان المصريون يصهرون المعادن فى قوالب مفتوحة أو يحيلونها بالطرق الى صفائح رقيقة وكانت رقائق النحاس تتخذ فى كساء التماثيل المصنوعة من الخشب أو صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية . ولم يجد لكسائع النحاس صغوبة فى صنع الانابيب النحاسية لكى تستخدم فى التخلص من مياه الأمطار التى تتساقط فوق أسطح معابد الملوك فى مصر القديمة ، بتري : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ص ٢٦٧ ، لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٧٢٢ ، هولمز : قصة الكيمياء ، ص ٧ .

(١١) كان صنع الفحم النباتى نتيجة طبيعية لحرق الخشب ، ومن العسير أن نتصور أنه بدون فحم الخشب أن يكون هناك تقدم فى صناعات التعدين أبعد من هذه الطرق البدائية ، ويذكر لوكاس أنه لا تزال هذه الصناعة وهى تحضير الفحم النباتى باقية فى هاتن والمنطقتين حتى الآن وأن كانت بشكل محدود للغاية ، وأنه كان لهذه الصناعة ابلغ الأثر فى انقراض أشجار هاتن والمنطقتين ، المواد والصناعات ص ٧٢٢ - ٧٢٣ .

(١٢) مما يدل على ذلك أن بائع القصدير خلال العصر الرومانى والبيزنطى كان عليه أن يدفع غريبة شهرية قدرها ١٦ دراهمة .

Milne : A History of Egypt under rule, p. 156.

وكذلك وفرة عدد الشباكين الذين كانوا يعملون بمدينة اكسيرنخوس (البهنسا) فى العصر البيزنطى ، وغيرهم من صناعات أدوات الزينة والحلى فى بانوبوليس (احميم) وغيرها .

Johnson : Economic Studies, p.p. 109, 110-119.

الحرف والصناعات - ١٤٥

كانت خير عون لهم فى سبيل صنع وانتاج كافة الأدوات والآلات المعدنية منذ فجر الاسلام ، وفى تقدم وازدهار تلك الصناعات المعدنية حتى عصر الفاطميين .

ومن خير الأمثلة على ذلك ما قام به الصناع المصريون فى عهد خمارويه ابن أحمد بن طولون حينما صهروا النحاس وكسوا به أجسام النخل ، وجعلوا بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر ، فجاءت فى أحسن صنعة وما تم استخدامه من معادن النحاس والذهب والفضة فى صناعة المرصد الفلكى حين أراد المأمون البطائحي فى عهد الأمر بأحكام الله إعادة بنائه (١٣) ، وقد ذكر المقرئى أن المأمون أراد أن يستكمل ما قام به الأفضل من قبل ، وذلك حينما تم اختيار مكان الرصد فوق جبل المقطم ثم عدلوا عنه الى الموضع الواقع بالقرب من مسجد الفيلة . وقيل انه احتاج الى اطلاق مائتى قنطار من النحاس النجر ، وثمانين قنطارا من النحاس القضيب الأندلسى ، وأربعين قنطارا من النحاس الأحمر ، ومن الرصاص ألف قنطار ، ومن الحطب ومن الحديد والفولاذ من دار الصناعة لعله يحتاج اليه . وقد حضر الأفضل أعمال صهر تلك المعادن وصبها فى الأشكال المطلوبة ، وكان من جملة ما رمى به الى الصناع كيس فيه ألف درهم .

ولا شك أن ما تطلبته أعمال اقامة المرصد الفلكى ، وما أحضر له من جميع صناع النحاس ومن سائر الصناع والمهندسين ، فضلا عن تلك المقادير الكبيرة من المعادن المختلفة ، توضح لنا مدى ما بلغه هؤلاء الصناع من خبرة فائقة بصهر أنواع النحاس والحديد والفولاذ فى ذلك العصر (١٤) .

لم تقتصر أعمال التعدين فى مصر منذ فجر الاسلام على استخراج

(١٣) ذكر ابن دقاق ان الحاكم بأمر الله أمر ببناء المرصد بالقرب من القصر المعروف بباب اليون وذلك فى سنة ٤٠٣ هـ ، ثم أن المأمون البطائحي عمل على نقله الى مكان بالقرب من باب النصر ، وكانت قد فسدت واتلفت آلاته وأصبحت الحاجة تدعو الى بنائه من جديد وما يتطلب ذلك من النحاس والذهب والفضة . الانتصار : ج ٤ ، ص ٥٨ .

(١٤) يعتبر النحاس من أقدم المعادن التى عرفها الانسان المصرى القديم ، وقد أمكن استخلاصه من شوائبه بعد أن أمكن العثور عليه فى شبه جزيرة سيناء . وفى القرن الأول الميلادى كان النحاس الأصفر يرسل بالسفن عن طريق البحر الأحمر من مصر الى بلاد النوبة والسودان ، ومن مواضع صهر النحاس القديمة فى مصر إحدى نواحي الفيوم ، حيث أطلق عليها فى العصر الاسلامى المبكر كوم مدينة النحاس .

لوكانس : المواد والصناعات ، ص ٣٦٠ ، محمد رمزي : القسطنطينوس الجغرافى ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

الذهب أو النحاس والرصاص وغيرها من أنواع الفلزات بالمعنى الحديث ، واشتغال المصريين بصهرها في المسابك وتشكيلها وفقا لما تطلبته حاجة الصناعات المعدنية ، بل يذكر المؤرخون أنه كان من فضائل مصر وجود الأحجار الكريمة مثل الزمرد والزبرجد والياقوت واللؤلؤ وأنواع أخرى من المعادن ، خاصة في منطقة الصعيد الأعلى .

ويحدد اليعقوبى المواضع التي قام المصريون باستخراج معدن الزمرد منها فيقول : فهو على بعد ثمانى مراحل من قفط ، ويستخرج من جبلين عرف أحدهما بالعروس والآخر بالخصوم . كما يصف المسعودى طريقة استخراج الزمرد ، حيث كان العمال يحفرون عليه في الجبل ، فيجدونه على شكل عروق خضر في تجاويف الأحجار البيضاء (١٥) ، ويتم أخراجه واستخلاصه على هيئة قطع صغيرة كالحصباء منبثة في تراب المعدن ، وكان عمال مناجم الزمرد ينخلون التراب ثم يوجد خلاله فيغسل كما يغسل تراب الفضة (١٦) ، وكان يجمع ما يستخرج من هذا المعدن النفيس ويصدر الى الفسطاط وقد أصبح من أهم موارد الثروة في صعيد مصر . ويذكر ابن فضل الله العمري أنه كان له مباشرون وأمناء من جهة السلطان يتولون استخراجها وتحصيله ولهم جوامك على ذلك .

ولم يزل استخراج الزمرد حتى أيام الناصر محمد بن قلاوون وكان من أفضل أنواعه ، وقد اشتهرت به مصر الإسلامية ، ومنها كان يحمل الى سائر بلاد الدنيا .

ومن الأحجار الكريمة التي اشتغل المصريون باستخراجها من منطقة صعيد مصر ومناجمها ، نوع الزبرجد ، وهو أقل وجودا وندرة من الزمرد ، ويشير ابن حوقل الى موضع استخراجها فيقول : « انه في برية منقطعة العمارة ليس في الأرض غيره » (١٧) ويتحدث الجاحظ عن أوصافه في

(١٥) ويذكر المسعودى أن الزمرد كمعدن ينقسم الى أربعة أنواع تبعا لأوصافه فمنها النوع الذي يعرف بالمر وهو أعلاها والنوع الثانى البحرى ، والثالث المغربى ، أما النوع الرابع فقد عرف باسم المكى ، ومبلغ القدسة منه عشرة دنانير ، وكان الزمرد المصرى يتنافس الزمرد الهندى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، الطبعة الرابعة يونيو ١٩٦٤ .

(١٦) ويذكر النيفاشى مصادر الزمرد على وجه الدقة في مصر ، فيقول : « وهي سلسلة جبال الصحراء الشرقية المحصورة بين البحر الأحمر ونهر النيل في سخور الشيسيت ، ولا تزال بعض هذه المناجم تنتج حتى الآن » .

أزهار الأفكار ، ص ٢٥٤ .

(١٧) ويحدد النيفاشى مناجم الزبرجد فهو يذكر أنها كانت في جزيرة سان جونز المصرية بالبحر الأحمر ، وفي منطقة جبل زبارا جنوب القصير في سخور الشيسيت البركانى ، ويقول : « وهو المكان الوحيد في العالم الذى به بلورات بالحجم الكبير الذى يسمح باستخداها في أغراض الحلى وصناعات المجوهرات » . أزهار الأفكار ، ص ٢٥٦ .

Johnson : Economic Studies , pp. 110-111.

صدر الاسلام فهو يقول : « وخير الزبرجد الشديد الخضرة الصافي الجوهري ، ومعرفة الزبرجد الفائق المعمول المتحد كمعرفة اليواقيت برزاة وبرودة مذاقه وعمل المبرد فيه على مهل » وكان لا يوجد منه الا في خزانة بعض الخلفاء العباسيين .

ونقل التيفاشي عن البيروني أن الزمرد والزبرجد اسمان يترادفان على معنى واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر في الجودة والندرة ، ولكن أهل الصناعة فانهم يميزون بينهما ، فلا شك أن الزمرد في تركيبه الكيميائي يختلف عن الزبرجد (١٨) ، ويصف التيفاشي لون معدن الزبرجد فمونه أخضر مغلوق اللون ومونه أخضر مفتوح اللون ، ومونه معتدل الخضرة ، رقيق المستشف وكانت الهند والفرنج تعظمه . وقد ظل المصريون يستخرجون هذا النوع من الزبرجد النادر حتى عام ٦٤٠ هـ أو ما قبل ذلك بقليل ، كما يقول التيفاشي : « وأما في هذا التاريخ الذي وضعه فيه هذا الكتاب وهو عام ٦٤٠ هـ فانه لا يوجد في المبدأ أصلا ، وانما الموجود منه يستخرج بالنبس من الآثار القديمة التي بثغر الاسكندرية » وهكذا يمكن القول بأنه حتى زوال الدولة الفاطمية كانت مصر تعمل على استخراجها وتشتغل بتجارته ولها الشهرة في مجال تصديره الى الخارج (١٩) .

وكما تشير المصادر الى استخراج الياقوت من مناجم الذهب التي كانت تقع في المنطقة الممتدة بين نواحي قفط وساحل البحر الأحمر أو ما أطلق عليها في العصر الحديث بجبل زبارا (٢٠) ، ولم يتحدث عنه المؤرخون المسلمون كسائر الأحجار الكريمة أو النفيسة مثل الزمرد والزبرجد أو اللؤلؤ ، وعن اشتغال أهل الصعيد الأعلى باستخراجها من مناجمها ، كما أشار التيفاشي مثلا الى استخراجها من جزيرة خلف سرنديب .

وعلى كل حال فإن استخراج الياقوت والاشتغال به لم يكن عملا اقتصاديا يذكر كما هو الحال بالنسبة للمعدن المعروف باللؤلؤ ، فقد كان

(١٨) فالزمرد تركيبه الكيميائي من سليكات البريليوم والالمونيوم بصلادة قدرها ٧,٥ ، وكثافته نوعية ٢,٧ ومعامل انكسار ١,٥٧ ، أما الزبرجد فيتكون من سليكات الماغنسيوم والأكسيد ودرجة صلادته ٦,٥ - ٧ ومعامل انكسار الضوء فيه ١,٦ - ١,٧ وكثافته النوعية ٢,٣ وتتميز عنه بلون أخضر صافي . التيفاشي : أزهار الأفكار ، ص ٢٥٥ .

(١٩) يتحدث عنه الجاحظ وشهرة مصر به خلال القرن الثالث الهجري فهو يقول : « ومن مصر المعدن الزبرجد الفائق » . التبصر بالتجارة ، ص ٣٥ .

(٢٠) كان الياقوت من بين المعادن النفيسة التي أشار اليها Heliororus في معرض حديثه عن المناجم والحفائر التي كان يعمل بها المصريون خلال القرن الرابع الميلادي . Johnson : Ibid, p. 110.

من بين موارد الثروة التي عني باستغلالها في منطقة البحر الأحمر (٢١) ، ويشير ابن جبير الى اهتمام أهل عيذاب في العصر الاسلامي باستخراجه من الجزائر القريبة من ساحل البحر الأحمر ، حيث كان يخرج الغائصون الى تلك الجزر في زوارق يقيمون فيها أياما ، فيستخرجون اللؤلؤ من قاع البحر وهو جوهر نفيس له قيمة عظيمة ، فكانوا يجمعون منه الشيء الكثير .

ويظهر أن نوع اللؤلؤ المستخرج من البحر الأحمر لم يكن ينافس اللؤلؤ الصافي العماني في جودته ، أو في ثمنه الذي كان يباع به لدى الجواهريين في الفسطاط وغيرها من المدن المصرية (٢٢) . ولكن يبدو أن أهل عيذاب كانوا يستخرجون منه المقادير الكبيرة التي تدر عليهم أموالا طائلة خلال العصر الفاطمي .

ومن المعادن التي اشتهرت بها مصر في العصور الاسلامية الشب والنطرون ، فلم يقتصر الأمر على استخراج المعادن النفيسة أو الأحجار الجريمة ، بل عرف عمال المناجم سبيلهم الى استخراج معدن الشب من الواحات الخارجة بالقرب من مدينة أسوان (٢٣) ، وكان يتكلف استخراج القنطار منها ما يوازي ثلاثين درهما أو أقل من ذلك . وتهبط به الغرب الى سواحل النيل عند قوص واخميم وأسيوط ، وكذلك من الواحات حيث يتم استخراجه الى البهنسا ، ثم يحمل من هذه السواحل جميعها في المراكب الى الاسكندرية .

وكان معدن الشب من بين الموارد التي احتكرت الحكومة الفاطمية عملية استغلالها تماما ، وكان ما يباع منه في المتجر بالاسكندرية نحو خمسة آلاف قنطار ، وسعره من خمسة دنانير الى خمسة دنانير وربع لكل .

(٢١) ويوضح لنا الجاحظ أنواع اللؤلؤ المعروف في عصره فيقول : « وخير اللؤلؤ الصافي العماني المستوي الجيد ، فهو أنفوس وأرفع من القلزمي (أي المستخرج من البحر الأحمر قرب القلزم) وإذا بلغت الحبة نصف مثقال سميت درة ، والمدرجة المعتدلة في التدور ، إذا بلغ وزنها نصف مثقال ربما بلغت في الثمن ألف مثقال من الذهب . والبيضية (أي ذات الشكل البيضاوي) دون ذلك في الثمن . التبصر بالتجارة ، ص ١٧ . »

(٢٢) ذكر التيفاشي المتوفى سنة ٦٥١ هـ أن اللؤلؤ القلزمي ولو كانت الدرة منه في نهاية الكبر فانها لا يكون لها طائل في الثمن إذ لبس فيها شيء من أوصاف الدر النمين . أزهار الأفكار ، ص ٤٩ .

(٢٣) من المدير بالذكر أن الواحات القريبة ظلت كوزة جليظة ذات أشجار ومزارع حتى غطرت الطولونيين والاششيديين ، ويشير المقدسي الى ذلك فيقول : « والى اليوم يوجد فيها صنوف الثمار والأغنام والنعم قد توحشت » أحسن التقاسيم ، ص ٢٠١ .

قنطار ، ولم يكن يباع منه بالقاهرة أكثر من ثمانين قنطارا بسعر القنطار سبعة دنائير ونصف . وهكذا كان يدر على الدولة الفاطمية عائدا كبيرا بفضل سياسة الاحتكار التي اتبعوها .

أما عن معدن النطرون (٢٤) فكان يستغل من منطقتين أحدهما تسمى الطرانة من أعمال البحيرة بالوجه البحرى ، ويذكر صاحب التعريف أنه لا يعلم فى الدنيا بقعة صغيرة يستغل منها أكثر مما يستغل منها ، فإنها نحو مائة فدان تغل نحو مائة ألف دينار فى كل سنة .

أما المنطقة الثانية التى يتم استخراج النطرون منها فهى منطقة فاقوس بشرق الدلتا ، ولم يكن من الجودة كالمستخرج من منطقة الطرانة ، وهناك مكان آخر كان يوجد به رواسب للنطرون بالقرب من البهنسا بالوجه القبلى وتبلغ مساحته حوالى المائة فدان . وقد قيل عنه أنه بدى فى استغلاله منذ عهد أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) وأن الأيراد السنوى الناتج منه كان يربو على الخمسين ألف دينار .

وكان استخراج النطرون مباحا للناس منذ الفتح العربى ، وكان أول من حظر عليه هو أحمد بن مذهب ، وجعله فى ديوان السلطان ، وظل كذلك حتى عصر المماليك ، وقد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه فى كل سنة عشرة آلاف قنطار ويعطى الضمان منها فى كل سنة قدر ثلاثين قنطار يتسلمونها من الطرانة فتباع فى مصر .

ويذكر ابن ممتى أن استخراج النطرون كان فى طور محدود سنة عشرة آلاف قنطار ، ويعطى الضمان منها فى كل سنة قدر ثلاثين لا يتصرف فيه غير المستخدمين من جهة الديوان ، وكان ينفق على كل قنطار منه درهمان ، مما يدل على ضعف الأجور التى كان يتقاضاها العمال أو الأجراء ممن يعملون فى مناطق استغلال النطرون . وكان ثمن القنطار منه بالفسطاط أو الاسكندرية لضيق الحاجة اليه سبعين درهما .

وكان أكثر المهتمين باستخراجه وحمله الى الجهات التى يباع فيها هم العربان خلال العصر الفاطمى ، يقول ابن ممتى : « والعادة المستقرة أنه متى اتفق من الديوان مع العربان على أجرة حمولة عشرة آلاف قنطار ألزموا بحمل خمسة عشرة ألف قنطار ، حسابا عن كل قنطار

(٢٤) النطرون مادة طبيعية تتكون من كربونات الصوديوم وبيكربونات الصوديوم ويوجد النطرون فى مصر فى الوقت الحاضر فى ثلاث مناطق وهى وادى النطرون ومديرية البحيرة وفى الكاب بالوجه القبلى . لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٤٠٠ .

ونصف ، مما يدل على وفرة انتاجه والزام الذين يتكفلونه بالنقل العمل على حمل النصف تقريبا بدون اجرة تدفع لهم .

ومن الجدير بالذكر أن معدني النظرون والشب من المواد الهامة التي كانت تستخدم في كثير من الحرف والصناعات ، وعلى الأخص حرفة الصباغة وصناعة الألوان .

٢ - صناعة الأدوات والآلات الحديدية والنحاسية وفن التكفيت

أشرنا من قبل الى أنواع المعادن التى أمكن للمصريين استخراجها منذ الفتح العربى لمصر ، ويجدر بنا أن نشير الى أنواع المعادن التى كانت مصر تحصل عليها من الخارج والتى تدخل فى صناعة الآلات والأدوات التى قام بصنعها الحدادون والنحاسون أو الصفارون وغيرهم من صناع الأدوات الحديدية والنحاسية فى مصر الاسلامية .

وتكاد تجمع المصادر العربية على أن معادن الفضة والحديد والرصاص والنحاس كانت تستوردها مصر من خارج البلاد (١) ، ولم يكن المستخرج منها فى العصر الاسلامى يكفى حاجة مسابك النحاس وغيرها مما تطلبته هذه الصناعات المعدنية المختلفة . ويبدو أن الصناعة المصرية لم يكن يتعذر عليها الحصول على المواد الخام مثل الحديد والنحاس والزئبق وغيرها فى أعقاب الفتوحات الاسلامية ، لا سيما وأن الجهات التى أشار اليها الجغرافيون والرحالة أصبحت فى حوزة الدولة الاسلامية ، وكانت تنتج من أنواع

(١) على الرغم من وجود خامات الحديد فى بعض المناطق المصرية ، إلا أن هناك من الدلائل ما يشير الى حصول الملك توت عنخ آمون على خنجر من الحديد وكمية أخرى من الحديد قد اهديت له من أحد ملوك غرب آسيا موطن صناعة الحديد اذ ذاك . ويقسول : لوكاس « ولا بد أن الحديد كان نادر الوجود أيضا فى كل من سوريا وفلسطين حتى نهاية الأسرة الثامنة عشر على الأقل : المواد والصناعات ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ .

المعادن مما يكفي لمصر وغيرها من الولايات الإسلامية في عصر الولاة والعصور
اللاحقة (٢) .

يعزز ذلك مما أوضحه اليعقوبي من أنه كانت توجد بمدينة مجانة
بالقرب من مدينة القيروان معادن الفضة والكحل والحديد والرصاص ، كما
أشار كل من الإدريسي والقزويني إلى مدينة بجاية بالمغرب الواقعة على
ساحل البحر المتوسط وكان بها مناجم للحديد الطيب ، ويصف القزويني
بلاد القيروان بأنها تضم معادن الفضة والحديد والنحاس والرصاص .
ويتحدث عن جزيرة صقلية وخيراتها التي فتحتها المسلمون خلال القرن
الثالث الهجري ما بين عامي ٢١٢ هـ - ٢٩٦ هـ ، ويخص بالذكر معادن
الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وكذا معدن الشب والزئبق ،
وكلها من المواد الداخلة في الصناعات المعدنية .

ويذكر ابن حوقل أنه كانت تجلب من الأندلس من أنواع التجارة
معادن الحديد والرصاص وضروب من القرش كقطع الأرمي ، كما يشير إلى
وجود معدن الحديد بمدينة بونه المغربية بكميات وفيرة ، ولم تقتصر بلاد
المغرب في صدر الإسلام على استخراج مواد الحديد بل كانت هناك المسابك
الخاصة بالحديد والنحاس ، كما هو الحال في مدينة فاس المغربية .

ويوضح كل من ابن زولاق والمقدسي حركة النشاط التجاري بين
مصر والمغرب والأندلس خلال القرن الرابع الهجري وما كانت تستورده
أيضا من بلاد المشرق الإسلامي ، يقول ابن زولاق وتحمل إلى مصر من بلاد
المغرب معادن الحديد والنحاس والفضة والرصاص والقصدير وغير ذلك
من سائر المواد . وكان يحمل من تجارة اليمن وعدن إلى القلزم من أنواع
الصبر والحديد والرصاص والصندل والبلور والقلفل ، كما كانت تستورد
من بلاد الشام من نوع الرصاص الجيد ، يقول عنه ياقوت : « ليس في
الدنيا معدن الرصاص القلعي إلا في هذه القلعة (٣) » .

وكما كان يستورد من بلاد المشرق الإسلامي مواد الحديد والنحاس
والفضة وخاصة من بلاد فارس والهند ، وكان الحديد أكثر ما يؤخذ

(٢) يرجع تاريخ أقدم دليل لاستيراد النحاس من الخارج - فيما عدا شبه جزيرة سيناء -
إلى الأسرة الثامنة عشرة ، إذ كان النحاس يرسل إلى مصر من جهات سوريا وغرب آسيا .
كما عثر على لوحة يرجع تاريخها إلى حكم أحد ملوك الأسرة الثانية عشر ، ذكر عليها أن
الملك قد كلف موظفا مينا اسمه حورس أن يحضر نحاسا من بلاد النوبة . نفس المرجع ،
ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٣) يشير ياقوت إلى إحدى جبال الشام وكان يسمى القلعة وكان يوجد بها نوع من
الرصاص الجيد . معجم البلدان ، ص ٧٨ ، ١٤٨ .

مها (٤) ، كذلك من اقليم سفالة (موزمبيق) وكانت مناجمه تستغل ويؤخذ منها الى الهند للصناعة ومن أوراق الجنيزة التي ترجع الى العصر الفاطمي يمكن معرفة المواد المختلفة التي كانت تصدر الى مصر كمادة خام الحديد والصلب غير المصنعة الى القسطاط .

وهكذا توفرت مصادر الحديد والنحاس وغيرها من الخامات اللازمة للصناعات المعدنية ، ولا شك أن وفرة المعادن والعمل على استخراجها سواء من بلاد المغرب والأندلس ، أو ما تم استخراجه من مصر وبلاد الشام والمشرق الاسلامي ، انما يعنى اهتمام الحكام والخلفاء المسلمين وتكريس الجهود من أجل صناعة الآلات والمعدات التي تطلبها مستلزمات الحضارة وسائر الفنون ، وخاصة مطالب الزراعة والصناعة والعلوم .

وقد احتفظت الاسكندرية بعد الفتح العربي بما اشتهرت به من صناعة التحف المعدنية والأحجار الكريمة ، كما ازدهرت بها صناعة الأطباق والأواني المنزلية التي كانت تصدر منها الى القسنطينية منذ العصر الروماني والبيزنطي .

ومما لا شك فيه أن الفيوم وعاصمتها (أرسينوى) والبهنسا وأفروديتو بوليس (كوم اشقاو) وغيرها من المدن المصرية ظلت تنتج من الأدوات والآلات المعدنية في فجر الاسلام على أيدي الحدادين وغيرهم من الصناع ما كانوا يصنعونه من الأدوات والآلات ومن المسامير الحديدية وغيرها قبل مجيء العرب الفاتحين الى مصر وتأسيسهم لمدينة القسطاط (٥) .

وقد اهتم الحكام العرب في مصر وغيرها من الأقطار الاسلامية بحرفة الحدادة والحدادين ، فهي إحدى صناعات الأشراف في صدر الاسلام (٦) . ولم يقتصر عمل الحدادين على صناعة أنواع الآلات الحديدية البسيطة ووسائل الزراعة التي كان يحتاج - وما يزال - اليها الفلاح المصري ، بل

(٤) يشير ابن حوقل الى غنى بلاد فارس وما كانت تستخرجه من المعادن خاصة من الغضة والحديد والكبريت والنفط واشباه ذلك . المسالك والممالك ، ص ٢١٥ .

(٥) ويضم المتحف القبطي بالقاهرة مجموعات من المفاتيح المصنوعة من الحديد ، وفيها ما هو مطعم بالبرونز ، ومن الملاعق تجويفها من الصدف وأيديها من الحديد ، وكذلك من المقصات والمزيمات وأدوات الزراعة المصنوعة من الحديد عبارة عن فتوس ورؤوس ومناجل وغير ذلك ، مما يرجع تاريخ صناعتها فيما بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر الميلادي ، وهي تنسب الى كل من الفيوم وادفو وغيرها من المدن المصرية .

(٦) ذكر ابن رسته أن العاص بن هشام كان حدادا ، والوليد بن المغيرة كان حدادا أيضا ، الأعلام النفيسة ، ص ٥٣٦ .

صنعوا الأدوات اللازمة للعمارة مثل الأقفال والأبواب الحديدية (٧) ، كما قاموا بصناعة الصنج والأوزان المختلفة من الحديد (٨) وقد وصلتنا مجموعة من الصنج المصرية تشتمل على أسماء بعض الأمراء الذين تولوا حكم البلاد في العصر الأموي والعباسي ، منها صنج ترجع الى العصر الأموي باسم الأمير قرة بن شريك (٩٠ - ٩٦ هـ) وباسم الأمير حفص بن الوليد ١٢٥ هـ والأمير عبد الملك بن مروان (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) .

ومن العصر العباسي وصلت بعض الصنج الحديدية التي تحمل اسم د الأمير صالح بن علي (١٣٦ هـ / ٧٥٣ م) والأمير عبد الملك بن يزيد ، وباسم الأمير محمد بن الأشعث ، وباسم الأمير يزيد بن حاتم ، والأمير محمد بن سعيد وغيرهم .

وقد نسج الصناع الأقباط على منوال أسلافهم ، حيث سادت التقاليد الفنية القديمة في صناعة الأدوات والأواني المعدنية سواء من الحديد أو النحاس والفضة ، ويضم متحف الفن الاسلامي مجموعة من أطباق النحاس بأشكال مختلفة ترجع الى القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، وبعض الشمعدانات المصنوعة من البرونز التي ترجع صناعتها الى فجر الاسلام .

وتوجد في المتاحف الخارجية مجموعة من الأباريق البرونزية التي صنعت في تلك الفترة ذات مقابض طويلة وصنابير ممتدة مزينة بأشكال آدمية وحيوانية ، كما تضم أيضا مجموعة من التحف المعدنية جاءت على أشكال الحيوانات والطيور محرفة عن الطبيعة ، من هذه المجموعة مباخر وآنية للماء على هيئة بطة أو حمامة أو ديك .

وهكذا ظلت صناعة المعادن وزخرفتها في العصرين الأموي والعباسي حرفة الأقباط في مصر ، حيث استخدموا كثيرا من الأدوات المعدنية في كنائسهم وذلك خلال القرن الأول الهجري . وبدأ المسلمون بعد انتشار الاسلام في البلاد في القرن الثاني الهجري في العمل على تقليد الأقباط

(٧) عرف المصريون صناعة الأبواب الحديدية قبل الفتح العربي ، وقد أشار بئر الى الباب الحديدى تجاه الخندق والمرسى في الجهة الجنوبية من الحصن المعروف بحصن بابليون . وهناك مجموعة من الأقفال الحديدية التي قام الحدادون بصنعها في كل من البهنسا والقيوم وترجع الى سنة ٦٢١ م . فتح العرب لمصر ، ص ٢١٨ .

Johnson : Economic Studies, p. 118.

(٨) وكانت دار العيار بالفسطاط تعمل بها تلك الصنج والأوزان ، المقريزي : الحطاط ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

فى صناعة أشكال كثيرة من الأدوات المعدنية من النحاس والبرونز كالمسارج وغيرها .

ومن الجدير بالذكر أن معظم الأواني النحاسية وغيرها من الأدوات المعدنية كان يتم صهرها وإعادة تشكيلها من جديد ، وربما كانت التحفة المعدنية الوحيدة التى ترجع الى العصر الأموى هى إبريق مروان بن محمد ، وقد عثر عليه فى ناحية أبى صير الملق فى إقليم الفيوم . ومهما كان من أمر اختلاف الباحثين حول المكان الذى تم فيه صناعة هذا الإبريق (٩) ، فإنه يعد التحفة البرونزية التى تكشف لنا عن الدقة والرشاقة التى بلغتها صناعة التحف المعدنية فى ذلك العصر . وقد شاعت فى العصر الأموى صناعة هذا النوع من التحف البرونزية التى نهجت فى أسلوبها الأسلوب القديم حتى صار من المتعذر معرفة ما صنع منها قبل ظهور الاسلام . وبعده ، حيث حافظ الحكام المسلمون على التقاليد الصناعية النافعة فى البلاد التى فتحوها فى صدر الاسلام .

وتشير المصادر الى بعض الصناعات المعدنية مثل عمل المسامير والمثبتات والمراسى والسلاسل ، وما يستلزم دور الصناعة وحاجة بناء السفن منها . كما تشير المصادر الى خبرة الحدادين والسباكين وغيرهم من الحرفيين (١٠) ومعرفتهم التامة فى ذلك الوقت بأنواع الحديد وطريقة صناعة الآلات والمعدات التى تخص كل نوع منها ، وذلك بحسب أسمائها فيقال حديد معمول ، وحديد مصفى ، وحديد شق الفأس ، وحديد سكين ، وحديد مسله ، وحديد مسمار ، وحديد بنادقي ، وهكذا بحسب استغلال الحديد ونوعه .

وقد ذكر المؤرخون أنه حينما حضر الى مصر الخليفة العباسى المأمون عام ٢١٧ هـ ، ورغب فى معرفة باطن الأهرام أرسل فى طلب الحدادين وأمرهم أن يجمعوا من آلاتهم الحديدية ويحدونها والمناجيق ، وأنه أنفق فى ذلك مالا عظيما فى سبيل الكشف عما هو مخبوء فى باطن الهرم من الكنوز والمطالب ، وقد وجدوا منها الكثير .

(٩) من المحتمل أن يكون قد صنع فى مصر التى اشتهرت منذ عصورها القديمة بصناعة المعادن ، وإن كان عبد الرؤوف على يوسف يذهب الى أن صناعة الإبريق تمت فى سوريا ، لا سيما وأنه يتبع الطراز الساسانى فى الصناعة والزخرفة .

(١٠) كانت المدن المصرية تضم من طوائف الحدادين والسباكين منذ العصر البيزنطى أعدادا كبيرة كما كان فى مدن أكسيرنخوس (البهنسا) وأنطونيوبوليس (الشيخ عبادة) بإقليم المنيا .

Johnson : Economic Studies, pp. 152-154.

ومن أسماء الحدادين التي وردت على شواهد القبور والتي ترجع الى
أواخر عصر الولاة وأوائل حكم الطولونيين ، شاهد باسم سعيد بن عبد الله
الحداد مؤرخ في ربيع الأول سنة ٢٧٤ هـ ، وآخر باسم عمره ابنة عبد الله
المعروف بجديد الحداد . ومن الصعيد شاهد باسم بهره ابنة اسماعيل
ابن عبد الله اسماعيل الحداد . كما تحمل الشواهد الجيرية اسم محمد
ابن طالب بن محمد بن الحداد مؤرخ بسنة ٣٣٢ هـ ، وشاهد آخر من
عصر الاخشيديين يحمل اسم أحمد بن حماد الحداد ويرجع تاريخ وفاته
الى صفر سنة ٣٥٢ هـ .

ومن الأسماء التي اشتهرت بحرفة الحدادة في عصر الاخشيديين
أيضا ، كان أبو بكر محمد بن محمد بن جعفر الكتاني المعروف بابن الحداد،
وقد أخذ العلم عن القفال المروزي (أى صانع الأقفال الحديدية) وكان من
الأئمة الكبار ، وقد توفي ابن الحداد سنة ٣٤٤ هـ بالقسطنطينية ، وكان
أجداده وآبائوه يتوارثون هذه الحرفة فنسب اليها .

وكما يضم المتحف مجموعة من مسارج البرونز المصنوعة على شكل
طيور وبعضها ذو مقابض تعلوها صلبان أو رؤوس حيوانات (١١) ، فانه
يحتفظ بمجموعة من شواهد القبور كذلك تشتمل على أسماء بعض
الصفارين أو صناع الأدوات النحاسية ، منها شاهد رخام مؤرخ
في ربيع الآخر سنة ٢٣٦ هـ باسم « علم جاريه زكير بن يحيى الصفار »
وشاهد آخر من جهة عين الصيرة يرجع تاريخه الى شهر رجب سنة ٢٤٨ هـ
ب سبتمبر سنة ٨٦٢ م باسم كامل بن منير الصفار ، وشاهد رخام من
حفائر القسطنطينية مؤرخ في شعبان سنة ٢٧٢ هـ باسم رهج أم ولد يحيى
ابن ميمون بن نجيج الصفار ، وشاهد حجر رملي باسم رحمة بنت يحيى
ابن كامل بن سعد الصفار ، مما يدل على كثرة صناع الصفر بمدينة
القسطنطينية في القرن الثالث الهجرى .

وكما قام الصفارون بصنع المكايل من البرونز للسوائل وغيرها (١٢) ،
فانهم صنعوا أيضا الأواني الفضية ، وإن كانت مصر لم تحتفظ بشيء من
تلك الأباريق الفضية التي زخرفت برسوم حيوانات وطيور كما كان من
زخارفها البارز والمحفور .

(١١) يضم المتحف مجموعة من الشوربات (المباخر) المصنوعة من الفضة والبرونز
وهي تنسب الى فجر الاسلام .

(١٢) الصفار هو صانع الأدوات والأواني والقدور من نوع النحاس الأصفر .

وفى عهد الطولونيين والاختشيديين أمدت مظاهر النهضة الصناعية الى المعادن ، حيث راجت صناعة الحلى والأدوات النحاسية ، وقد ظهرت بوضوح فى زخرفة التحف المعدنية عن طريق الحز والحفر والتخريم وتشكيل الأواني المصنوعة من النحاس . ولا غرابة فى ذلك فقد أنشئت مسابك النحاس بالقسطاط (١٣) ، كما وجدت دار النحاس بالقرب من سويقة معتوق بالقسطاط ، وسوق النحاس التى كانت تقع بالقرب من جامع عمرو بن العاص ، كما وردت الاشارات منذ الفتح العربى ، فقد أشار ابن عبد الحكم الى دار مجاهد بن جبر التى اختطها فى النحاسين . وهكذا حفلت القسطاط بمظاهر رواج وتقدم صناعة النحاس والأسواق التى تضم مجموعة الحوانيت لبيع الأواني المنزلية وغيرها من المستلزمات المصنوعة من النحاس .

ولا شك أن القسطاط العاصمة المصرية كانت تزخر بالعديد من هؤلاء صناع الحديد ومن غيرهم من أصحاب الحرف ، يؤيد ذلك أنه كان بالعاصمة عدة دروب ورحاب وخوخ تحمل أسماءهم فكان بها زقاق القفاصين وزقاق الرزازين ودرب الحدادين ، كما كانت دار الضرب ودار العيار بالقسطاط تضم العديد ممن يعملون بحرفة الحدادة والسباكة وغير ذلك من سائر الحرف والصناعات .

وقد ازدهرت الصناعة فى عصر الفاطميين ، وأصبح عمل المصانع ليس مقصورا على امداد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى والملابس لطوائف الجند ، بل تنوعت المنتجات والمصنوعات لتغطية احتياجات الأسواق الخارجية من المنتجات المصرية ، فضلا عن الحاجة لسد متطلبات القصور الفاطمية ورجال الدولة وعامة الشعب وأصبحت مصر تستورد خام الحديد من دلماشيا وصقلية وشمال افريقيا .

كما أتقن الصناع المصريون فن تسقية الفولاذ ، ومما ساعدهم على ذلك انشاء مسابك خاصة بالفولاذ بالقسطاط ، وكان موضعها بأرض الحسينية خارج باب الفتوح بالقاهرة .

ولا شك أنه كان للحكام الفاطميين دور ملحوظ فى توفير خامات الحديد وغيرها من المواد ، فقد عملوا على انشاء المتجر الخاص بهم ، وكان

(١٣) أشار ابن دقماق الى مسابك الفولاذ ومسابك النحاس وغير ذلك مما بلغت به مدينة القسطاط من وفرة المسابك والمطابخ ومظاهر الصناعة بها ، لكنه لم يوضح لنا شيئا عن تاريخ معين لقيام أو انشاء مثل هذه المسابك أو المصانع .

يحتوى على الكميات الوفيرة من أنواع الأخشاب والحديد والطواحين ،
مما تحتاج اليه الصناعات المعدنية وغيرها .

كما كان للحكام الفاطميين أيضا اهتمام كبير بدار العيار وصناعة
الأوزان المختلفة من الأبطال الحديدية وغيرها (١٤) ، وقد أشار المقدسى
الى أن الفاطميين اتخذوا فى شمال افريقيا صنجا من رصاص وجاءوا بهذه
الصنج معهم الى القاهرة ، وانتشرت صناعتها فى عهدهم ، وقد وصل اليها
بعضها من بين مقتنيات المتحف الاسلامى .

وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الاسلامية بالعراق والشام
ومصر وغيرها ، وقد تطورت صناعة البندق من الطين والحجارة الى صناعتها
من الرصاص فى مصر ، وكما يشير المقرئى فقد أصبح لها خط يسمى
بخط البندقين نسبة الى صناعة البندق .

ويذكر ناصر خسرو أنه كان بمدينة تنيس صناع كثيرون يصنعون
من آلات الحديد مثل المقصات والسكاكين وغيرها ، ويقال : « انه رأى
مقراضا فى مصر من صنع تنيس ثمنه خمسة دنانير مغربية » .

كما صنع الحدادون المفاتيح الحديدية المطعمة بالبرونز ومطارق
الأبواب بأشكال فنية ، وكذلك قدور الرصاص التى كانت تستعمل فى
الحمامات ، والأدوات الدقيقة مثل الابر والمسلات التى كانت تصنع من
حديد الفولاذ . ويشير الشيزرى الى غش الحدادين وما يجب أن يراعيه
كل حداد فى صناعة السكاكين أو المقاريض ، فلا يضرب سكيناً أو مقراضاً
من حديد الأرمهان ويبيعه على أنه فولاذ ، ولا يجب على الحداد أن يخلط
المسامير الرجعية المطرقة بالمسامير الجديدة .

ومن المحدثين والأدباء من اشتهر فى عصر الفاطميين بحرفة الحدادة ،
وكان يتكسب منها قوته ومعاشه ، وكما نسمع عن أحد الأئمة الشافعية
الفقيه القفال المروزي الذي كان يصنع الأقفال الدقيقة ، فقد صنع قفلاً
رثته أربع حبات فقط ، فأننا نذكر من هؤلاء الأدباء المشهورين فى مصر
الشاعر السكندري أبا منصور طافر بن القاسم الحداد ، وكان يزاول
صناعة الحدادة ، ومما يذكر أنه استدعى يوماً الى قطع خاتم كان قد ضاق
فى أصبح والى الاسكندرية الأمير السعيد بن مظفر ، وقد أنشد بمناسبة
قطعه لخاتم الأمير شعراً .

ومن هؤلاء الفقهاء من أصحاب الصنعة كان أبو بكر الحداد ، اشتهر

(١٤) كان لكل مدينة من المدن المصرية أبطال خاصة تتعامل بها عند الوزن بها ،
كمدن قوص واسيرط ومنفلوط وغيرها . وكان يتعين على البائعين أن يتخذوا الأبطال والأوزان
من الحديد ، ولا يتخذونها من الحجارة .

فى أواخر العصر الفاطمى بصناعته للمبارد الحديدية وكانت وفاته سنة ٥٥٢ هـ . وقد نبغ هؤلاء الفقهاء والشعراء فى علومهم كما تفوقوا فى صنعتهم كغيرهم من الصناع فى العصر الفاطمى ، ومما يدل على مهارة هؤلاء الصناع تلك المرايا التى صنعوها من الحديد المصقول والمحلاة بالذهب والفضة ، المكحلة بالجواهر النفيسة ، وقد وجدت صناديق مملوءة من هذه المرايا المخفوظة داخل أغلفة من الجلد المتين بخزائن القصور الفاطمية .

ومن الملاحظ أن الأدوات التى كانت تستخدم فى الأغراض المنزلية وخاصة المصنوعة من النحاس والبرونز ، كانت أكثر شيوعا وانتشارا عن صناعة الأدوات والآلات الحديدية منذ فجر الإسلام .

وتشير حفائر الفسطاط الى تلك الأنايب الصغيرة المصنوعة من النحاس المتخذة فى جدران الدور والبيوت بمدينة الفسطاط ، كما تشهد أعمال الصغار فى عهد خمارويه من قبل مجيء الفاطميين الى البلاد بمدى تفوق وانتشار صناعة النحاس والبرونز على غيرها من الصناعات المعدنية ، فقد ذكر المقرئ أن الصناع قاموا بكساء أجسام النخل من النحاس المذهب ، وجعلوا ما بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص لجريان الماء فيها وذلك فى البستان الذى أنشأه خمارويه والذى تميز عهده بالحياة الاجتماعية المترفة .

ازدهرت صناعة التحف المعدنية فى العصر الفاطمى ، وقام المصريون بإحباب معدن النحاس من أصفهان ، ومن بخارى النحاس الأصفر الذى كان يستعمل فى طلاء أعلى المنائر . وتشير وثائق الجنيزة الى جهود الفاطميين من أجل استحوادهم على تجارة الهند من أيدي منافسيهم العباسيين ، وكان جنوب غرب الهند مشهورا بمناجم النحاس وصناعة الأواني والأدوات البرونزية والنحاسية . كما تكشف أوراق الجنيزة (١٥) عن العديد من أسماء التجار اليهود الذين كانوا يتاجرون فى السلع القادمة من وإلى الهند وبلاد الشرق الأقصى خلال العصر الفاطمى ، ومن هؤلاء التجار من كان يملك مصانع لسبك النحاس الأصفر فى بلاد الهند (١٦) .

(١٥) تعنى كلمة الجنيزة ، المخزن الملحق بالمعبد اليهودى ، وكان هو المكان الذى تم اكتشافه ، وفيه مجموعة الأوراق المكتوبة بخط العبرى ، ولم تكتشف حتى الآن سوى جنيزة الفسطاط (مصر القديمة) .

(١٦) من هؤلاء التجار ورد اسم إبراهيم بن ييجو وكان من المهدية بتونس ويمتلك مصنعا للنحاس الأصفر فى الهند ، وتردد ذكر اسمه كثيرا فى أوراق الجنيزة ، وتحكى الأوراق أنه بعد موت ابنه الوحيد هناك عاد الى الفسطاط ليزوج ابنته الوحيدة الى واحد من أبناء العائلة الموجودين بمصر فى ذلك الوقت .

ويصف ناصر خسرو تلك الأواني النحاسية الكبيرة المصنوعة من النحاس الذي كان يستورد من دمشق ويقول : « وقد حدث مرة أن وجدت هناك (يعنى فى أسواق القسطنطينية) امرأة تملك خمسة آلاف من هذه الأواني ، وكانت تؤجر الواحدة منها بدرهم واحد فى الشهر ، وتدل رواية ناصر خسرو على أن مصر كانت تستورد أيضا النحاس من دمشق كما تدل على وفرة تلك الأواني الكبيرة المصنوعة من معدن النحاس فى ذلك العصر .

وقد صنع فنانون العصر الفاطمى الأواني النحاسية والبرونزية على أشكال الحيوانات ، وكانت فى الغالب أباريق من النحاس الأصفر ، ويصر ناصر خسرو على أن مصر كانت تستورد أيضا النحاس من دمشق كما المتحف القبطى من هذه التحف المعدنية منها الصواني والأطباق النحاسية عليها رسوم أسماك ونصوص قبطية ، وقد نقش عليها أسماء أصحابها وتاريخ صنعائها (١٧) ، ومن التحف المعدنية التى كانت تحفل بها القصور الفاطمية ما يدل على مهارات الصناع وتفوقهم فى صناعة تماثيل البرونز التى كانت تستعمل أحيانا مباحر أو صناير للأواني ، وأحيانا أخرى للزينة فحسب ، وبعض الأواني تم صنعها وتشكيلها على شكل طائر أو حيوان ، كان من أشهرها عقاب البرونز الموجود الآن فوق إحدى أروقة المقابر بمدينة بيزا فى إيطاليا .

وتشير المصادر الى أن القصر الفاطمى كان حافلا بالتماثيل المصنوعة من البرونز وغيرها والتى كانت تزين قاعاته الفسيحة . ومن أسماء هؤلاء الصناع لتلك التماثيل فى العصر الفاطمى نذكر سعيد بن على الذى جاء اسمه محفورا على إحداها ، كما ورد اسم عبد الله المثال على أحد هذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من البرونز (١٨) .

وتدل رواية ابن أبى الصلت على أن صناعة النحاس ظلت رائجة حتى

(١٧) تم العثور عليها فى كنائس الفيوم وترجع صنعائها الى القرن الرابع الهجرى ، وكان يستخدم القسس بعضها فى غسل أيديهم أثناء قيامهم بالقداس .

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، الكنوز الفاطمية ، ص ١٤٠ .

ومن التحف التى وجدت كذلك قدران من النحاس ومباحر وقباب ترتكز على أربعة أعمدة على كل منها صليب مفرع وعلى دائرة القبة والصلبان نصوص قبطية باسم الصناع والتاريخ فى القرن العاشر الميلادى .
نفس المرجع والصفحة .

(١٨) ورد اسم ذلك المثال ضمن توقيع حفر على تمثال لأسد من البرونز ، ترجع صنعائه الى سنة ٤٠٠ هـ وهو محفوظ الآن فى متحف كسل .

Wiet : Repertoire, tome, 6, No, 2139, p. 74.

أواخر أيام الفاطميين (١٩) ، وأن النحاس الخام كان يستورد من المغرب والأندلس (٢٠) .

ومما لا شك فيه أن الاسكندرية كانت إحدى مراكز صناعة النحاس والصناعات المعدنية الأخرى خلال العصر الفاطمي ، وهناك إشارة قصيرة إلى فندق الصفار الذي كان يقع على مقربة من الصبانة ذكر ذلك ابن جبير حين نزوله إلى الاسكندرية ، وتكشف لنا تلك الإشارة عن وجود أحد صناعات النحاس بالاسكندرية ، وأنه كان يملك فندقا أو وكالة بها تجار النحاس وغيرهم من الوافدين من بلاد المغرب والأندلس وغيرهم .

وكانت صناعة القناديل والثريات في مصر قد عمت شهرتها خلال العصر الفاطمي ، ويصف ناصر خسرو سوق القناديل بالفسطاط بأنه لا يعرف سوقا مثله في أي بلد وفيه كل ما في العالم من طرائف ، كما يشير المقرئ إلى رقاق القناديل وأنه كان من أعمار أخطاط مصر ، حيث كانت أبواب الدور يعلق على كل باب منها قنديل ، وقيل أنه كان به مائة قنديل توقد كل ليلة على أبواب الأكابر والأعيان .

ومما يدل على ازدهار هذه الصناعة ما كان الفاطميون يستخدمونه من القناديل في ليالي المواسم والأعياد ، يذكر ناصر خسرو أنهم كانوا يوقدون في ليالي المواسم أكثر من سبعمائة قنديل ، كما يذكر أن الخليفة الحاكم أمر سنة ٣٩١ هـ بإهداء جامع عمرو تحفة فضية عظيمة ، اشتملت على سبعمائة مصباح ، قيل أن وزنها خمسة وعشرون قنطارا من الفضة ، وبلغ من كبر حجم هذه الثريا الثمينة أن اضطر إلى هدم أحد أبواب المسجد لكي يتم تركيبها في مكانها داخل المسجد .

(١٩) كان أبو الصلت من علماء الرياضيات ومن مشاهير الأطباء أيضا ولد شاحبة دانية سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، وأقام بالأندلس مدة ثم توجه إلى مصر سنة ٤٨٩ هـ ، حيث بقى بها مدة ثم عاد إلى وطنه الأندلس مدة ثم توجه إلى مصر سنة ٤٨٩ هـ ، حيث بقى بها مدة ثم عاد إلى وطنه الأندلس وتوفي به سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م .

قدرى طوقان : تراث العرب في الرياضيات والفلك ، ص ٣٣٧ .

(٢٠) وقد حدث أثناء تواجده في عهد الوزير الفاطمي الأفضل أن غرقت إحدى السفن التي كانت تحمل خام النحاس بالقرب من الاسكندرية ، فعزم أبو الصلت على رفعه من قاع البحر فاجتمع بالوزير الأفضل وحاكم الاسكندرية حينذاك ، وطلب منهما تهيئة الظروف له وتزويده بالآلات اللازمة حتى يتمكن من رفع المركب الغارق ، إلا أن الرواية تكشف لنا عن عدم قدرته وتمكنه من ذلك .

ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٥٥ .

ولم تقتصر حاجة المساجد على القناديل والثريات ، بل كانت تعم
أيضا بالسلاسل النحاسية ، ويذكر المقرئ أن الحاكم بأمر الله أمر بعمل
تقدير ما يحتاج إليه جامع باب الفتوح من الحصر والقناديل والسلاسل
فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار .

والواقع أنه مع حياة الرخاء والاستقرار وخاصة في العصر الفاطمي
الأول ، وما تمتع به الأثرياء وعامة الشعب من مظاهر الترف والتعظيم (٢١) ،
فان الحاجة زادت الى الكثير من الأثاث والأدوات البرونزية والنحاسية ،
وكان لابد للصفايرين وغيرهم من صنّاع المعادن أن يفتحوا من الجرار
النحاسية والمعادن وأدوات الكتابة الشيء الكثير (٢٢) .

وكما اتقن الصنّاع أدوات الكتابة وحرصوا على تطويرها وتجميلها
لحفظ الأقلام والحبر مثل المقلّبات والمجبرات ، فانهم أبدعوا في صناعة
الشمعدانات الفاطمية فقد زينوها بالزخارف النباتية وبكتابات الخط الكوفي
المزهر .

كما صنع المصريون من آلات الموسيقى وأدوات الطرب كالنقارات
والصفارات والصنوج والأبواق وغيرها . وكانت تصنع من النحاس والذهب
والفضة ، وتستخدم في المواكب الفاطمية والأعياد .

وتوصل الصنّاع المصريون الى اختراع الآلات الدقيقة مثل الإبر
المغناطيسية (٢٣) وبتداول الساعات (٢٤) ، وآلات الجراحة الطبية الدقيقة
وخاصة تلك التي كانت تستخدم في جراحة العيون (٢٥) .

(٢١) وقد عبر المقدسي عن راحة الرعية وحسن السياسة التي اتبعها الفاطميون ،
فالكل سامع ومطيع ولا يخطب الا لأمير المؤمنين .

أحسن التقاسيم ، ص ٢١٢ .

(٢٢) المراد ما كان يصنع من النحاس المضروب الأضفر وهي خاصة بصناعة الغزل .
ابن الأخوة : معالم القبة ، ص ٣٢٩ .

(٢٣) كانت مصر شهيرة في صناعة وبناء السفن البحرية والحربية منذ الفتح العربي
وليس من المستغرب أن يكون المصريون من أوائل الشعوب التي اهتمت الى صنع واستخدام
الأبر المغناطيسية التي تستخدم في تحديد الاتجاهات الأربعة .

حسين مؤنس : عالم الاسلام ، ص ٣٣٥ .

(٢٤) كان أول من توصل الى اختراع بتداول الساعة وصنعة ابن يؤنس المصري المتوفى
سنة ٣٣٩هـ وكان أحد علماء الفلك البارزين في عهد الخليفة العزيز وابنه الحاكم .
سيديون : تاريخ العرب العام ، ص ٣٤٧ ، ترجمة عادل زعيتر .

(٢٥) من الذين نبهوا في جراحة العيون عمران الموصلي في عهد الخليفة الحاكم . ومما
لا شك فيه أنه استخدم مثل هذه الآلات الدقيقة .

Leclerc : Histoire De la Medecine Arabe, p. 511.

وتشير المصادر الى صناعة الاواني الفضية والآلات من الفضة المكففة بالذهب ذات النقش العجيب والصنعة الدقيقة ، وذلك في الوقت الذي شاعت فيه صناعة أدوات الفلك الدقيقة مثل الاسطرلابات بأنواعها المختلفة والمرايا وغيرها من الآلات التي أمكن استخدامها في الأغراض العلمية .

ومن الجدير بالذكر أنه كان أول من ألف في صنعة الاسطرلابات الفلكية اليهودية المصري ماشاء الله (٢٦) ، وقد وضع في أيام الخليفة المنصور « كتاب صنعة الاسطرلاب » ، مما يدل على تقدم المصريين منذ عصر الولاة في هذا المجال .

وقد شاع استخدام الاسطرلابات بين المصريين في العصر الفاطمي وذلك لشغفهم بشئون الفلك والتنجيم ، يقول أمية بن الصلت الأندلسي : « والمصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقاً عليها وشغفاً بها وسكوناً إليها » .

ومما يدل على حرص الفاطميين واهتمامهم بشئون الفلك والتنجيم منذ قدومهم الى مصر ، اهتمام الخلفاء بإنشاء المرصد الفلكي فوق جبل المقطم منذ عهد العزيز بالله ، وكان للرصد آلات تختلف باختلاف الأغراض ، وتحتاج في صناعتها الى خامات النحاس والرصاص وغيرها من المعادن وقد ذكر ابن اياس نقلا عن القضاء أن الأفضل عندما بنى الرصد الفلكي عند المسجد المطل على بركة الحبش (٢٧) ، كان فوقه كرة من نحاس أصفر قدرها قنطار ، وهي قائمة على عمود رخام من أجل تحرير الساعات وتحديد دخول أوقات الصلاة .

(٢٦) الاسطرلاب معناه باليونانية مقياس النجوم ، واصطر هو النجم ولاب هو المرأة ، وكان من أكثر الآلات المستعملة عند الفلكيين والمسلمين ، كما كان من الأدوات الهامة التي ساعدت على تقدم فن الملاحة في العصر الاسلامي ، بحيث أصبح من الميسور على السفن والمراكب السير في البحار ليلا ونهارا في البحار والمحيطات . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ، نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافيا ، ص ١٧٩ ، تراث الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢٧) ويذكر ابن ميسر أن المأمون البطائحي حينما أراد أن يتم ما بدأه الأنضل ويستكمل الرصد ، وذلك في حوادث سنة ٥١٧ هـ ، فانه تقدم شيوخ الصناعة الفلكية أبو عبد الله الحلبي وابن العيثمي وأبو جعفر بن حسداي وابن سد وأحمد بن مفرج الشاعر وابن قرقة ومعهم جماعة من العمال والصناع ، فوجدوا الطارة الواحدة قد فسدت فجمع السباكون وأحضر لهم ما يحتاج اليه من النحاس والذهب والفضة وسبكت الدائرة وأعيدت بحضرة الشيوخ بعد تعب كبير ومصروف كبير « وهكذا تدل رواية ابن ميسر على خبرة هؤلاء الشيوخ بصناعة الآلات الفلكية وكذلك جماعة السباكين الذين عملوا على تشكيل وسبك ما تحتاج اليه الدائرة الفلكية المطلوبة . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

ومن أسماء الصنائع الذين ذاع صيتهم في العصر الفاطمي ابن مزخرف النحاس ، ويبدو أنه كان شيخ طائفة النحاسيين (٢٨) . كما ورد اسم الشيخ عبد الجبار بن محمد المعروف بالنحاس وذلك في كتابه جنتائرية ترجع الى سنة ٥٥٤ هـ . بجبانة القرافة . ويظهر من نص الكتابة أنه كان يشغل وظيفة شيخ طائفة النحاسيين في أواخر أيام الفاطميين .

صناعة التكفيت في العصر الفاطمي :

وقبل أن نختم الحديث عن صناعات النحاس والبرونز ، تجدر بنا الإشارة الى ما اشتهرت به مصر في ذلك العهد من صناعة التكفيت فقد أجاد الصناع استعمال عدة طرق لتزيين المنتجات المعدنية المختلفة ، كان من أهمها طريقة الحز والترصيع بالمينا (٢٩) ومحاولة تطعيم ألوان النحاس والبرونز بالذهب والفضة

وكان من عوامل تقدم وازدهار صناعة التكفيت هذه اقبال المصريين على شراء مثل هذه التحف المعدنية (٣٠) . والعمل على اقتنائها في بيوتهم (٣١) ، حيث بدأ الفن يأخذ الصبغة الشعبية لدى الناس ، وأصبحت بيوت القوم وما فيها من مظاهر فنية تدل على هذه الصبغة الشعبية ولم يعد عمل الصناع وفنهم نابعا عن تلبية رغبة الحكام وميولهم الخاصة نحو اقتناء بعض التحف الفنية داخل قصورهم .

وهكذا عمل الصناع والصفارون في مدينة القسطنطين وغيرها على إنتاج قطع النحاس المكفت كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج والأواني المنزلية والموائد . ولا غرو فقد بلغوا في معرفتهم في ذلك العصر

(٢٨) دفن في سفح المقطم . المسبحي ، أخبار مصر ، ص ٢١٧ .

(٢٩) الحز هو إجراء حروز أو نقوش خفيفة غير غائرة على سطح المعدن وفقا للرسم معين يعمده الصناع قبل تنفيذه ثم يقوم بنقله على سطح المعدن الحز بآلة الحز الخاصة ذات النهاية المدببة التي تشبه آلة « الزينة » التي يستعملها الصناع الحاليون . حسن الباشا وآخرون : القاهرة - تاريخها - ، ص ٣٧١ .

(٣٠) تجلت روح الابداع على الخصوص في ترصيع التعداد الصالحة لصنع الأسنحة وفي الألوان والأباريق والأدوات المنزلية وما إليها . لوبون : حضارة العرب ، ص ٦١٧ .

(٣١) وقد عثر في أطلال القسطنطين على قرص صغير من الذهب ، ووجه هذا القرص مغطى بالمينا ، وهو مقسم الى ثلاثة أقسام ، في الأوسط كتابة كوفية بيضاء مزخرفة باللون الأحمر على أرضية سنجابية ، ونصها « الله خير حافظا » والقسمين الأعلى والأسفل زخرفة حمراء محدودة بالذهبي على أرضية خضراء والراجع أن هذه التحفة ترجع الى القرن الخامس الهجري . زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٢١ .

بخواص المواد الكيميائية وأوزانها النوعية ودرجة انصهارها وإعادة تشكيلها أو سبكها ، مما ساعدتهم على فهم ، وما تميزت به صناعة التكفيت وازدهارها في العصر الفاطمي .

وكان سوق المكفتين يشتمل على عدة جوانيت لعمل الكفت وهو ما يطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة (٣٢) . ويذكر المقرئى انه كان لهذه الصناعة بمصر رواج عظيم وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة ، فلا تكاد تخلو دار فى القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس مكفت ، لابد أن يكون فى جهاز العروس دكة نحاس مكفت (٣٣) وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ كبرها ما يسع نحو الأردب من القمح ، وطول الأكفات التى نقشت بظواهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض أصبعين نحو ذلك .

وقد أوضح المقرئى أنواع الدكك التى كانت بتات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب وأماثل التجار تطلبها فى جهازها ، منها ما يكفت بالفضة أو من النحاس الأصفر المكفت ، ومن الدكك ما كان يكفت بالنحاس الأبيض الى غير ذلك من أنواع التكفيت (٣٤) .

ومما يشهد بتفوق وازدهار صناعة التكفيت للمعادن فى العصر الفاطمي ، ما حوته القصور الفاطمية من تلك التحف المعدنية المكفتة فقد أخرج من خزائن القصر الفاطمي خلال سنوات السدة العظمى أيام الخليفة المستنصر آلاف الآلات من الفضية المكفتة بالذهب ذات النقش العجيب والصناعة الدقيقة . كما يذكر المقرئى أن الجند الأتراك أخرجوا من القصر نحو أربع مائة قفص مليوة بالأواني الفضية الثمينة المكفتة بالذهب ، وقد سبكت كلها ووزعت على الثوار من هؤلاء الجند الأتراك .

(٣٢) ويشير غوستاف لوبون الى صناعة التكفيف بالقاهرة فيقول : « وتارة يمر الصانع بمهارة عجيبة ، كما يفعل فى القاهرة بمنقشه الممازى الشكل بسرعة على المعدن الذى يرغب فى زخرفته ، فيركب خيط الفضة بالمدق على تلك الأجزاء المعدنة ليلصق بها متمسكه » . حضارة العرب ، ص ٦١٧ .

(٣٣) الدكة عبارة عن شيء يشبه السرير ، يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون ، وكانت تبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت نحو مائتى دينار ذهباً وزيادة . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

(٣٤) وكانت هناك طرق أخرى للتكفيف منها ما يعنى إدخال خيط من الذهب أو الفضة فى المعدن المراد تكفيته ويكون هذا الخط بارزاً أو مستويًا ، وأحياناً يتم تركيب زهرة من الذهب أو الفضة وذلك فى الأواني المصنوعة من الفولاذ أو النحاس ، وقد يتكرر رسم هذه الزهرة فى شكل متناسق . ريسلر : الحضارة العربية ، ص ١٢٤ .

٣ - صناعة الحلي والجواهر الكريمة

تشهد المتحف الذهبية التي وصلت إلينا من مصر الفرعونية بحذق الصائغ المصري ومهارته الفائقة (١) ، فقد نجح هذا الصائغ في طرق الذهب إلى أوراق غاية في الرقة كان يستعملها في تزيين الأثاث المصنوع من الخشب أو في طلاء المتحف النحاسية والفضية .

وفي السنوات الأخيرة جرى بمصر اكتشاف بعض القطع من الحلي الثمينة ترجع إلى العصر البيزنطي ، منها عقود رائعة من الذهب تتوسطها أنواط تحمل صور الأباطرة ، ومنها خواتم وأساور وخلخيل ، تدل على مهارة الصياغ وذوقهم الفني .

وكانت الاسكندرية - بطبيعة الحال - في مقدمة المراكز الهامة لصناعة أنواع الحلي والجواهر الكريمة (٢) ، كما أنتج الصانع في كل من البهنسا والشيخ عبادة ومدينة قفط بصعيد مصر من أنواع الحلي من العقود والخواتم والأقراط الذهبية ما هو محفوظ في المتحف القبطي وغيره من المتاحف المصرية .

كما يحتفظ المتحف القبطي بمجموعة من أقراط مصنوعة من الذهب الذهب على شكل عناقيد تم اكتشافها في الواحات البحرية ، وأيضا مجموعة

(١) عرف المصريون صهر المعادن وطرقها حتى كانت تصل سمك بعض المعادن المطروقة إلى أقل من ١ : ٥٠ من البوصة . وكان لحام المعادن بنفس مادتها مستخدما في صناعة الحلي منذ عهد الأسرة الأولى . جتري : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، ص ٢٦٧ .

(٢) يحتفظ المتحف البريطاني بمجموعة من أدوات الحلي ترجع صناعتها إلى القرن الرابع الميلادي تم اكتشافها في منطقة أبي قبر إحدى ضواحي الاسكندرية .

Ibid, pp. 116-117.

Ibid, p. 118.

من الدلايات والخواتم والأساور التي ترجع صناعتها الى تل أتريب بنواحي اخميم من العصر القبطي (٣) .

وعثر بدير القصير ومدينة هابو بالصعيد أيضا على مجموعة من أدوات الزينة مصنوعة من الفضة والبرونز ، وتشمل أساور وخلاخيل وأقراص وخواتم وقنينات للعطور وغير ذلك من أدوات الزينة والحلي (٤) .

وقد استمر الصناعات الأقباط في عصر الولاة في صناعة الحلي والجواهر الكريمة ، وتزينت المرأة بوضع القرط الدائري الواسع في أذنيها أو أقراطا على شكل عنقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهي برأس حية من كل ناحية ، وبعضها كان مبروما ينتهي برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر ، وكان بعض حليها الذهبية مرصعا بالجواهر الكريمة ، كما كانت تصنع عقدا ذهبيا أشبه « باللبة » المعروفة الآن في مصر (٥) .

وكانت تلبس الخلخال الذي يصنع من النحاس أو الفضة ، وقد ترغب المرأة الثرية في صناعته من الذهب . وهكذا كان على الصياغ أن

(٣) اشتهرت كل من كوم أوشيم بنواحي الفيوم وكانت من المدن العامة خلال العصر الروماني والبيزنطي ، ومدينة اخميم (بانوبوليس) بصناعة أنواع الحلي وأدوات الزينة ، وتوجد قائمة بمختلف المواد وأنواع الحلي التي صنعها الصياغ من الفضة والتي عرفت بقائمة Reil 57-FF

Johnson : Economic Studies, p. 117.

(٤) وقد ورد في دليل معرض الآثار القبطية عام ١٩٤٤م مجموعة من القلادات والأساور الذهبية والجامات التي ترجع صناعتها الى ما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين ، وهم تكشف لنا عن مدى احتفاظ المصريين بمهارتهم الفنية في صناعة الحلي وزخرفتها بأشكال وصور مختلفة .

دليل المعرض - مطبوع عام - ١٩٤٤ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

وكان من أهم استعمال الفضة منذ العصور المبكرة ، صنع الحوز والحلي والأقداح والأواني ، على أنها كانت تطرق كالذهب الى صفائح وأوراق رقيقة ، كما تستخدم في تزيين قطع الأثاث الفاخر من الخشب أيضا .

لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٣٩٥ .

Johnson : Economic Studies, p. 118.

(٥) ولا يعني افتقار العصر الاسلامي المبكر الى قطع الحلي أن العرب الفاتحين أو المسلمين الذين هاجروا الى مصر ، لم تكن نساؤهم تزين بالحلي الذهبية والفضة ، وربما يزدق ذلك الى طريقة دفن الموتى عند المسلمين التي لا تسمح بوضع شيء مع الميت من قطع الحلي ، والتي كان يعاد صهرها وإعادة تشكيلها من جديد . محمد عبد العزيز مرزوق . الفنون الزخرفية الاسلامية في مصر قبل الفاطميين ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

يلبوا احتياجات الناس بحسب درجة ثرائهم ، فالى جانب استعمال الفضة والذهب ، استعمل أيضا النحاس فى صنع بعض قطع الحلى مما كانت تتزين به المرأة فى الطبقات الفقيرة ، وصنعت من النحاس الأصفر الخلاخيل والأساور ، كما كانت تصنع منه قطع الحلى الصغيرة التى اقتصر استعمالها على الأطفال كوسيلة من وسائل الزينة .

ومن عوامل تقدم صناعة الحلى وأدوات الزينة وفرة استخراج الذهب من منطقة العلاقى ، ونشاط المصريين فى طلب البحث عن الكنوز الذهبية فى مقابل الفراعنة كما أشرنا من قبل ، كما أصبحت بغداد مركزا للتبادل فى المعادن النفيسة ، وذلك من منطقة الفضة فى الشرق الإسلامى ومنطقة الذهب فى الغرب . كما بلغت صناعة الحلى وأدوات الزينة فى قصور العباسيين ما يؤيد ذلك (٦) ، فقد قدر العرب قيمة الذهب والفضة ، فهو كما قال الجاحظ عن الذهب : « لا يدحضه خبث الكيز ولا يفسده مر الدهور » ويستحسن منه سبيكة وغير سبيكة . كما أنه من المعروف أن الجواهر الثمينة إنما يرغب فى اقتنائها الخلفاء والملوك والأمراء لعظم ثمنها والمباهاة بها عند العامة .

كانت مدينة الاسكندرية من أهم مراكز صناعة الحلى والجواهر فى مصر الإسلامية فقد بقيت الى ما بعد الفتح الإسلامى بزمان طويل تحافظ على صناعة الذهب وتطعيم المعدن ، ولم تلبث أن ازدهرت سائر الصناعات بها طوال العصور الوسطى .

وكما تشير المصادر الى وجود طائفة صياغ الذهب وصانعى الحلى من الفضة بها منذ فجر الاسلام ، فانه كان يستخرج بالقرب من شواطئها من أنواع الجواهر الشىء الوفير ، فقد ذكر المسعودى أنه كان حول منارة الاسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجواهر وتتخذ منه فصوص للخواتم يشبه أنواعا من الجواهر . وكان الجواهريون يركبون فصوص الفيروز وغيرها فى أنواع الخواتم حيث يكثر عامة الناس من استعمالها حتى ذلك الوقت .

ومما لا شك فيه أن وفرة أنواع الأحجار الكريمة من الزمرد والزمردج واللؤلؤ ، وما كان يستخرج منه . . . صنعيد مصر وساحل البحر الأحمر

(٦) كان من جنلة أدوات الزينة فى قصر الحليفة المقتدر العباسى شجرة من الذهب والفضة بأغصانها تتمايل بحركات موضوعة والطيور من كل نوع مذهبة ومفضضة تصفر فصوص مزية تتمايل بتمايل أغصانها ، آدم مبر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

بالقرب من عيذاب (٧) ، كانت من أسباب تقدم صناعة الجواهر والمجوهرات في عصر الإسلامية .

وقد أمكن الحصول على أنواع أخرى من الأحجار الكريمة مثل أنواع المرجان من بلاد المغرب (٨) ، والطلق من جزيرة قبرص (٩) ، والألماس من بلاد الهند (١٠) كما تشير المصادر إلى استخراج الفيروز المصري من مناطق المغارة وسراييت الحادم وأم بجمة وغيرها من سيناء . وكان يستورد الجزع والعقيق من اليمن ، وبه كان صناع الجواهر يحلون أصناف اليواقيت التي أمكن الحصول عليها بالقرب من القسباط بموضع يسمى طرا ، ويذكر التيفاشي أنه رأى من الياقوت الأحمر فصوصا حمرا صفارا كالخردل وأكبر قليلا (١١) .

ومن أنواع الأحجار الكريمة اللازورد فهو يجرى مجرى العقيق ، وهو من أحسن الجواهر ، والفرق بينهما أن الأول كان صناع الجواهر يصنعون منه فقط للأمراء والأثرياء من الناس ، أما العقيق (١٢) ، فيكثر وجوده ويعتد

(٧) اشرنا من قبل إلى استخراج هذه الأحجار الكريمة ومنها ما كان يدخل اليها بالمصاييح ويجهال يستدل بها على الرجوع خسية الضلال والهسلاك في تلك المناجم . رحلة ابن بعبير ، ص ٢٤٠ ، التيفاشي : أزهار الأفكار ، ص ٩٩ ، المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٨ ، عطية القوصي : تاريخ دولة الكتوز الإسلامية ، ص ١١٦ ، فريد تيفاشي : العمارة العربية في عصر الولاة ، ص ٥٣٥ .

(٨) يذكر ابن حوقل أن المرجان كان يستخرج من جهات مثل مدينة سبتة والجزيرة الخضراء بالمغرب ، وكان له تجار وسماسرة يعملون على شرائه وبيعه في جهات أخرى . المسالك والممالك ، ص ٥٩ .

ويقول المقدسي : « ومن خصائص إقليم المغرب المزجك يخرج من جزيرة في البحر اسم مدينتها مرسى الحرثة » . أخبار القبايس ، ص ٢٣٩ .

(٩) الطلق نوع من الحجر الكريم بجزيرة قبرص وهو نوعان فضي وذهبي ، ومن خواصه أنه إذا دخل النار لم يخرق ولم يتكلس كما تتكلس سائر الأحجار ، ولهذه العلة يقول الحكماء أنه إذا حل وطلبت به الأجسام لم تحرقها النار . التيفاشي : أزهار الأفكار ، ص ٢٠٤ .

(١٠) كان المصدر الوحيد للألماس بلاد الهند وجزيرة سرينديب ، واشتهر الأمر كذلك طوال العصور الوسطى . نفس المصدر ، ص ٢٦٧ .

(١١) كان وزن فص الحاتم الذي يسمى الجبل مثقالين قوم واشتهر أبو جعفر المنصور بأربعين ألف دينار . الجاحظ : التبصير بالتجارة ، ص ١٩ .

(١٢) يقول الجاحظ : « وخير العقيق اليمني البديد الحمرة الذي يرى في وجهه شبه الحيوط ، وكلما كان أصغر وأضوأ كان أجود في الثمن » التبصير بالتجارة ، ص .

علامة الناس على التزيين به ، ومنه ما يحتاج اليه في صناعة التزويق والزخرفة فقط .

ومن الجدير بالذكر أن التيفاشي المتوفى عام ٦٥١ هـ كان خبيراً بأنواع الأحجار الكريمة ، مجيداً لصناعة الجواهر ، فهو يتحدث عن اللازورد ويقول : « وقد يصنع اللازورد بالكيفية التي أنا واضعها » مما يدل على مهارته الفنية ، والقدرة على صناعة نوع من اللازورد كما يوجد في معدنه الأصلي .

وكان للجوهرجية أسواق خاصة وأحياء يعملون بها في القسطنطينية والاسكندرية وتونس وغيرها من المدن المصرية . كما كان للصناعة أو صناع الحلي وأدوات الزينة أسواق لهم في سائر المدن يمارسون بها مهنتهم (١٤) .

وفي العصر الطولوني تمتعت مصر بمكانة مرموقة بين الدول الإسلامية التي كانت خاضعة للخلافة العباسية ، وتوضح لنا المصادر اهتمام الطولونيين بأنواع الحلي وأدوات الترف والزينة ، وإلى ما كانت تضمه ثروتهم منها . ويعتبر جهاز قطر الندى ابنة خماروية خير شاهد على ذلك ، فقد تفنن صناع الحلي والجوهر في إبداع الأشكال العجيبة من التحف الذهبية وغيرها من الطرائف ، يذكر المسعودي أن ابن الجصاص (٩٥) الذي تولى أمر صنع جهازها ، حمل معها جوهرها لم يجتمع مثله عند خليفة قط .

فمن هذا الجهاز دقة من أربع قطع من الذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، في كل عين من التشبيك قرط فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها

(١٣) الجوهرى هو صاحب الجوهر المزخرف بالجواهر والمينا ، والجوهر لفظ مهريب ومن اشتغل بهذا الفن مباتي الجوهرى جد أسيد بن مهذب الكاتب المصرى مؤلف كتاب قوانين الدواوين ، مقدمة الكتاب .

(١٤) ويذكر ابن الأخوة أنه كان على الصائغة ألا يبيعونها أواني الذهب والفضة والحلي المصنوعة إلا بغير جنسها ليحل فيها الفاضل ، وإن باعها بخسها حرم فيها التفاضل . معالم القرية ، ص ٢٢٨ .

(١٥) هو الحسين بن عبد الله الجوهرى المعروف بابن الجصاص ، وكان تاجراً عراقياً يتجر في الجواهر ، ثم رحل إلى القسطنطينية في عهد الأمير الطولونى خمارويه (٨٨٣ - ٨٩٥ هـ) ثم اتصل به ونال حظوة عنده ، وجعله وكيله الوحيد لتجهيز البلاط بالأحجار والجواهر الكريمة . وقد صادر الخليفة المقتدر العباسى ثروة ابن الجصاص ، وأخذ ما عنده من المال ما قيمته أربعة آلاف دينار . توفى ابن الجصاص سنة ٣١٥ هـ . أبو المعين : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٨ ، عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١١٥ .

قيمة : وصناديق مملوءة بالشمعدانات وأواني الذهب والفضة ، منها مائة هاون من الذهب . وقد بلغت نفقات قطر الندي عند زواجها من المعتضد عام ٢٨١ هـ عشرين ألف دينار في حين كان صداقها مليون درهم . كما يصف المقرئى جهاز قطر الندي فيقول : « أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها » .

وهما لا شك فيه أن ما حفلت به المصادر التاريخية في هذا الصدد ، انما يعكس في جلاء ووضوح مدى تقدم الصناع ومهارتهم الفائقة في صناعة أنواع الحلى والجواهر أيام الطولونيين ، وذلك على الرغم مما قيل في ذلك الوقت أن الخليفة العباسى المعتضد انما أراد بزواجه من ابنة خماروية العمل على استنزاف موارد الدولة الطولونية وافتقارها (١٦) .

وقد انتشرت صناعة الأقراط والخواتم والسوارات والدمالج (١٧) وأنواع القلادات والخلاخيل وغيرها من أنواع الحلى ، وكان على الصائغ اذا أراد صياغة شيء من الحلى لأحد الناس ، ألا يقوم بسبكه في الكور أو في الروباص (١٨) الا بحضرة صاحبه بعد تحقيق وزنه ، فاذا فرغ من سبكه أعاد الوزن وان احتاج الى لحام فانه يزن قبل ادخاله فيه ، ولا يركب شيئا من الفصوص والجواهر على الخواتم والحلى الا بعد وزنها بحضرة صايحها (١٩) .

ومما يدل على ازدهار صناعة الحلى والجواهر في عهد الاخشيديين تلك المظاهر التى جاءت في وصف الاحتفال بليلة الغطاس بمصر ، وقد خرج مئات الألوف من الناس من المسلمين والنصارى يشباركهم الاخشيد ، وعليهم من الملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر ما يفوق الوصف .

وقد اهتم محمد بن طعج الاخشيد بصناعة الجواهر ، يذكر ابن سعيد أن الاخشيد كان مغرما بجمع المال واقتناء الجواهر ، بلغ ما خلفه من الثروة حين وفاته عام ٣٣٤ هـ ما قيمته مائتا ألف دينار من نوع المجوهرات الثمينة . ويذكر المقرئى تلك الهدية التى تقدم بها القائد جوهر حين

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ ، ص ١٧٤ ، الكبيسى : أسواق بغداد ، ص ١٦٨ .

(١٧) الدمالج جمع دملج وهو ما يلبس لتزيين العضد والقلادة للعنق . الثعالبي : فقه الله وأسرار العربية ، ص ٢٤٨ .

(١٨) الروباص : هو الاثناء الذى تبهر فيه المعادن لتصبح خالصة من الشوائب .

(١٩) الشيززى : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٧ .

قدم المعز وجلس في قصره ، وكان منها أربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة ومائة سيف محلي بالذهب والفضة ودرجات من فضة محرقة فيها جوهر وشاشية مرصعة في غلاف وغيرها من ذخائر مصر ، ولا شك أنها كانت كلها من صناعة المصريين في أواخر عهد الاخشيديين وبداية العصر الفاطمي .

ولم تقتصر صناعة الحلي والجواهر الثمينة على الفسطاط وحدها بل كانت الاسكندرية وغيرها من مدن الصعيد تضم أسواقا للصاغة والجوهرين ، وقد وصلتنا مجموعة من شواهد القبور تشتمل على أسماء بعض الصاغة من عهد الطولونيين والاخشيديين تعزز ذلك ، فمنها شاهد رخام من الصعيد باسم « يانسية ابنة زكريا بن يحيى الصائغ » ، وشاهد حجر رملي بتاريخ ٢٨ رجب سنة ٢٩٨ هـ باسم فاطمة ابنة أحمد بن جعفر الصائغ ، وآخر من الفسطاط يرجع تاريخه الى جمادى الاولى سنة ٣٦٢ هـ باسم « حسون بن علي بن داود بن سليمان الصائغ » كذلك من الشواهد التي وردت من الصعيد ومؤرخة في أول شعبان سنة ٣٧٥ هـ / ١٧ ديسمبر سنة ٩٨٥ م باسم لولو ابنة رزق الله حسين بن داود الصائغ ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بهذه المجموعة من شواهد القبور التي تكشف لنا مدى انتشار هذه الصناعة في ذلك العصر في سائر المدن المصرية .

كذلك يحتفظ متحف الفن الاسلامي بالقاهرة بمجموعة من شواهد القبور التي تحمل أسماء بعض الجوهرية وهي ترجع الى أواخر عصر الولاة وعصر الطولونيين والاخشيديين . فمن هذه الشواهد ورد اسم زوجة عبد الله بن سعيد المري الجوهرية مؤرخ بسنة ٢٧٩ هـ / ديسمبر ٨٩٢ م ، وشاهد آخر باسم خفيف مولى محمد بن موسى الجوهرية ، وشاهد رخام بالمتحف نفسه ربما يرجع الى القرن الثالث الهجري باسم فاطمة ابنة غنيد بنت محمد بن أبي عمران الجوهرية ، وشاهد رخام يرجع تاريخ وفاة صاحبه الى سنة ٣٥٥ هـ وقد حمل اسم عثمان المكنى بأبي عمرو عبد الله ابن الحسين بن عبد الله الجوهرية المعروف بابن الجصاص .

وقد نشطت حوانيت الصاغة بالفسطاط والاسكندرية وغيرهما بمجيء الفاطميين وحكمهم للبلاد في منتصف القرن الرابع الهجري ، ولا غرو فقد جاءوا يحملون معهم ما يشبه الطواحين من الذهب ، كما كان جل اهتمامهم بشأن الحصول على الذهب من مناجمه بالعلاقي ، فضلا عن البحث عن الكنوز والمطالب ، وجدهم في ذلك السبيل ، يذكر ناصر خسرو أنه كان للسلطان خادم اسمه عمدة الدولة ، وهو أمير المطالبين ، وكان عظيم الجاه والمال ومن اختصاصه البحث في تلال مصر عن الكنوز والدفائن ، كما كان

يأتى لهذا الأمر رجال من المغرب ومن بلاد الشام ، وينفقون المال الكثير فى تلال مصر ومحاجرها ، وكثيرا ما يجدون الدقائق والكنوز .

وفى العصر الفاطمى لم تقتصر صناعة الحلى على أنواع أدوات الزينة الخاصة بالنساء ، وإنما كانت أدوات كثيرة تصنع من الذهب وتحلى بمختلف أنواع الجواهر واليواقيت والزمرد ، وهى لا شك توضح لنا مدى استخدام الذهب والفضة ومظاهر الترف لدى الفاطميين ، وحرصهم على اقتناء التحف الثمينة من جهة ، كما تكشف لنا من جهة أخرى عن المهارة الفائقة التى بلغها صناع الحلى والجواهر فى عصرهم .

وأول ما يطالعنا من استخدامات الذهب والجواهر فى قصور الفاطميين تلك المسميات التى أطلقوها على مجالس حكمهم ، ومنها قاعة الذهب بالقصر الشرقى الذى بناه القائد جوهر لمولاه المعز ، وقصر الذهب الذى تم تشييده فى عهد العزيز بالله ، وهى تدل فى وضوح على تشجيع صناعة الحلى والجواهر ، فقد استخدم الصناعات مقادير هائلة فى صناعة التحف الثمينة من الذهب والفضة على أشكال مختلفة وزينوا بها مجالس الحكم . فقد قيل فى كتاب الذخائر والتحف أن وزن ما استعمل من الذهب الأبريز الخالص فى سرير الملك كان مائة وعشرة آلاف مثقال (٢٠) ، كما نسج لصناع تلك الستائر من خيوط الذهب لتزيين القاعات ، فضلا عن التماثيل والتحف الذهبية التى وضعوها فى صدر هذه القاعات . فمن أجل النفائس التى كانت تزين القصر الفاطمى تحف على شكل حيوانات وطيور منها طاووس من ذهب مرصع بالجواهر عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج الموه بالينسا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس .

كما يذكر المقرئى أن وزن ما حلى به الستر الذى أنشأه سيده الوزراء أبو محمد اليازورى من الذهب ثلاثون ألف مثقال ، وأنه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه . وأن ما تم به تحليته وتزيين الشمسية الكبيرة التى أقامها كان ثلاثون ألف مثقال ذهباً وعشرين ألف درهم مخرقة وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر الألوان .

وقد أفاض المؤرخون فى ذكر التحف الفاطمية النفيسة والآلات الملوكية المصنوعة من الذهب والفضة التى كانوا يستخدمونها فى مواكبهم العظيمة ، ونخص بالذكر منها تاج الخليفة فكان فيه جوهرة عظيمة تعرف

(٢٠) المثقال يساوى درهم وثلاثة أسباع وزنة من الذهب .

بالبتيمة زنتها سبعة دراهم ، ولا يقوم لنفاستها وحولها جواهر أخرى دونها ، وقضيب الملك الذي كان يمسك به الخليفة وهو ملبس بالذهب المرصع بالدر والدواة التي كانت تتخذ من الذهب وحليتها مصنوعة من المرجان . وكما يذكر القلقشندي من التحف التي كان يستعملها الفاطميون في مواكبهم الرمح والدرقة ، فالرمح في غلاف منظوم باللؤلؤ والحافر وهي قطعة من ياقوت أحمر في شكل الهلال ، زنتها أحد عشر مثقالا ، ليس لها نظير كانت تلف حول عمامة الخليفة عند ركوبه في المواكب المختلفة .

وكما استخدم الفاطميون الذهب والفضة كذلك في تحلية السروج والسيوف ، فانه بلغ من ترفهم ومظاهر النعيم أن صنعوا الآلات الموسيقية من الأبواق والنقارات والطبول وغيرها من الذهب والفضة وكانوا يستعملونها في مواكبهم العظام . وقد أطنب المقرئزي وغيره من المؤرخين في حديثهم عن خزائن الفاطميين ، وما حفلت به خزائن الجواهر والطيب والطرائف ، وما كانوا يحتفظون به من سائر الأواني والتحف الذهبية والأواني الكريمة والحلى .

كان حرص الخلفاء الفاطميين ووزرائهم على اقتناء المجوهرات والتحف المعدنية الثمينة من أهم مظاهر الترف والنعيم منذ بداية عهدهم ، فقد جاء في ترجمة العزيز بالله أنه كان أديبا فاضلا ، يعرف قيمة الجواهر ويحرص على اقتنائه . كما كان حرص وزيره المخلص يعقوب بن كلثوم على حوزة الجواهر واقتنائها أيام توليه الوزارة ، يذكر ابن منجب الصيرفي أنه : « وجد له من الجواهر ما يبلغ أربعمئة ألف دينار حين وفاته » .

ومما يذكر أن الحاكم بأمر الله في بداية عهده كان يلبس على صدره العسجدية وهي درقة من ذهب مكللة بفاخر الجواهر يضئ لها ما حولها ، إذا وقعت عليها الشمس لا تطيق العيون النظر إليها . كما ذكر أن من جملة ما خلفه وصيه برجوان حين أمر الحاكم بقتله عام ٣٩٠ هـ من الحلى والمصاغ والطيب والصياغات من الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة . وقد ذكر المقرئزي أن هدية ست الملك إلى أخيها الحاكم بأمر الله كان من بينها تاج مرصع بنفيس الجواهر وبديعة ، وشاشية مقلعة (٢١) ، وستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر ، مما قاق في صنعه ما كان معمولا في قصر المقتدر الخليفة العباسي (٢٢) .

(٢١) الشاشية : هي من كسيتج مصممة بالذهب وتصلح من القصب المذهب .

(٢٢) كان قصر المقتدر به شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم وكان عليها من

الطيور التي تتمايل فوق أغصانها وتضفر على حركات بديعة تثير الناظرين في آدم من الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٤

وكذلك خلفت الأميرة عبدة بنت المعز لدين الله حين وفاتها سنة ٤٤٢ هـ ثروة طائلة وتحفا لا تحصى ، منها نحو أربعماية سيف محلي بالذهب ، ونحو أردب من الزمرد وغير ذلك من الجواهر والأقمشة النفيسة والأباريق والطسوت من البلور الضافي وهكذا توضح لنا الأدلة التاريخية أن الفاطميين بزوا منافسيهم العباسيين في بلاطهم ، وفي حوزتهم للمجوهرات والكنوز التي حفلت بها خزائن ملكهم .

كما تشير المصادر إلى حياة الرخاء والترف التي عاشها المصريون أيام حكم الفاطميين ، ولا سيما قبل وقوع الشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر ، فقد أقبلوا على شراء واقتناء الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة وقد عبر ناصر خسرو عن أمن المصريين واطمئنانهم وعن تجار الجواهر والصيارفة ورخائهم العظيم ، وقيل انه كان بمصر أحد التجار اليهود وافر الثراء يتجر بالجواهر ، كان يعتمد عليه الخليفة في شراء ما يريد من الجواهر الكريمة . وقد جاء في أوراق الجنيزة ما يتضمن أن حرفة الجوهريّة كانت من أعمال اليهود بمدينة الفسطاط ، كما تشير إلى رحيل بعض الصاغة المغاربة ونزوحهم إلى العاصمة المصرية آنذاك .

وهكذا ازدهرت صناعة الحلى وأدوات الزينة وغيرها من الجواهر بالفسطاط ، وقد عثر في حفائر الفسطاط على أساور وخواتم وأقراط من الذهب أو الفضة ، وعليها زخارف نباتية دقيقة ، ومن المرجح أنها ترجع إلى العصر الفاطمي وأنها صنعت في دار الجواهر بها (٢٣) .

وكان الصياغ يصنعون قطع الحلى والجواهر من الفضة بمدينة الفسطاط ، حيث تتمتع الفضة بعدة خصائص فنية وجمالية من أهمها لونها الأبيض البراق ، وعدم تأثرها بالهواء أو الماء ، وقابليتها للطرق والسحب والصقل (٢٤) ، ويذكر المقرئى أن الصناع كانوا يتخذون منها الحلى والأواني ، فضلا عن سك بعض النقود منها لزوم نفقات البيوت وفي حياة الناس اليومية .

ولا شك أن صناعة الحلى أو الجواهر لم تكن قاصرة على الفسطاط ، بل ظلت الاسكندرية من مراكز الصناعات الهامة خلال العصر الفاطمي .

(٢٣) ذكر ابن دقماق أن دار الجواهر كانت تقع بجوار خوخة السراج : وهي رجة واسعة كانت سوقا هاما لصناعة وبيع الجواهر بالفسطاط .

الانتصار ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٢٤) كان من الممكن عمل زقائن فضية يصل شملها إلى جزء من الألف من السنتيمتر . حسن الباشا وآخرون : القاهرة - تاريخها ، ص ٥٦٦ .

ويذكر التيفاشي أنه كان بها من الجوهرين من أهل الأندلس من يعمل بصناعة الجواهر والأحجار الكريمة ، كما كان من المرجان المغربي ما يحمل الى الاسكندرية فيصنع بها .

وقد برع الجوهريون في كيفية الكتابة على فصوص الخواتم المتخذة من المرجان ، ويوضح لنا هذه الطريقة فيقول : « كان يضع على جميع الفص أو الخاتم شمعا ، ثم يعمد الى موضع النقش منه فيكف فيه برأس ابرة ما أحب حتى ينكشف الشمع عن موضع الكتابة لا غير . ثم ألقاه في خل خمر حاذق يوما وليلة ، ثم رفعه وأزال عنه الشمع فانه يجد موضع الكتابة محفورا قد تأكل بالحل وبقيّة الفص أو الخاتم على حاله لم يتغير » .

كذلك اشتهرت المدن المصرية الأخرى كالفيوم والأشمونين والبهنسا وأسيوط واخميم وقوص بالصعيد (٢٥) ، وكذلك تنيس ودمياط وغيرهما من مراكز الصناعة والحضارة بالوجه البحري ، فقد كانت حافلة بأسواقها وفي قيام الصاغة والجوهرين بصناعة أنواع الحلى وأدوات الزينة بها أيام الفاطميين .

ومن أسماء الصاغة أو الصياغ التي وصلتنا من العصر الفاطمي ، ما أوضححتها تلك المجموعة من شواهد القبور ، منها شاهد يخمل اسم هبة ابنة علي بن عبد الله بن شبيب الصائغ عثر عليه بأسوان ويرجع تاريخه الى آخر شهر رجب سنة ٣٦٥ هـ / ٣ ابريل سنة ٩٧٦ م ، مما يدل على قيام هذه الصناعة في مدينة أسوان في أقصى جنوب الصعيد . ومن الأسماء ما ورد على شاهد حجر رملي من الصعيد أيضا بتاريخ ١٥ جمادى الآخرة سنة ٣٨٤ هـ باسم محمد بن علي سزاب بن أحمد بن داود بن سليمان الصائغ . وشاهد حجر رملي بتاريخ ٢٣ ذي القعدة سنة ٣٨٩ هـ ، باسم ابراهيم بن حسين بن سليمان بن داود بن سليمان الصائغ .

وفي عهد الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر كان ممن يمارسون صناعة الحلى والجواهر - من واقع ما ورد على شواهد القبور من الأسماء - جعفر بن ابراهيم بن أحمد بن داود بن سليمان الصائغ ، وشاهد آخر باسم الحسن بن محمد بن محان بن ابراهيم بن مسلمة الصائغ وغيرهما .

(٢٥) تشير مثلا كتب الرحالة الى مدينة قوص وان أهلها أرباب ثروة واسعة ، وأنها مدينة قديمة وكانت عاصمة اقليم الصعيد في العصر الفاطمي ، وجاء في وصفها أنها حافلة الاسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤١٣ ؛ رحلة ابن جبير ، ص ٣٥ ، ابن دقماق : الانتصار ، ج ٥ ، ص ٢٨ .

وبالمتحف البريطاني شاهد من الصعيد يحمل اسم هرون بن يحيى الصائغ المتوفى سنة ٤٣٢ هـ ، وشاهد ثان من مصر العليا باسم حسين ابن رزق الله بن علي بن حسن بن داود الصائغ ، ومما يلفت النظر أن معظم هذه الشواهد بأسماء أفراد من أسرة واحدة هي أسرة سليمان بن داود الصائغ ، مما يدل على توارث حرفة الصياغة والحرف الأخرى في العصور الإسلامية :

ومن الجدير بالذكر أن صناعة الحلي والجوهر والاتجار بها كانت من الحرف الرائجة ، وكان يعيش أصحابها في حالة من الأمن والاطمئنان فضلا عن ثرائهم . فقد ذكر ناصر خسرو أن تجار الجوهر كانوا لا يفلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر .

ويبدو من الروايات التاريخية ما يدل على خبرة الجوهرين العالية ، وإن كانت لا تعطينا من الأدلة ما يكفي لاثبات انفرادهم في اعداد أو صناعة هذه الجواهر بالمقادير الهائلة التي كانت تحفل بها خزائن القصر الفاطمي . ومهما يكن فإن ما يضمه متحف الفن الإسلامي من مجموعة الخواتم الذهبية (٢٦) ، وغيره من المتاحف في الخارج (٢٧) ، يكشف لنا عما بلغه صناع الحلي والجوهرين من دقة واتقان في صنعهم زمن الفاطميين .

كما توضح لنا المصادر مدى شغف الفاطميين حتى أواخر أيامهم باقتناء للتحف والأموال والنفائس ، فقد خلف الأفضل بن أمير الجيوش من الثروة والجوهر الشيء الكثير ، كان من بينها ثلاثون راحلة أحقاق ذهب عراقي ، ودواة من ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ، ومائة مسمار من الذهب وزن كل مسمار منها مائة مثقال .

ولما استولى صلاح الدين على خزائن القصور الفاطمية بعد موت العاضد عام ٥٦٧ هـ ، أخذ منها ما يخرج عن الإحصاء والتحف الثمينة العجيبة التي تملأ الدنيا من مثلها ، فمن ذلك الجبل الياقوت الذي بلغ

(٢٦) يضم متحف الفن الإسلامي بالقاهرة مجموعة من خواتم الذهب المزخرفة بزخارف نباتية أو حيوانية وعليها الكتابة الكوفية ، وأيضا من مشابك الصدر المصنوعة من الذهب بأشكال مختلفة بزخارف نباتية أو طيور بالمينا وسواران من الذهب عليهما شبكة بكتابة كوفية ، وكذلك يضم المتحف علبة من الفضة لحفظ التيممة مزخرفة بكتابة كوفية ترجع صناعة هذه المجموعة كلها إلى القرنين الخامس والسادس من الهجرة .

(٢٧) ويضم متحف المتروبوليتان ثلاث قطع جميلة هي زوج من الأقراط ودلاية على شكل هلال يمكن ارجاع صناعتها إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي . ديماندا : الفنون الإسلامية ، ص ١٥٣ .

وزنه سبعة عشر درهما ، أو سبعة عشر مثقالا ، والقصاب الزمرد ، فكان
من الذخائر المدومة المثل ما لا يعد .

ويرجع لوبون وغيره من المؤرخين الغربيين أن يكون الأوروبيون قد
اقتبسوا صناعة الحلى المنقوشة من تلك المنتجات فى مصر وغيرها من بلاد
الشام ، والتي دخلت الى الممالك الأوروبية عن طريق التجارة والتي جلبها
معهم الصليبيون عند عودتهم من الشرق الاسلامى ، وقد عثر على قطع من
الحلى والمجوهرات عليها زخارف ذات مسحة شرقية اسلامية فى بلاد السويد
والنرويج والدانمرك لا شك أنها وصلت الى تلك الجهات النائية عن
طريق التجار المسلمين فى العصور الوسطى .

٤ - صناعة سك النقود ودور الضرب المصرية

كانت دار الضرب بالاسكندرية من أهم دور الضرب في مصر قبل الفتح العربى ، وذلك منذ أعاد الامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ضرب نقود مصرية في عاصمة البلاد المصرية .

ويبدو أن هذه النقود كانت تقتصر في ضربها على معدن البرونز ، ولم تصدر عن دار الضرب هذه أى عملة فضية أو ذهبية ، منذ العصر الرومانى (١) ، وذلك على الرغم مما تشير اليه أوراق البردى التى ترجع الى القرن السابع الميلادى من أن قاعدة الذهب Gold Standard كانت أساسا للنظام النقدى فى مصر حتى بعد الفتح الاسلامى للبلاد (٢) .

وقد ظلت دار الضرب بالاسكندرية تسك بها النقود بعد الفتح الاسلامى . وفى عهد معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) بدأ الصناع يضربون سكة ذهبية على الطراز البيزنطى فى هذه الدار كما حدث فى العاصمة الأموية دمشق ، وكان ذلك فى نطاق محدود حيث أن معظم السكة (٣) التى كانت تغذى الأسواق فى مصر وسوريا كانت تأتى من بيزنطة سدادا لأثمان البردى المصدر اليها .

(١) تشير أوراق البردى الى العملات النحاسية والبرونزية والى العامل بالافلاس ابان الفتح العربى ، كما تشير المصادر الى أنه منذ عهد أغسطس كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية فقط . جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٥٦ ، ابراهيم صبحى : مصر فى عصر الرومان ، ص ١٤٢ ، بحث نشر مجلد الحضارة المصرية ، ج ٢ .

(٢) نفس المرجع ، ج ، ص ١٥٧ .

يضم المتحف القبطى مجموعة من العملات الذهبية من الطراز البيزنطى والاسلامى يرجع ضربها الى القرن الخامس وحتى العاشر الميلادى .

(٣) لفظ السكة كان اسما للطابع ، وهى الحديدة المستخدمة للختم على الدينار والدرهم بما ينقش عليها من صور وكلمات . ابن الأزرى : بدائع السلك ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

ومن الملاحظ أن معاوية لم يحدث تغييرات تذكر في سك النقود من حيث العيار وخلافه ، وإنما قام الضرابون بضرب الدنانير وعليلها ضرورتها وببده سيف ، كما تم ضرب دراهم وزن الواحد منها ستة دنانير .

والواقع أن الجزية والخراج والضرائب الأخرى وأجور العمال وسائر المعاملات كانت تدفع بالدرهم والدنانير في العصر الأموي (٤) ، وكانت تعرف الدنانير في أوراق البردي اليونانية باسم Solidi ، كما كانت تؤدي في العصر الروماني والبيزنطي بالدراخمت (٥) ، والتي كانت تسك من مزيج من البرونز والفضة .

وهكذا أصبحت دار الضرب بالاسكندرية تسك بها النقود على أنواعها المختلفة منذ أوائل العصر الأموي ، واستمر بها الضرابون والنقاشون وغيرهما من الصناع في عصر الولاة ، مع الأخذ في الاعتبار أن دار الضرب لم يكن يسجل اسمها في مصر على السكة قبل سنة ١٩٩ هـ ، وأغلب الظن أن هذه الدنانير التي كانت تحمل اسم مصر كانت تضرب في دور السك القائمة في الاسكندرية والفسطاط على السواء باعتبارها أعظم دور الضرب وقتئذ .

أما دار الضرب التي تم تأسيسها في الفسطاط العاصمة بالقرب من جامع عمرو (٦) ، فأغلب الظن أن الوالي عبد العزيز بن مروان - كان أول من اتخذ ذلك (٧) كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي حينما اتخذ دارا

(٤) يذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب ، كتب الى أمراء الأمصار ألا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي (أي من بلغ سن الرشد) وجزيتهم أربعون درهما وعلى أهل الورق ، وأربعة دنانير على أهل الذهب . فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٥ .

(٥) أوضح Milne أن الصباغين والقصارين وغيرهما ممن كان يعمل في حرفة النسيج كانوا يؤدون ما قيمته ١٩٢ دراهمة للقصار ، وكان الصباغ يدفع ٢٨٨ دراهمة سنويا كضريبة .

A History of Egypt under Roman rule, p. 156.

(٦) وردت أول إشارة عن دار الضرب حينما قام عقبة بن عامر (٤٠ - ٤١ هـ) من قبل معاوية ببناء دار لرملة ابنة الخليفة ، كما يذكر ابن عبد الحكم أنه سميت دار الرمل كما ينتقل من الرمل الى دار الضرب ، وفي حديثه عن إضيق عبد الله بن طاهر وتلك الزيادة التي أحدثها علم ٢١٣ هـ ، بإذا من الخليفة المأمون يشير الى أنه أذن له في إضافة ما بقي من دار الرمل كلها إلا ما بقي منها من دار الضرب ، مما يدل على إضيقها بجوار الجامع العتيق بالفسطاط . فتوح مصر والمغرب ، ص ١٤٤ - ١٧٩ .

(٧) أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز واليه على مصر في عام ٧٦ هـ أن يأمر الصناع والمشرقيين ، دور الضرب بسك العملات بالصبغة الإسلامية . المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٥٥ ، عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ٤٤ .

للضرب له بالعراق ، ونقش اسمه على الدراهم ، فعرفت بالعملة الحجاجية
وسميت مكروهة لكره أهل العراق لها .

ومن المرجح أنه كان من أسباب انشاء دار للضرب بالفسطاط في
عهد الأمويين والاهتمام بأمرها ، تلك الدوافع الحقيقية التي أعادت حق
ضرب النقود الى الخلافة الاسلامية ، ورغبة عبد الملك بن مروان (٦٥ -
٨٦ هـ) في ضرب العملة ونقشها بالصيغة الاسلامية (٨) ، ونهيه في أن
يضربها غير المسلمين في بيزنطة وغيرها .

كان الوالى أو الحاكم هو الذى يراقب سك النقود بدار الضرب
ويعمل على معاقبة من يحاول غشها (٩) ، ويوضح المقرئى سبب ضرب
الفلوس أو العملات النحاسية في مصر فهو يرجع الى وجود « محقرات »
في المبيعات تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه ، فكان الخلفاء بازاء هذه
المحقرات يضربون اليسير من معدن النحاس قطعاً صغيراً تسمى فلوساً
لشراء ذلك .

وقد أمكن العثور على عملات نحاسية ، فبينما نجد فلوس (القاسم
ابن عبد الله) صاحب خراج مصر (١١٦ - ١٢٤ هـ) لا يذكر عليها اسم

(٨) يورد كل من البيهقي والدميري أن تعريب العملة في عهد عبد الملك بن مروان
كان بسبب تلك القراطيس التي كانت تصنع بمصر والتي كانت تطرز بالرومية وأنه حينما
رفض تلك الصيغة المسيحية على القراطيس ، حدث أن هدد امبراطور الروم ان أصر الخليفة
على تغيير الطراز أن يأمر بنقش الدنانير والدراهم وفيها ما يسمى الى نبي الاسلام ، عندئذ
أمر عبد الملك بن مروان بعد استشارة القوم في ذلك بضرب الدنانير والدراهم وعليها صورة
التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه العملة ، وأمر أن يكتب في ذلك
الى جميع بلدان الاسلام ، وأن يتقدم الناس في التعامل بها . المحاسن والمساوى ، ج ٢ ،
ص ١٢٦ - ١٢٩ . وقد ذكر المقرئى أن السبب في ضرب العملة بالصيغة الاسلامية إنما
حينما أشار الأمير خالد بن يزيد على عبد الملك بوجود سبك العملة بما يتفق والصيغة
الاسلامية وترك دنانير البيزنطيين . والواقع أن الخليفة الأموي حينما قام بمهمة التعريب
لكل الدواوين في مصر وفارس والشام ، والعمل على استقرار الدولة اقتصادياً بعد أن تهيأت
لها أسباب الاستقرار السياسى ، فإنه أصبح من لوازم السيادة الاسلامية تعريب العملة
وسكها داخل دور الضرب في كل من مصر والشام وغيرها ، اذ لا سبيل الى الاستقرار
الاقتصادى ، مادامت مقومات الدولة المالية تدور في فلك الدنانير البيزنطية والدراهم
الساسانية . المقرئى : النقود الاسلامية ، ص ٤ ، عبد الرحمن فهمي : فجر البسكة
العربية ، ص ٥٢ .

(٩) اهتم الأمويون بمراقبة نقش الدراهم ، يذكر البلاذري أن مروان بن عبد الحكم
أخذ رجلاً يقطع الدراهم فقطع يده بسبب غشه لها ، كما عاقب ابان بن عثمان وكان عاملاً
على المدينة كان يقطع الدراهم بأن ضربه ثلاثين سوطاً وطوف به . فتسوح البسندان ،
ص ٤٥٦ .

مصر ، نجد فلوس عبد الملك بن مروان صاحب الحراج (١٣١ - ١٣٢ هـ)
ووالى مصر يسجل عليها اسم مصر - الفسطاط . وهكذا يمكن القول بأن
دار الضرب بالفسطاط بدأت عملها بسك العملات النحاسية ولم تبدأ فى
ضرب الدنانير الا فى العصر العباسى حينما حصل والى فى مصر على حق
الضرب للدنانير الذهبية (١٠) .

وهناك نوع من الفلوس التى نقشنت ولا تحمل أسماء الولاة أو عمال
الحراج ، ولكنها تشير فقط الى مكان الضرب ، حيث كانت هناك مراكز
أخرى عديدة فى المدن المصرية لسك العملات النحاسية بها ، نذكر منها
مدينة الفرما القديمة Pelusium (١١) وبجبة نبروه (١٢) وبمدينة
الفيوم وأتريب (١٣) ، وأبوان واهناس وغيرها ، وقد كانت بمثابة دور
ضرب مساعدة ، قامت على اصدار بعض المسكوكات الاقليمية الى جانب
دار الضرب الرئيسية فى مصر أو الفسطاط .

ويشير ياقوت الى أنه فى العاصمة كانت تضرب الدنانير كما ذكر عند
حديثه عن جلوان فهو يقول : « وأول من اختطها عبد العزيز بن مروان
وضرب بها الدنانير وبنى بها دورا وقصورا واستوطنها وزرع بها بساتين
وغرس فيها كروما ونخلا » ، كما ذكر المقرئى أن عبد العزيز بن مروان
حينما وفد على أخيه عبد الملك فى سنة ٧٥ هـ ، وبعد أن هدم جامع
الفسطاط كله وزاد فيه من جوانبه كلها فى سنة ٧٧ هـ أمر بضرب الدنانير
المنقوشة .

وقد أشار الكتندى الى صاحب السكة ونفوذه فى أوائل العصر
العباسى ، لكنه لم يذكر لنا شيئا عن اسمه ، وذلك فى معرض حديثه عن

(١٠) أجرت بعثة كلية الآثار بعض الحفائر بظاهر الفسطاط عام ١٩٧٢م ، وقد عثرت
على بعض المقابر وكانت تقع على ثلاث طبقات ، ترجع الطبقة الأولى منها الى العصر الأموى ،
وعثر فيها على عملات نحاسية ، سعاد ماهر : حفائر كلية الآثار بظاهر الفسطاط ، ص ٩٠٣ -
بحث مجلة كلية الآثار ، العدد الأول .

(١١) ذكر اليعقوبى أنها كانت أول مدن مصر وبها أخلاط من الناس وهى تقع الى
الشرق من جهة بورسعيد . البلدان ، ص ٣٣٠ .

(١٢) نبروه من البلاد القديمة بمركز طلخا بمحافظة الغربية وقد أشار اليها ابن ممتى .
قوانين الدواوين ، ص ٢١٥ .

(١٣) كانت كورة عظيمة منذ العصر الرومانى والبيزنطى وهى تقع بالقرب من بنها
ومواقعها التلول التى بأحواض أتريب فى الجهة الشمالية من سكن بندر بنها . المقرئى :
المخطط ، ج ١ ، ص ٣٢٩ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ١١ .

بحركة العلويين ، حين قدم أحدهم الى مصر ونزوله على عسامة بن عمرو المعافري ، فهو يتحدث عن صاحب السكة وأنه هو الذي أرشد الوالى على مصر حميد بن قحطبه من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور عام ١٤٣ هـ . ومن المرجح أن صاحب السكة هذا هو الذى كان مشرفا على دار الضرب بالعاصمة الفسطاط ، كما كان أحد عيون الخليفة العباسى فى مصر على الولاة أنفسهم وتصرفاتهم ازاء الحكم العباسى حينذاك .

وكان على بن سليمان أول من ضرب الدنانير فى الفسطاط عام ١٦٩ هـ وهناك من الدنانير ما تحمل اسمه وترجع الى سنة ١٧٠ هـ ، ١٧١ هـ ثم تعددت بعد ذلك دنانير الولاة وعمال الخراج فى مصر فى العصر العباسى وفى سنة ٢١١ هـ ظهرت النقود فى الفسطاط مضروبة باسم عبد الله ابن طاهر قائد جيوش المأمون ، وأضيفت الى كتابات الدنانير بعض الآيات القرآنية مثل « لله الأمر من قبل ومن بعد » كما أكملت بعض العبارات المقتبسة من القرآن الكريم وأضيفت البسملة كاملة الى عبارات الضرب وتاريخ ذلك على الدنانير التى تم سكها بدور الضرب بالفسطاط .

كانت دور الضرب المصرية فى عصر الولاة تضم العديد من هؤلاء الصناع من النقاشين والسباكين والضرابين ، وجميعهم من خيرة الفنيين المهرة فى صهر المعادن وسك النقود ، وقد أوضح ابن بكرة تلك المراحل التى كان يمر بها المعدن فى دار الضرب ليصبح عملة صالحة للتداول بعدها . كما أشار الى اعداد سبيكة الدراهم وطريقة تصفيحها ، حيث كانت الدراهم المصرية منذ فجر الاسلام عبارة عن صفائح رقيقة من الفضة (١٤) ، مضروب عليها بقالب الدرهم من وجهين بعد التأكد من نقاء سبيكة الفضة حيث تضرب الدراهم على القطع التى تم تدويرها دون تشقق (١٥) . وكان تقطع سبائك الفضة ، ويضاف اليها جزء من الرصاص ، حيث يقوى صلابة الصفائح الفضية ثم تجلى بعد ذلك عن طريق جمعها فى كبشة وتنطفئ وهى سباخنة فى ماء الليمون والملح حتى اذا ظهر بياض الفضة جليت بالرمل الناعم ويختتم عليها .

١٤ (١٤) : كان أول من ضرب الدراهم فى الاسلام هو مصعب بن الزبير عام ٧٠ هـ بالمدينة ، ونفس عليها « بركة من جانب رسول الله » ابن الاخوة : معالم القرية فى معالم الحسبة ، ص ٤٤٣ .

(١٥) ويضم متحف الفن الاسلامى درهم ضرب بدار الضرب بالفسطاط فى سنة ٤٠٤ هـ باسم « السرى بن الحكم » وقد سجل عليه اسم الخليفة المأمون وطاهر بن الحسين قائد ، وفى أسفل ظهر الدرهم ظهرت كلمة « السرى » .
عبد الرحمن فهيم : فجر السبكة العربية ، ص ١٠٣ .

وكان على المقدم أن يحافظ على عيارى الذهب والفضة بدار الضرب (١٦) ، وذلك بفضل تحقيق وزن كل هرجة (سبيكة) ترد الى دار الضرب ، ولا بد للمقدم من معرفة ما فى الأتون (القرن) من سبائك ويختتم على الأتون حتى لا يتطرق الى السبائك أبواب الشك والفساد .

أما عمل النقاش فهو حفر الكتابات المزمع ابرازها على السبيكة مقلوبة على القالب الأم ، من أجل اظهار بروزها على السكة ، وكان من عمل السباك أن يحضر وزن النحاس قبل طرحه فى البوتقة والفضة فى حال السبك ، وعليه أن يوزن العيار ونسبة النحاس الى الفضة ، فان درك الحاصل كما يقول ابن بعرة فى حالة السيطرة عليه والمسلم تحت يده .

ومن أهم الأعمال بدار الضرب تلك التى كان يقوم بها الضراب فعليه الختم على السكة المصبوبة قبل أن تبرد وتعود الى صلابتها ، واعداد القضبان المعدنية من السبائك المصهورة لانتاج الدينار أو الدراهم والفلوس أيضا ، أو الختم على الأجزاء المستديرة من كل معدن فيها ثم جلاء سكة الذهب والفضة قبل السماح بتداولها . وهكذا كانت دور الضرب وما تضم من النقاشين والسباكين والضرابين من أهم المراكز للصناعات المعدنية فى مصر الاسلامية .

وقد كان أساس المعاملات المالية بين الناس الدينار الذهبى والدرهم الفضى (١٧) وكانوا يفضلون الذهب والفضة فى جميع الأحوال. وذلك لسرعة سبكها وطرقها وتشكيلها بأى الأشكال مع حسن الترويق . وتشير المصادر الى أن الناس كانوا يقدمون خامات الذهب والفضة وغيرها لكى تضرب لهم على هيئة نقود فى دور الضرب ، يتضح ذلك من قول ابن مماتي من أنه كانت تحصل على كل ما يضرب فيها من النقود ضريبة يسمونها ثمن الحطب وأجرة الضرابين ، ومقدار ذلك درهم عن كل مائة درهم وربما اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن ، وكانت الدولة تحصل من وراء ذلك على دخل كبير .

(١٦) - يقصد بالعيار تلك النسبة القانونية بين وزن المعدن الصافى الموجود من قطعة السكة ووزنها الكلى ، ويحدد هذا العيار بالنسبة للعدد ألف أو العدم ٢٤ - الذى يشل الوزن الكلى ، فمثلا عيار قطعة فضية السكة ٢٤٠ - يعنى أن هيئة القطعة تحتوي على ٨٧٥ من ألف جزء أو ٢١٠ من ٢٤٠ جزءا .

(١٧) - يذكر ابن خلدون أن عملة دراهم من الفضة كانت تساوى شبعق مثاقيل من الذهب وكان وزن المثقال من الذهب يساوى ٧٢ حبة من الشعير . وقد بلغ الوزن الأساسى للدينار مثقال من الذهب الخالص أى ٤٢٥ جرام . وكان وزن الدرهم مثقالا أيضا ولكن من الفضة . المقدمة ، ص ٢٣٠ .

وكان الناس في عصر الولاة يقبلون على ضرب الدنانير الذهبية والدرهم ، ويعملون على اقتنائها أو اكتنازها ، فمن طريف ما ذكره المقرئى ما حكاه عن العجوز القبطية صاحبة قرية طاء النمل ، وما قدمته للخليفة المأمون وأخيه المعتصم ورجال حاشيته من فاخر الطعام ولذيذه (١٨) ، وما وضعت بين يديه - أثناء مروره على تلك القرية - من أكياس الذهب المضروبة ، فإذا هي من ضرب عام واحد كلها حينما تأملها وفكر في ردها اليها .

ومن الدنانير التي عشر عليها ما يحمل اسم الخليفة المأمون ، وقد عشر على واحد منها من ضرب دار القسطنطين في عام ١٩٩ هـ / ١٨٤ م . مما يدل على أن الدنانير لم تكن تحمل اسم الولاة أو عمال الخراج فقط في العصر العباسي وإنما كانت تحمل اسم الخلفاء العباسيين على أحد وجهي العملة المضروبة بمصر وغيرها من الأمصار الإسلامية .

وفي عهد الطولونيين انعكس الرواج الاقتصادي الذي أصابته مصر على عملتها القوية آنذاك ، فقد سك أحمد بن طولون ديناراً ذهبياً خاصاً به ، ومستقلاً عن الدينار العباسي في سنة ٢٦٦ هـ ، وعرف بالدينار الأحمدي .

وقد اختلف المؤرخون في سر اهتمام ابن طولون من أجل تنقية الذهب لرفع عيار ديناره الأحمدي (١٩) ، كما اختلف الأمر بالنسبة للدار التي ضرب هذا الدينار الجديد بها ، ولا شك أنه بعد نجاحه في

(١٨) قدم الخليفة المأمون إلى مصر في سنة ٣١٧ هـ حينما ثار الناس أو أقباط مصر على واليهم عيسى بن منصور الرافعي . وكان قد بلغ خراج مصر في أيام المأمون أربعة آلاف ألف ومائتي ألف وسبعة وخمسين ديناراً .

الخط ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(١٩) ينقل القلقشندي عن ابن الطوير أن سبب خلوص الذهب بالدينار المصرية ما حكى أن أحمد بن طولون كان يسير يوماً بجهة عين شمس ، إذ ساخت قدم فرسه في أرض صلبة فامر بحفر ذلك المكان ، وعثر على لوح لطيف على صدر أحد الموتى مع بعض النواويس المملوءة بسبائك الذهب ، فاحضر ابن طولون أحد الرهبان من الصعيد لقراءة اللوح فلما وقف على ما في اللوح قال : « ان هذا اللوح يقول : أنا أكبر الملوك وذهبي أخلص الذهب ، فلما بلغ ذلك ابن طولون شدد في العيار على دار الضرب ، وكان يحضر ما يعلق من الذهب ويختتم بنفسه فبقى الأمر على ما قرره في ذلك من التشديد في العيار . صبح الأمشي ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ . وروى المقرئى أن أحمد بن طولون ركب يوماً في سسمت الأهرام والعمال يحفرون فكشفوا عن حوض مملوء بالدنانير وعليه غطاء مكتوب عليه بما يشبه ما رواه ابن الطوير فقد جاء على لسان الملك والذي ميز الذهب من نغشه ودلسه من أرواده أن يعلم فقتل ملكي على ملكه ، فليُنظر إلى فضل عيار ديناري على عيار ديناره ... » . الخط ، ج ١ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

توحيد مصر والشام ، فإنه أقدم على ضرب الدنانير التي تحمل اسمه ، وهو مستعد لخوض غمار الحرب في سبيل أقرار هذا الحق لنفسه ، ومن المعروف أن سك العملة كانت إحدى مظاهر الاستقلال ، وشارات الملك في العالم الاسلامي في ذلك الوقت .

وهكذا كانت الدوافع الحقيقية وراء ضرب الدنانير الاحمدية ذات الغيار الجيد ، والتي أقبل المصريون على التعامل بها بدلا من الدنانير العباسية ، حيث حظيت من التقدير لنقاوتها ، كما اتجه الصائغة بوجه خاص الى اقتنائها على اعتبار أنها أفضل ذهب يستخدم في صناعة التذهيب .

أما بالنسبة لانشاء دار ضرب جديدة على يد أحمد بن طولون لضرب هذه الدنانير التي عرفت بالاحمدية ، فربما كان الأمر يقضى بتأسيسها أو قيامها في العاصمة الجديدة القطائع ليتسنى تحرير العيار الجيد على ما ارتآه ابن طولون (٢٠) ، وأما دار الفسطاط فقد أوقف العمل بها على ضرب الدراهم أو العملات النحاسية التي كانت أيسر حالا في سبكها وضربها ، كما كانت عليه الحال في بداية عملها في العصر الاموي على نحو ما أشرنا من قبل (٢١) .

وتنحصر الدنانير الاحمدية فيما بين ٢٦٦ هـ ، ٢٧٠ هـ على التوالي ، وهي دنانير تشير الى دور سك مختلفة بعضها ضرب في مصر (٢٢) ، والآخر ضرب الرافقة ودمشق ، ومن تلك الدنانير التي ذكرها Lane-poole ما ضرب في مصر عام ٢٦٨ هـ / ٨٨١ م .

هذا ولم يقتصر الأمر على سك النقود من الدنانير في عصر الطولونيين والأتشيديين ، بل استمرت دور الضرب في اصدار السكة من الدراهم ، وكان يقترب وزنها من الوزن الشرعي للدرهم الاسلامي (٢٣) ، كما اهتم

(٢٠) يذكر البلوى أن الأمر الطولوني خصص لكل صنف من جميع الصنائع وأمر له سوقا حسنا عامرا ، ولكنه لم يذكر صراحة أنه تم تأسيس دار للضرب جديدا بالقطائع .
سيرة أحمد بن طولون ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢١) زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٢٢) استطاع عبد الرحمن فهمي أن يجرى الكشف عن تقدير عيار السكة الطولونية في حدود بعض القطع التي يملكها متحف الفن الاسلامي وقدرها نحو عشرين قطعة من الدنانير الاحمدية وقد ثبت لديه أن جميعها من عيار $23\frac{1}{4}$ قيراط من ٢٤ قيراط ، أو ٩٧٩٢ بحساب الميار الألفي ، وهو أعلى عيار وصلت اليه السكة الاسلامية على أي حال ، ولعل ذلك ما دفع للقرىزي الى الإشارة الى تفوق الميار الاحمدى الذي لم يكن يصاب بأجود منه . الخطط ، ج ١ ، ص ٧٦ ، فجر السكة العربية ، ص ١٣٤ .

(٢٣) تراوح وزن الدراهم الطولونية بين ٢٠٤٥ ، ٢ جرام بينما كان وزن الدرهم الشرعي يقدر بنحو ٢٠٩٧ جرام .

ابن طولون بضرب الفلوس ، فبينما ضربت الدنانير الاحمدية ابتداء من سنة ٢٦٦ هـ ، ترى الفلوس الطولونية تظهر منذ بداية حكم الطولونيين .

كما يبدو الجديد في سك النقود انه لم يقتصر على تحرير العيار الجيد بالنسبة للدنانير التي ذاعت شهرتها (٢٤) ، وانما كان في طريقة الصب التي اتبعها السباكون في دور الضرب في عهد الطولونيين والاششيديين بالاضافة الى طريقة الطرق ، فبعد ان كان ينقى الذهب والفضة بالسبك عدة مرات ، كانت تصب منه قطع ذات وزن معين ، كما كانت تقطع منها قطع وتطرق لتأخذ شكلا دائريا ، ثم تطبع القطع المستديرة بجديدة منقوشة كان يطلق عليها السكة . وكان يعتبر ضرب النقود خارج الدور المخصصة لذلك جريمة يعاقب عليها .

كما يظهر انه كان يتم وزن النقود المضروبة عند استلامها من دور الضرب ، وكذلك عند التعامل بها كما يتضح لنا من أوراق البردى العربية (٢٥) .

ومن أسماء الضرابين التي حفظتها لنا شواهد القبور من عهد الطولونيين اسم « عمر بن محمد الضراب » حيث ترجع وفاته الى سنة ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م .

كما آمدنا ابن سعيد باسم متولى دار الضرب في عهد الاششيديين ، فهو ينقل لنا عن ابن زولاق رواية أشار فيها الى جشع الاششيد وحبه للمال (٢٦) ، وذكر انه حينما قدم صدقة بن الحسن المشرف على دار الضرب ومعه دنانير وسبيكة ، أحضر معه السباكين ليقوموا عيار الدنانير ، وقد جاء صدقه ومعه خمسون دينارا لتسبك بحضرته فقال له الاششيد : « كم

(٢٤) ومن الأسرة الطولونية التي ضربت الدنانير باسمها الأمير هارون بن خمارويه ، فقد تم ضرب دنانير حملت اسمه بالفسطاط وذلك عام ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م . الكندي : الولاة والقضاء ، ص ٢٤٢ .

Lane-poole : A History of Egypt, p. 76, Fig. 16.

(٢٥) جاء في خطاب خاص بدفع مال يرجع تاريخه الى القرن الثالث الهجرى من طراز الأشمونيين ما يحمل هذا المعنى فقد جاء فيه « ضار الى على يد صبح خمسة دنانير ينقصون ثلاثين دينار غير ثلث قيراط » . جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٥ ، ص ١٠٠ .
(٢٦) قيل ان ما خلفه الاششيد بعد وفاته سبع مطامير ، في كل مطمورة منها نحو مليون دينار ، كما خلف من الجواهر ما قيمته ألف دينار . والمطمورة هي الحفرة في الأرض تحب فيها الأشياء أو البعاء التي تخزن فيها النقود .

المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

معك » فقال : « خمسون دينارا » فقال : « هاتها وأخرج منها عشرة
دينانير » فقال : « اسبكوا » فسبكت . واعتدل العيار ، فقال : « يكون
العيار على هذا » ورد العيار الى على بن أسحق وسلم اليه السكك وانصرف .
وهكذا أخذ منها الاخشيد أربعين دينارا وسبكت فقط الدينانير العشرة
الباقية ، وانصرف المشرف على دار الضرب بعد ذلك بعد أن اضطر الى
تعويض أصحاب الدينانير التي حصل عليها الاخشيد .

ومهما يكن من أمر حب المال وجشع الاخشيد ، فقد اهتم بأمر دار
الضرب فكان يشرف عليها بنفسه أحيانا ، وعنى بالنظام فيها ، وقد حسن
حال مصر على يديه ، وأمر بضرب الدينار الاخشيدى على عيار كامل وصلحت
النقود في عهده بعد فسادها .

وكان متولى دار الضرب له الاشراف المباشر على العمال والصناع بها ،
ولم يكن هناك ثمة تعارض مع اشراف القاضى عليها من الوجهة الادارية بل
كثيرا ما كان القاضى يكتفى باختيار من يريده من نواب الحكم لمباشرة أعمال
دار الضرب . وكما يذكر الكندى فإن الحسين بن زرعة الدمشقى قد تولى
قضاء مصر في شوال سنة ٣٢٤ هـ والنظر في الموارد والأعباس ودار
الضرب .

ويظهر أن اسناد الاشراف الرسمى على دار السك أو الضرب الى
القاضى إنما كان هدف الحكام والولاة منه هو ضمان شرعية الدينانير
والدراهم التى تصدر عن الدار بأسمائهم سواء من حيث جواز العيار أو
الوزن ، خاصة وأن القاضى كان يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره .

ومن أسماء العاملين بدار الضرب فى عهد الاخشيديين كما يذكر
ابن سعيد كان يحيى بن رجاء المعدل ، لعله كان يشغل وظيفة المقدم الموكل
اليه أمر حفظ العيار للذهب والفضة فى سك العملات الصادرة عنها .

ولسنا ندرى من أمر أنواع الدينانير التى أطلق عليها المعسولة أو
المشرقية ، والتى ورد ذكرها فى أوراق البردى وترجع الى القرن الرابع
الهجرى ، ومن المرجح أنها لم تضرب بدار الضرب بالفسطاط ، بل حملها
التجار من خارج مصر نتيجة لمعاملاتهم التجارية .

ومن الملاحظ أنه لم تضرب الدينانير باسم مؤسس الدولة الاخشيدية
وانما باسم الخليفة العباسى ، أما نقش اسمه على الدينانير بمفرده ، فقد
حدث ذلك فى سنة ٣٢٩ هـ ، حينما فكر الاخشيد فى الاستقلال التام عن

الخلافة العباسية ، واتخاذ نقش السكة كاحدى شارات الملك (٢٧) .

كان الغلاء الشديد الذى وقع فى مصر سنة ٣٤٢ هـ واستمر نحو تسع سنين متتابة من الأسباب التى أضعفت الدولة الاخشيدية وعجلت بسقوطها ، كما يبدو أنه كان من أسباب تعطيل دار الضرب بالقسطاط نتيجة لتلك الظروف السيئة ، خاصة بعد موت كافور واضطراب الأحوال وكثرة الفتن ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل وية بدينار .

ويؤكد المقرئى على أن دار الضرب بمصر قد تعطلت فى تلك الفترة ، كما يتضح لنا من قوله صراحة : « وأمر جوهر بفتح دار الضرب ، وضرب السكة الحمراء (٢٨) وعليها دعاء الإمام معه بتوحيد الإله الصمد فى سطر وفى السطر الآخر المعز لدين الله أمير المؤمنين » .

كما يفيد النص فى أن القائد جوهر قام بضرب الدينار المعزى منذ فتحه للبلاد فى سنة ٣٥٨ هـ (٢٩) . ولا شك أن منع جوهر من التعامل بالدينار الأبيض (٣٠) وكان بعشرة دراهم (٣١) ، وكذلك الدينار المنقوش

(٢٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٢٩ ، سيده كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ٢٠٤ ، أما أن كافور الأخشيدي لم ينقش اسمه على السكة ، فيبدو أن ذلك كان وقفا على نقش الدنانير والدراهم ، فهناك قصة من الفيلسوف الضرورية باسم الأستاذ كافور وقد صنعت من خامه مصبوبة فى القلب مباشرة ، وتلك القطعة من بين مجموعة المسكوكات التى يضمها متحف الفن الإسلامى بالقاهرة . سيده كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ٢٠٤ ، عبد الرحمن فهدى : فجر السكة العربية ، ص ٢٣٤ .

(٢٨) ولعله يعنى بالسكة الحمراء الدينار الأحمر أى المصنوع من الذهب الجيد المماثل الذى كان يمتاز به العصر الفاطمى . الكرمل : النقود العربية ، ص ٥٩ .

(٢٩) وجاء فى السطر الآخر على وجه الدينار الذى أمر بضربه جوهر « بسم الله ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » . المقرئى : اتعاظ الخفا ، ج ١ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٣٠) ورد ذكر الدراهم البيض أنها كانت من ضرب الحجاج بن يوسف فى العراق ، كما يتضح مما أورده المقرئى أن هذا الدينار كان قليل القيمة جدا ، فلعله كان يشتمل على كمية كبيرة من الفضة مما أضعفت به قيمته ، ومما جعل الناس يسمونه بالأبيض . نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٧٢ ، حاشية تحقيق جمال الدين الشيال .

(٣١) كان الدينار فى القرن الرابع الهجرى يساوى نحو الأربعة عشر درهما ، والدرهم ستة دنانير ، والدنانير اثني عشر قراطا ، آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

باسم الخليفة العباسي الراضي (٣٢) قد أدى منذ بداية حكم الفاطميين للبلاد الى نشاط دار الضرب المصرية وحاجتها الى سك المزيد من الدنانير والدراهم بما يتفق وسياسة الفاطميين الجديدة .

كما شجع على ذلك ما حمله المعز لدين الله من السبائك الذهبية في هيئة أحجار الطواحين المستديرة ، وذلك حين قدومه الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ . وقد قدرت هذه السبائك الذهبية بنحو ثلاثة وعشرين مليون دينار ، أعاد المعز ضربها من جديد في دار الضرب المصرية بالقسطة .

ويذكر المقدسي أن النقود كانت زمن دخول الفاطميين هي المثقال والدرهم والدينار الراضي ، وقد غير الفاطمي (يعني الخليفة المعز لدين الله) تلك النقود ، وأبطل القطع والمثاقيل والمكايل . كما جاء في عقد الصلح بين جوهر المصريين في الاسكندرية في الثامن من شعبان سنة ٣٥٨ هـ أن وافق الطرفان على تغيير النقود وتجويدها ، ومنع الغش بها وصرفها الى العيار الذي عليه النقود وألثى ضربها الفاطميون في عاصمتهم المنصورية بشمال افريقيا (٣٣) .

وهكذا نشطت حركة سك الدنانير والعملات الأخرى ، بعد أن حملت السياسة الفاطمية الناس على التعامل بالدنانير الفاطمية ، والعمل على الأكار من ضربها حتى تغمر الأسواق . كما عمل الفاطميون على ضرب عملات جديدة من الذهب هي ربع الدينار أو الربع ، وأصدروا منها الكميات الضخمة ، ينقل القلقشندي عن ابن الطوير أن الخليفة الفاطمي كان يعطي في نهاية العام الهجري أمرا بسك كميات من النقود بمناسبة السنة الجديدة تسمى « الفرء » وهي مجموعة من الدنانير ومن الرباعيات والدراهم المستديرة .

وكان يحمل منها الى الوزير ثلثمائة وستون دينارا وثلثمائة وستون

(٣٢) نسبة الى الخليفة العباسي الراضي ، وقد أصدر الخليفة المعز تعاليمه الى عمال الخراج الا يتسلموا الخراج الا بالدنانير المعزية ، وامتنع كل من يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن أن يأخذا في الخراج الا دينارا معزيا وهكذا اتضح الدينار الراضي وانحط ونقص من صرفة أكثر من ربع الدينار ، وقد كان الناس قبل مجيء الفاطميين يكتثرون من التعامل به . المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ ، المقرئزي : اتعاظ الخلفاء ، ص ١٧٢ ، ١٩٩ ، النقود الإسلامية ، ص ١٤ .

(٣٣) المنصورة نسبة الى الخليفة المنصور بن القائم بن عبد الله المهدي ، وقد ولد بالمهدي في سنة ٣٠٣ هـ وبويج له في شوال سنة ٣٣٤ هـ . المقرئزي : اتعاظ الخلفاء ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٣ .

رباعيا وثلثمائة وستون قيراطا كذلك والى أرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام من عشرة دنانير وعشر رباعيات وعشرة قراريط الى دينار ، وكان هؤلاء من رجال الحاشية والبلاط الفاطمي يقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة .

وقد جرت العادة أيضا أنه كانت توزع في عيد الفطر بعض المسكوكات الذهبية والفضية التي كانت تضرب خصيصا بهذه المناسبة ، كما كانت دار الضرب تقوم بضرب نوع من المسكوكات التذكارية صغيرة الحجم خفيفة الوزن أطلق عليها اسم خرايب ، لتوزع على أفراد الشعب في بعض المواسم والأعياد ، كما هو الحال في خميس العهد ، يذكر المقرئى أنه كان يطلق عليه العامة من الشعب « خميس العدى » وكان يحتفل به قبل عيد الفصح بثلاثة أيام ، وكان يتم ضرب ما قيمته خمسمائة دينار ذهبيا عشرة آلاف خروبة يتم توزيعها على جميع أرباب الرسنوم الفاطمية (٣٤) .

وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله تم ضرب دراهم جديدة من الفضة تم تحديد قيمتها بالنسبة للدينار ، وكان الهدف منها تيسير التعامل في السلع القليلة الثمن ، ولعل الحاكم كان يسعى الى الإصلاح بعد أن نزعبت الأسعار واضطربت أمور الناس (٣٥) ، فقد ذكر المقرئى أنه فى سنة ٣٩٧ هـ تزايد أمر الدراهم القطع فبيعت أربعة وثلثون درهما بدينار ، ولم تر الحكومة مناصا من التدخل لحماية نقدها ورحمة بالناس ، فرفعت الدراهم ، وأنزلت عشرين صندوقا من بيت المال فيها دراهم جدد ، ففرقت فى الصيارف وقريء سجل بمنع المعاملة بالدراهم الأولى ، وترك من فى يده منها شيء ثلاثة أيام يورد جميع ما تحصل منها الى دار الضرب . وهكذا تحولت مصر بشكل واضح الى نظام المعدنيين bimetallic system ، وقررت الحكومة الفاطمية أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار .

كانت دار الضرب يتولاها فى العصر الفاطمى قاضى القضاة تعظيما لشأنها ، ويقوم لمباشرة ذلك من يختاره من نواب الحكم ، وبقي الأمر حتى

(٣٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٦٦ .

(٣٥) ولعل الحاكم توقع قلة الإنتاج من الذهب ازاء الزيادة فى استخدامه والاقبال الهائل على اختزانه ، فهذه التفكير الى اتخاذ هذه الخطوة حتى لا نفاجا البلاد بأزمة فى النقود قد يتعبر مواجهتها فى المستقبل . ومما يعزز ذلك ما أشار اليه حسين مؤنس من نضوب المناجم المعروفة ، وإخفاء الناس ما لديهم من الذهب والفضة حيث بلغت أزمة الذهب والفضة ذروتها فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، انظر البرادى : بحالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ص ٣٠٥ ، عالم الاسلام ، ص ٣٢٨ .

بعد زوال الدولة الفاطمية • وقد أمدنا ابن مماتى بعيار الدراهم التى كانت تضرب بها ، حيث كان يتم سبك ٣٠٠ درهم من الفضة مع ٧٠٠ درهم من النحاس الأحمر ويسبك ذلك حتى يصير ماء واحدا ، ثم يصب قضباناً ويقطع من أطرافها خمسة عشر درهماً ثم تسبك ، فإن خلص منها أربعة دراهم ونصف درهم من كل عشرة دراهم ، والا أعيدت الى أن يصح العيار ثم تختتم •

كما أوضح لنا قيمة أجرة الضرابين وغيرهم من الصناع فى دار الضرب ، وقد بلغت نحو أربعة وثلاثين ديناراً وربع وذلك حتى عام ٥٨٦ هـ أى الى ما بعد زوال الدولة الفاطمية • ويبدو أن أبا جعفر الوزير أبى الفضل ابن الفرات ظل يعمل بدار الضرب ويسبك الدنانير والدراهم حتى وفاته عام ٤١٤ هـ (٣٦) •

وقد تميزت العملات المصادرة من دور الضرب فى العصر الفاطمى بزيادة النقوش والزخارف ، اذ عمل الصناع على نقش كل وجه من وجهيها بثلاثة دوائر داخل بعضها ، وكانت الكتابة على النقود بالخط الكوفى البارز ، كما يتضح ذلك من الدنانير الفاطمية التى تم سكها فى دار الضرب بالاسكندرية • وقد حافظ الأيوبيون على طراز الكتابة الكوفية الفاطمية فوق سكتهم التى ضربت بالاسكندرية حتى عهد السلطان الكامل حين بدأت تشيع الكتابات النسخية فى دنانير الأيوبيين •

كما يعلل لوبون مسألة عدم تحريم التصوير لدى الخلفاء بما ظهر من صور لهم على النقود التى تم سكها فى دور الضرب فى ذلك العصر ، فهو يقول : « فانهم لم يترددوا فى رسم صورهم على نقودهم » • وهكذا كان الضرابون من أمهر الرسامين والصناع فى دور الضرب المصرية وغيرها فى العالم الاسلامى •

ولا شك أن نشاط حركة سك النقود ظل مقرونا بسياسة الخلفاء الفاطميين ونقش أسمائهم وصورهم على الدنانير والنقود الأخرى طوال عهدهم • ففى سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م ضرب الخليفة الأمر بمصر نوعاً من المسكوكات الفضية المشهورة بالأمرية ، يتحدث عنها المقرئ فىقول : « ثم اشتهر فى كتب الأخبار أن الفضة صارت تضرب نقوداً بمصر وأنها

(٣٦) لم يوضح لنا المسبى عما اذا كان يضرب الدنانير والدراهم التى اشتهر بها وكان حاذقاً لصنعتة بها فى أى دار للضرب ، حيث كانت أعمال سك النقود خارجها بمذ جريمه يعاقب عليها • أخبار مصر ، ص ٣٦ ، ٢١١ ، حسن عبد الوهاب : توقيعات انصاع ، ص ٥٤٤ •

سميت بين الدراهم باسم المسوذة ، وبها كانت معاملة أهل مصر والقاهرة .
والاسكندرية وتعرف بنقد مصر » .

والواقع أننا نشهد نشاطا ملحوظا في عهد الخليفة الأمر منذ توليه
الخلافة ، فلم يقتصر اهتمامه على سك النقود التي حملت اسمه ، بل تم
تأسيس دارين للضرب في عهده ، وأظهر مدى حرصه على عيار الذهب
بهما وبدور الضرب الأخرى ، يشير ابن بكرة الى ذلك قائلا : « وأمعن
الكشف في أسرار عمل الذهب بدار الضرب سنة ٥١٤هـ ووقف على أصل
لا يجوز لغيره أن يتعداه وبالحق في الاستقصاء عنه الى حد لم يصل اليه
سواه ، وصار قدوة يقتدى به من بعده » .

أما عن دار الضرب الجديدة التي أمر ببنائها بالقاهرة على القرب من
الجامع الأزهر ، فقد ذكر ابن ميسر أنه في شوال سنة ٦١٦هـ أمر الوزير
المأمون بعمل دار ضرب بالقاهرة ، وأن يكون دينارها أعلى عيارا من جميع
ما يضرب في سائر الأمصار ، وقد أطلق عليها الدار الآمرية ، واستخدم
لها العدول (٣٧) . وقد بقيت الدار القديمة بالفسطاط لصنع بعض
المسكوكات الخاصة حيث كانت تضرب بها العملات التذكارية ومنها
مسكوكات خميس العدس :

كما جاء في كتاب وصف مصر بأنه تم بناء دار للضرب في مدينة
المنصورة بالقرب من النيل على فرغ دمياط ، ولا شك ان في ذلك مجافاة
للحقيقة ذلك أن هذه المدينة لم تكن قائمة أصلا زمن الفاطميين ، وقد تولى
بناءها السلطان الملك الكامل الأيوبي في سنة ٦١٦هـ حين استولى الفرنج
على مدينة دمياط ، وبدأ في تجهيز العدد والقوات لملاقاتهم (٣٨) .

وتشير المصادر الى أن الخليفة الأمر أمر ببناء دار لسك النقود الذهبية

(٣٧) ذكر المقرئ أنها كانت بحى القشاشين بالمكان الذى يشعل اليوم مجموعة
المباني التي يحدها من الشمال شارع الصناديقية ، ومن العرب شارع الغورية ومن الجنوب
شارع الأزهر ، وكانت هذه أول دار للضرب بالقاهرة المعزية . الخطط ، ج ٢ ،
ص ١٩٤ - ١٩٥ ، ابن بكرة : كشف الأسرار العلمية ، تقديم عبد الرحمن نهى ،
ص ٣١ .

(٣٨) يشير الباحث الى أن دار الضرب تم انشاؤها في مدينة المنصورة على يد الخليفة
المنصور بالله والد المعز لدين الله عام ٣٨٨هـ ، ولا ريب أن الخليفة المنصور المولود بمدينة
المهدية بالمغرب ، قد تولى الحكم سنة ٣٣٤هـ وبنى مدينة المنصورة بالقرب من القيروان في
المغرب وتوفى بها سنة ٣٤١هـ قبل مجيء الفاطميين بعشرات السنين . المقرئ : الخطط ،
ج ١ ، ص ٤٣٢ ، اتعاط الحنفا ، ج ١ ، ص ١٢٩ - ١٣٣ . تحقيق الشيبان . سمويه
برنارد : وصف مصر ، ج ٦ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ . ترجمة زهير الشايب .

بمدينة قوص وذلك فى سنة ٥٢٤ هـ ، ويبدو أنه تم ذلك حين استجاب بنو الكنز لطلب الخليفة من أجل العمل على استخراج كميات كبيرة من الذهب تكفى لحاجة دور الضرب المتزايدة ، ولكى تكون الدار الجديدة بقوص بالقرب من موطن استخراج الذهب من جهة أخرى .

وهكذا تعددت دور الضرب فى أواخر أيام الفاطميين ، فأصبحت فى كل من الاسكندرية والفسطاط والقاهرة وتنيس وقوص من المدن المصرية ، كما كانت فى كل من صور وعسقلان وطبرية ودمشق من بلاد الشام .

ومن الجدير بالذكر أن دور الضرب فى العصر الفاطمى لم يقتصر دورها على سك النقود للدولة وحدها (٣٩) ، بل كان مصرحاً لسائر الأفراد بالالتجاء الى هذه الدور لضرب ما معهم من سبائك ذهبية حيث تسك لهم نقوداً وذلك فى مقابل رسوم مقررة . وقد أمدنا ابن ممتى بما يؤيد هذا الرأى بالنسبة لما كان يتم ضربه من دنانير بدار الضرب بالقاهرة حيث قال : « وأجرة كل ألف دينار تضرب بالقاهرة ثلاثون دينار يخرج من ذلك أجرة الضرابين ثلاثة دنانير ، ورسم المشاركة ربع وسدس وثمان وجبة وثلاثي دينار » . والفضة يؤخذ فيها ثلاثمائة درهم تضاف الى سبعمائة من النحاس ، وأجرة ضرب كل ألف درهم كان أربعة عشر درهما ونصف ، يخرج من ذلك المشاركة درهمان وربع .

كما أمدنا لينبول بأسماء الخلفاء الفاطميين التى نقشست أسماؤهم على الدنانير والمسكوكات حتى الخليفة العاضد الفاطمى .

وتشير المصادر التاريخية الى نضوب موارد الذهب فى منطقة العلاقى فى أيام الخليفة العاضد ، والى زهد بنى الكنز فى الإقامة بهذه المنطقة من الصحراء ورحيلهم عنها الى بلاد النوبة والسودان فى بداية عهد الأيوبيين . كما حرمت خزائن الدولة من حوالى عشرين ألف دينار كانت تحصل من مدينة تنيس سنوياً لما كانت تصدره من الثياب والأقمشة ، وذلك نتيجة لنهب الصليبيين لهذه المدينة فى أواخر أيام الفاطميين (٤١) .

(٣٩) ويظهر مدى حرص الوزراء وشغفهم بحوزة الأموال وما كانوا يدخرونه منها ، فمما قيل أن الوزير الأفضل خلف عند مقتله فى رمضان سنة ٥١٥ هـ مائة ألف دينار ومن الدراهم مائة وخمسين اردبا . وربما كانت الأرقام تحمل معنى المبالغة اذ ليس من المعقول أو المناسب أن يكون الأمر كذلك . زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ، ص ١٥٨ .

(٤٠) كان لتنيس فى العصور الوسطى شأن خطير من الناحيتين الحربية والصناعية ، فقد كان الروم يغيرون عليها بأساطيلهم كلما فكروا فى غزو مصر ، ولهذا كانت بها دار صناعة وأسطول مقيم ، وكانت بها حصون وقلاع قوية ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، حاشية تحقيق جمال الدين الشيبان .

وهكذا يصف المقرئى اختفاء النقد الذهبى فى نهاية العصر الفاطمى
فيقول : « وعت بلوى المصارف بأهل مصر ، لأن الذهب والفضة خرجا
منها وما رجعا وعدما فلم يوجد ، ولهج الناس بما عمهم من ذلك ، وصاروا
إذا قيل دينار أحمر فكأنما جاءت بشارة الجنة له » ولا شك أن انعدام
الذهب والفضة ، كان السبب الرئيسى فى تعطل دور الضرب المصرية ،
ولم تجد من المعادن النفيسة أو من المقادير ما يسمح لها باستمرار نشاطها
وضربها للدنانير الذهبية والدراهم الفضية . ولم تجد تلك الدور من مناص
فى ضرب تلك الدراهم السود وهى تختلف عن الدراهم الفضية النقرة التى
ضربت فى عهد الحاكم بأمر الله ، حيث كان الصنّاع يسبكونها من النحاس
مع اليسير من الفضة . ولم تزل دور الضرب تصدرها حتى استولى
الأيوبيون على البلاد ، وتقدم السلطان محمد الكامل فى ذى القعدة من سنة
٦٢٢ هـ ، وأمر بضرب دراهم مستديرة غير الدراهم المصرية التى كان
يطلق عليها المصريون « الورق » .

٥ - صناعة الأسلحة ومعدات السفن الحربية في مصر الإسلامية في عصر الولاة

تعد صناعة السيوف والدروع والمخوذ وغيرها من السهام والرمح من أنواع الأسلحة الخفيفة من أهم الصناعات المعدنية في مصر في عصر الولاة .

وكما عرف المصريون صهر المعادن وإحالتها إلى صفائح رقيقة من الحديد والنحاس واستخدامها في صناعة الأسلاك والسلاسل منذ العصور المبكرة (١) ، فإنهم تمكنوا من صنع الرماح والسهام المعدنية وغيرها من أدوات القتال والحرب ، وقد ذكر ابن زولاق أن المصريين كانت لهم شهرتهم في عمل المجانيق ورمي الحصون بها قبل الفتح العربي .

ولا شك أن العرب الفاتحين حينما استولوا على البلاد عام ٦٤١ هـ / ٦٤١ م ، قد غنموا بعض المعدات والآلات الحربية في حصارهم لبعض الحصون والمدن المصرية مثل أنواع المناجيق والدبابات ونحوها من الأسلحة الثقيلة التي سرعان ما تعلموا طرق إصلاحها وإدخال التحسينات في صناعتها (٢) .

وتشير المصادر إلى أن حركة صناعة الأسلحة بالإسكندرية وتجارتها

(١) تمكن المصريون منذ العصور القديمة من صناعة دقاق النحاس التي تستخدم في كساء التماثيل المصنوعة من الخشب أو صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية .
يقول : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، ص ٢٦٧ .

(٢) ذكر بتلر أن العرب غنموا بعض آلات الحرب في غزوهم الفيوم وعند حصارهم لحصن تراجان في منوف وأشار إلى أنهم كانوا لا خبرة لهم بأمرها ، ولا علم عندهم بطرق إصلاحها

كانت راثجة عند دخول العرب الى البلاد ، وقد اشتملت قوانين جستنيان الصادرة في سنة ٥٣٩هـ بعض الفقرات التي تقضى بوجوب حرص حكام الأقاليم واهتمامهم بصناعة الأسلحة في مصانع الحكومة ، ولا يجرى بيعها الى الأفراد ، وألا تستخدم في الفتن والاضطرابات الداخلية ، وعلى من يخالف ذلك دفع غرامة قدرها عشر صولداً من حكام الأقاليم (٣) . كما ورد أن لامبراطور البيزنطى أبلغ حاكم الاسكندرية وهدده بدفع غرامة قدرها عشرون صولداً اذا لم يعن في مراقبة تجارة الأسلحة .

وكما ورث العرب الفاتحون النظم البيزنطية وعملوا على الاستفادة منها . فان حاجة الجيش الفاتح من السيوف والدروع والسهم والرمح وغيرها من أنواع السلاح المصنوعة من الحديد والمعادن المختلفة ، قد ازدادت بزيادة أعداد هذا الجيش ورجال الأسطول المصرى بعد ذلك (٤) .

ولا شك أن مصانع الأسلحة التي كانت تملكها الدولة في الاسكندرية والفرما والقيسوم وغيرها من عواصم الأقاليم المصرية قد زادت من حجم انتاجها ، خاصة وأن مصر ظلت قاعدة للفتوحات والتوسع ، تخرج منها الحملات العسكرية متجهة نحو الجنوب ونحو الغرب ، أما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التي سارت لفتح النوبة أو لفتح برقة أو من أجل المشاركة في جيوش الخلافة ، عندما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح في خلافة عثمان بن عفان ، وخرج منها لغزو افريقيا .

وكما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى (٥) : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسوله بالغيب ان الله قوى عزيز » ، فقد كان اهتمام العرب بأنواع الأسلحة التي يحاربون

(٣) الصولدى أو السوليدس Solidus هو الدينار البيزنطى أو البوزما كما تعارف عليه في مصر وقدره أربعة وعشرين قيراطاً . عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ١٩ .

(٤) ولا شك أن الفاتحين العرب قد استفادوا من خبرة المصريين ومهارتهم في عمل المناجيق ورمى الحصون والحيل على الجيوش براً وبحراً في أعقاب الفتح وفي تأمين البلاد المفتوحة . ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، ورقة ٩ مخطوط .

(٥) سورة الحديد ، الآية ٢٥ .

بها ، وصار ذكر أنواع السيوف والرماح والتروس والدروع تجرى على
لسانهم في مجالسهم (٦) .

وجاء في وصف الجيش في العصر العباسي ، أنه لم يكن يختلف على
مدى قرن كامل من تأليفه في عدته وعتاده وتدريبه عن الجيش البيزنطي ،
فاستعمل نفس الأسلحة وهي القوس والنسهم والرمح والقلع والسيوف
والبلطة . أما ملابس الجند فجمعت بين حسن المخبر والمظهر ، فكانت هناك
البیضة للرأس والدروع للجسم ، وذلك فضلا عن الأحزمة والمناطق .

وكما أشرنا من قبل ، فإن مصر كانت تحصل على حاجتها من الحديد
والصلب والرصاص من نواحي الشام ومما يصل من بلاد الهند الى القلزم
حيث كانت الهند مصدرا هاما لحاجيات أسواق المدن الإسلامية من الحديد
والصلب ، وكان العصر الذهبي لصناعة الحديد ، كما اشتهرت به منذ
القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد ، وظلت كذلك حتى نهاية العصر
الفاطمي .

وكان من أهم السلع المجلوبة الى مصر الحديد والصلب اللذان كانا
يستعملان في صناعة السيوف ، وقد أفاض كل من ابن سلام المتوفى في
بغداد سنة ٢٢٤ هـ في وصف أنواع السيوف التي صنعت بعناية فائقة
ودقة عظيمة ، والعالم والفيلسوف اسحق الكندي في رسالته الشهيرة ،
وفيما يطرح على الحديد والسيوف فلا تتلم ولا تكل ، فقد أوضح فيها من
أنواع الحديد والفولاذ وفي كيفية صناعة السيوف وطلائها حتى لا تصدأ ،
وأصناف الخناجر وطرق سقيها بالسوم (٧) ، وكان أقوى السيوف
وأفضلها ما صنع من الفولاذ وكذلك أسنة الرماح .

(٦) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن معدى كرب عن السلاح فقال ما تقول
في الرمح قال أخوك وربما خانك فانقص ، قال ما تقول في الترس قال هو المجن وعليه
تدور الدوائر قال : فما تقول في النبل ، قال : منايا تخطيء وتصيب ، قال : فما تقول
في الدرع قال : مفشلة للرجال مشغلة للفارس وانها لحصن حصين ، قال فما تقول في
السيوف . قال : هنالك لا أم لك يا أمير المؤمنين فعلا بالدرة « وروى ابن عبد ابه
أيضا أن يبعث الى عمر بن الخطاب بسيفه المعروف بالصمصانة فبعث به اليه . الغزولي :
مطالع البدور ، ج ٢ ، ص ١٥٩ العقد الفريد ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

(٧) ومن أسماء السيوف ونعوتها النصل والصارم وفرند السيوف جوهرة ، وذبابه طرفه
وعزارة حده ، كما كان يطلق على السيوف المصنوع من الحديد سيف ليث وسيف صلب
وهو المصنوع من الفولاذ ، والسيوف العربي المصنوع وفق الطراز الفرنجي من الحديد وله
حد من الصلب أطلق عليه « سيف مذكر » . رسالة الكندي ، ص ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ،
١٧٦ ، نشر مجلة المورد ، ابن منكلى : الأحكام المملوكية والضوابط النموسية ، نشر مجلة
المورد ، بغداد ، الثعالبي : فقه اللغة ، ص ٣٨٨ ، ماير : الملابس المملوكية ، ص ٧٨ ،
ترجمة صلاح الشيتي .

ولا شك أن السيفيين بالعاصمة الفسطاط كانوا يحصلون على حاجتهم في صناعة السيوف من مسابك الفولاذ التي كانت بها ، كما كانوا يصنعون مقابض السيوف - كما يذكر الاصطخري - من جلد التمساح الذي لا يعمل السلاح فيه .

وفي مناطق البجة الواقعة بين قوص وعيذاب في الصحراء الشرقية والتي أطلق عليها المقريزي أرض المعادن ، كانت تصنع الحراب السباعية إبان الفتح العربي وكان مقدار طول الحربة ثلاثة أذرع والعود أربعة وبذلك سميت سباعية ، وعرضها في عرض السيف ، لا يخرجونها من أيديهم إلا في بعض الأوقات ، ويقول المقريزي : « وصناع هذه الحراب نساء في موضع لا يختلط بهن رجل إلا المشتري منهن » . وقد شجع أهل البجة ونسأؤهم على هذه الصناعة وجود الحديد والرصاص والجشيت وكان معدن الجشيت هذا تفضله العرب في تزيين آلات الحرب وجلائها .

وكما تشير المصادر الى كثرة استخدام السيوف والحراب في الحملات العسكرية لردع أهل البجة خاصة وأن علاقاتهم كانت تتسم بالعداء والتمرد منذ الفتح العربي حتى عصر الخليفة المأمون ، وقد كان استخدام الدروع أمرا شائعا بين الخيالة والرجالة من الجند المدرعين (٨) وكانت الدروع تصنع من صفائح الحديد المجمعّة مع بعضها بدقة ومتانة وتلبس فوق ثوب طويل ، وقد سبق ابن سلام كثير من أعلام اللغة ومؤرخي الاسلام في تصنيف الدروع ونعوتها ، مما يدل على كثرة استعمالها منذ العصر الاسلامي المبكر .

ويذكر الثعالبي من أنواع الدروع والبيض (٩) البدن واللامة والسابغة والقونس (١٠) والمغفر (١١) ، والقثير وهي مسامير الدروع . وكان من أنواع الدروع من الفولاذ كالدروع السلوقية (١٢) ، ومنها ما يصنع من

(٨) من أقدم المعارك التي خاضها الجيش الاسلامي بقيادة عبد الله بن سعد كانت غزوة ذات الصواري سنة ٣٤هـ ، ويذكر ابن عبد الحكم أن القتال فيها كان بالسيوف وذلك بعد أن ربط الجند العرب المراكب بعضها ببعض ، وقد كان ذلك من أسباب انتصارهم النهائي في المعركة .

فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ . والمقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .
(٩) البيضة هي الخوذة التي تصنع من الحديد والفولاذ ، الثعالبي : فقه اللغة ، ص ٣٣٩ .

(١٠) القونس : وهو أعلى الخوذة في مقدمة الرأس .

(١١) المغفر : وهو الزرد ينسج على قدر الرأس .

(١٢) نسبة الى سلوكة قرية باليمن .

الكتان ويسمونه درع الكتان دلاص نسبة الى المدينة المصرية القديمة .
وكانت من أعمال البهنسا فى العصور الوسطى .

ومن أنواع الأسلحة الأخرى التى كانت تصنع من المعادن ، التروس
والقسي والرماح والسهم ، وكانت التروس تصنع من الفولاذ وهى تحمل
للوفاية من ضربات السيوف ونحوها (١٣) ، ومنها ما كان يصنع من جلود
الحيوان ، ولما كان السيف لا يفارق يمين المحارب ، كذلك الترس لا يفارق
يساره ، أو ظهره عند حمله .

وقد شاع استعماله منذ العصور القديمة ، فقد صنعه المصريون
القدماء ، وكذلك اليونانيون والرومان والفرس ، وكان الترس من أدوات
القتال الشائعة فى الجيوش العربية ، ولا شك أن التراسين كانوا من
جملة صناع السلاح فى أسواق القسطنطينية والإسكندرية وغيرهما من المدن
والثغور المصرية فى عصر الولاة (١٤) .

وكما شاع صنع الدروع واستخدامها لدى الجند المدرعين كما ورد
فى أوراق البردى (١٥) كذلك تفنن الجند المسلمون فى الرمي بالقسي ،
حتى عملوا من الأقواس آلات مركبة . أما الرماح فكانت تصنع من الصلب
فى مصر منذ العصر البيزنطى ، وكذلك من الخشب وبسبي فولاذ . وقد
جرت العادة فى المواكب الخاصة لدى الولاة والأمراء أن يزین الجند الخاص
بهذه الرماح (١٦) . ومن أنواع الرماح صنعت منها ما عرف بالأسمر
والعراصن والخمان والرائش والمنجل أى الواسع الجرح .

أما السهم فكان يصنع منها أنواع أيضا ، فالغالب فى الاستعمال
لدى الرماة سهم الأهداف ، وهو سهم طويل له أربعة أذان ، ومنها المسير
الذى فيه خطوط ، واللجيف الذى سهمه غريض ، ويشير ابن منكلى

(١٣) من أسماء التروس الحوب والحفة والدرفة والمجن لأنه يستجن به . ابن سلام :
كتاب السلاح ، ص ٢٤٠ .

(١٤) يقال فى اللغة رجل تارس أى ذو ترس ، ورجل تراس أى صانع تروس .

(١٥) ورد فى إحدى البرديات من جهة اهناس يرجع تاريخها الى سنة ٢٢٢هـ إشارة
واضحة عن الحياة والجند المدرعين . جروهمان : المحاضرة الثانية عن الأوراق العربية ،
ص ١٢ ، ترجمة توفيق اسكاروس .

(١٦) أشار الرسول (ص) الى فضل الرماح فى حديثه الشريف : « ان الله جميل
رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أخرى ، ومن تشبه بقوم فهو
منهم » .

الى رماة النشاب والسهم الرائشة (١٧) ، يقوم في استخدام هذه السهم : « وأما حذاق الرماة فيختارون تقصير الريش وجعلونه أربعة أصابع أو خمسة أصابع ويجعلون لرمي البعيد ثلاثة أصابع » وقد عرقت صناعة السهم في مصر منذ العصور القديمة ، ولا شك أن الجند الفاتحين في مصر كانوا يستخدمون تلك السهم في قتالهم فضلا عن الأغراض الأخرى (١٨) ، وربما كانت طائفة المظوغة التي كانت ملحقة بالجيش المصري (١٩) هي التي كان أفرادها يصنعون مثل هذه الأدوات القتالية كالسيوف والدروع والرماح والسهم وغيرها من أنواع الأسلحة الخفيفة ، كما كان من بين الواجبات المفروضة على كل كورة واقليم من الأقاليم المصرية تزويد الأسطول المصري في عصر الولاة بمعدات السفن الحربية مثل الزبد والحدود والدق والتروس والرماح والكلاليس والباسنيثيات وهي سلاسل في رؤوسها رمانة مصنوعة من الحديد ونحو ذلك مما تحتاجه السفن الحربية في ذلك الوقت (٢٠) .

وليس من شك في أن دار الصناعة بجزيرة الروضة منذ انشائها في عام ١٥٤٠ هـ ، كان يها فريق من الصناع يعملون في إنتاج بعض معدات

(١٧) كان صناع السهم يلصقون عليها بعضا من ريش الطير فيسمى واحدة بالسهم الرائش أي السهم ذو الريش ، وقالوا الريش من السهم ، وهو ما ألصق عليه ريش ليحمل في الهواء كما يحمل الطير .

ابن مكي : التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، ص ٢٣٦ . نشر مجلة المورد ، بغداد ، العراق .

(١٨) كانت السهم أكثر شيوعا عند العرب ، فهو عماد العربي في صحرائه الواسعة ، ينتر عليه ثوبه فيستظل به إذا لفته الهجير ، ويصيده به الوحش إذا جاع ، ويهش به أوراق القجر على غنقه ويدفع به عن نفسه عدوان المعتدين ، يتخذ الفقير من فروع الشجر والغنى من نادر الخشب وكراهم العيدان كالأبنوس .

عبد الرؤوف عون : تاريخ فن الحرب عند المسلمين حتى نهاية القرن الثاني الهجري ، ص ١٦٣ .

(١٩) يذكر الكندي أن مواخير مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المظوغة والمأجولة المكان الذي يكون به القوم وعبيدهم وهو من استعمال أهل الشام . الولاة والقضاة ، ص ٤١٨ - ٤١٩ .

(٢٠) وينطبق قول ابن خلدون على المصريين في استخدام الحكام الأمويين والعباسيين لهم في شئون الجهاد وإنشاء السفن وإمدادها بالمعدات ، فقد جاء : « أنه لما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرّب كل ذي صنعة إليهم بنبليته صنعتهم واستخدموا من النواتية في حاجتهم البحرية . الخ » المقدمة ، ص ٢٢٢ . شيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ٩٢ ، بغداد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٢٠٣ .

السفن الحربية ولا سيما تلك التي كانت تصنع من الحديد أو الفولاذ ،
فضلا عما كانت تحتاج اليه تلك السفن في تركيبها من المسامير والسلاسل
ونحوها (٢١) .

ولابد من الإشارة هنا الى صناعة المنجنيقات والعرادات وغيرها من
أنواع الأسلحة الثقيلة (٢٢) ، وان كانت مادة الخشب تشكل معظم
أجزائها وتدخل في غالبية صناعتها ، الا أنها كانت من أنكى الأسلحة
وإشديها فتكا بالعدو ، وكما كانت تحمل في السفن الحربية وتستخدم
في ضرب المدن والثغور ، فإنها استخدمت في حصار المدن وضرب أسوارها
وهدم الحصون المنيعة . ومن أنواع الأسلحة الثقيلة كانت الدبابات
وكانوا يصنعونها من كتل خشبية صلبة على هيئة برج له سقف من ذلك
الخشب ، وبين كتل البرج مسافات قليلة يستطيع الرجال العمل من
خلالها . وقد تعلم المسلمون في القرن الأول الهجري صناعة الدبابات ،
ثم أدخلوا عليها كثيرا من التحسينات حتى صارت ضخمة كثيرة العجل .

ومما لا شك فيه أن المصريين قد برعوا في صناعة هذه الأنواع
الأسلحة ، كما تفوقوا في صناعة الآلات التي ترمى بالنار المهلكة إبان الفتح
العربي (٢٣) . كما شاع ذكر الزرارة أو الزراقين وهم الذين كانوا
يستخدمون تلك الاسطوانات النحاسية المستطيلة في قذف هذه النار
الاغريقية .

(٢١) يذكر السقلى أن ما يدخل في كل قطعة من القطع البحرية من أنواع المسامير
فقط أربعون ربعا من المسامير منها ألف وخمسمائة مسمار في الربع ، ومسامير التقريط منه
أربعة عشر ألفا ووزن كل ما به تسع أواق ، ومن التقريط الكبير ألفان اثنان وزن المائة منه
أربع وعشرون أوقية . في آداب الحسبة ، ص ٧٢ .

(٢٢) عرف العرب المسلحون أنواعا من المناجيق . وقد ذكر أريفا الزردكاش كيفية
تركيبها واستخداماتها المتنوعة . كتاب الأليق في المناجيق ، ص ٢٢ - ٢٣ . أما العرادة
فهى نوع صغير من المنجنيق كان يستحق لاقاء الحجار والسهام فهى أشبه شئ بالمدفعية
الحقيقية التي توجه قذائفها الى مواقع العدو في الميدان ، عبد الرؤوف عون : تاريخ فن الحرب
عند المسلمين ، ص ١٤٤ .

(٢٣) ناقش بتلر مسألة صناعة الآلات التي ترمى بالنار التي عرفت بالنار الاغريقية
وأيد رأى جينون بأن مخترع هذه النار الاغريقية إنما كان مصرية ، وأن نسبتها الى البيزنطية
بعد ذلك ربما يرجع الى كون اختراعها تم بمصر أثناء الحكم البيزنطى لها . كما يشهد
بتلر بالصانع القبطى زمن الفتح العربى ويقول : « وفى هذا ما يدل على أن الصانع القبطى
فى هذه الصناعة وفى غيرها من الصناعات الكبرى فى وادى النيل كان مستقلا بنفسه بشبر
ارشاد ولا تسير من الروم اذا لم تقل انه كان فى الحقيقة الصانع المعلم » . فتح العرب
لمصر ، ص ١٠٢ .

ولا شك أن صناعة السفن الحربية فى الاسكندرية وجزيرة الروضة فى عصر الولاة ، كانت تتطلب من آلات القتال ومن صنع مثل تلك الاسطوانات النحاسية وغيرها من المعدات التى اشتهر بها الصناع المصريون .

وفى عهد الطولونيين لقيت صناعة الأسلحة رواجاً كبيراً ، من أجل تزويد الجند وحرس الأمير ابن طولون بما يلزمه من أنواع الأسلحة والدروع ومعدات القتال والحرب ومن الجدير بالذكر أن مؤسس الدولة الطولونية كان قد اتخذ عدداً وافراً من جند السودان والروم وخصص مدينة العسكر مقاماً لهم ، ولما ضاقت اتخذ مدينة القطائع ، وفيها أقامت القطاعات المختلفة من جند السودان وغيرهم .

وكان لابد استجابة للحركة الاستقلالية وانشاء الجيش الطولونى (٢٤) ، من قيام المصانع الحكومية للأسلحة لكى تمده بما يحتاجه منها بالرغم من وجود صناعة أهلية زاهرة . ويصف اليعقوبى الأمير الطولونى وهو يستعرض جيشه فى ليلة عيد الفطر سنة ٢٦٢ هـ والجنود فى زيهم الحسن ، بالصلاح وملونات البنود والأعلام وكثرة الكراع بشكل يثير الإعجاب .

كما تشير المصادر الى كثرة استخدام أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة . مثل المجانيق والدبابات وغيرها فى الحروب التى خاضها ابن طولون ، وقد ذكر المقرئى أنه سار فى جيش عظيم حتى وصل الى نهاية حدود بلاد الشام وحاصر انطاكية ورمها بالمجانيق حتى دخلها فى المحرم سنة ٢٦٥ هـ .

ويبدو نشاط صناعة السلاح ملحوظاً فى عهد ابنة خمارويه ، وكان قد اتخذ من قطاع الطرق ضخامة الأجسام ما عرفوا بالشجاعة والبأس ، وأدخلهم فى خدمته وأدر عليهم الأرزاق والعطايات ، ومنع الناس من أذاهم ، وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباچ ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة ، وتسير خلفهم طوائف العسكر ، يتلوهم ألف من الجند السودان لهم درق مصنوع من الحديد ، وعليهم الأقبية والعمائم السود ، فيخالهم الناظر بحوا أسود لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم ، ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم البيض التى تلمع من تحت العمائم .

والواقع أنه بعد دخول القائد العباسى محمد بن سليمان مدينة

(٢٤) وقد بلغ عدد الجيش فى عهد الطولونيين قرابة سبعين ألف ما بين جنود الترك وعبيد السودان وجنود مرتزقة . المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

القطائع في مستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م وأمره بإحراق
القطائع . ونهب القسطنطينية ، وقتل جند الطولونيين من السودان ، لا نكاد
نعلم شيئاً عن مصانع الأسلحة التي أقامها ابن طولون ، إذ أصبح القطر
المصري وعاصمته القسطنطينية فريسة لاستبداد الجند وعدوانهم . وكان قواد
الخلفاء العباسيين يفعلون ما يحلو لهم لمدة ثلاثين عاماً بعد سقوط
الطولونيين .

ويبدو أن صناعة الأسلحة أخذت تستعيد نشاطها بعد تولي محمد
ابن طنج الأخشيدي شئون البلاد ، فقد كان شديد الإعجاب بابن طولون
حريصاً على التشبيه به في بلاطه ومواكبه ، كما عرف عن الأمراء الطولونيين
والأخشيديين من بعدهم أنهم كانوا يفضلون صناعة الأسلحة هذه في مصر
داخل مصانعهم الحكومية بقدر المستطاع ولم يكونوا يفضلون عملية
الاستيراد لأنواع السلاح على يد اليهود أو غيرهم من الخارج .

ويذكر المقرئ أن مؤسس الدولة الأخشيدية كان يستعرض جيوشه
على طريقة ابن طولون ، وكان عدد الفرسان والرجالة لا يقل عن أربعمائة
ألف يستغرقون اليوم كله في العرض يتبعهم حرسه الخاص المكون من
ثمانية آلاف من المماليك بملابسهم الزاهية الجميلة وأسلحتهم اللامعة .
ويمدنا ابن سعيد بصورة واضحة لأنواع الأسلحة التي كان يستخدمها
الجيش في عهد الأخشيديين وذلك من خلال وصفه للعرض العسكري فهو
يقول : « وجلس الأخشيدي في المنطرة على باب دار الإمارة ، ومرت العساكر
فلما انقضى العسكر ركب غلماناً في أحسن زي بالتخافيف (٢٥)
والجواشن (٢٦) ، والدروع ، فلم يفرغوا إلى العشاء ، ثم أصبح فركب
لصلاة العيد » .

ولا شك أن إنشاء دار جديدة للصناعة بساحل القسطنطينية والتي
سميت « الصناعة الكبرى » في عهد الأخشيدي (٢٧) ، أحدث نشاطاً في
حركة الصنائع والحرفيين كالحدادين والزبائين وغيرهم من صانعي
مستلزمات السفن الحربية وآلات القتال المطلوبة .

ومن الملاحظ أنه في عهد الطولونيين والأخشيديين لم تقتصر مصانع
الأسلحة على تزويد الجيش والسفن الحربية بحاجتها من المعدات وآلات
الحرب ، بل كان أصبح الشريطة يحتاجون إلى بعض آلات السلاح

(٢٥) التخافيف : كان يلبسها الفارس كالدرع ليتقى بها الطعنات .

(٢٦) الجواشن : هي دروع الخيل . ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٢٧) لم يقض إنشاء هذه الصناعة على دار الصناعة التي كانت قائمة بجزيرة الروضة ،

وبقيت مراكب الاسطول تنشأ في الجزيرة بعد عام ٣٢٥ هـ وحتى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله .

المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٨ .

يحملونها تسمى الطبرزين ، وهى نوع من السكاكين الطوال أشبه ما تكون بالسيوف . كما يظهر أن هذه المصانع لم تكن تكفى حاجة البلاد ، فكانوا يعملون على استيراد نوع من السيوف من الخارج لاسيما السيوف الأندلسية (٢٨) .

أما عن صناعة الأسلحة أيام الفاطميين فقد راجت وازدهرت بفضل عناية الحكام من الخلفاء والوزراء الفاطميين ، وأصبحت تمتد الجيش والأسطول بما يلزمها من سلاح وعتاد حربى . كان جيش المعز لدين الله حينما قدم الى القاهرة عظيما حتى قيل انه « لم تطأ أرض مصر بعد جيوش الاسكندر الأكبر من الجيوش أكثر من جيوش المعز » (٢٩) .

وقدر ناصر خسرو عدد الجيش الفاطمى أيام الخليفة المستنصر بحوالى مائتين وخمسة عشر ألفا من البيادة وخمسة وثمانين ألفا من الخيالة أو الفرسان (٣٠) أما حرس القصر فبلغ عددهم نحو عشرة آلاف جلبوا من بلاد إفريقيا وآسيا وأوروبا (٣١) .

(٢٨) من أجل انتحف المعدنية الأندلسية السيوف ، فهى من أدوع ما صنعه المسلمون ومن أحسنها ما هو معروض الآن فى المكتبة الأهلية بباريس .
ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٧٥ ، عبد العزيز مرزوق : اللنون الزخرفية الإسلامية ، ص ١٧٧ .

(٢٩) يقدر التويزى من قدم فى خدمة المعز لدين الله بمائة ألف مقاتل كتامى وأربعين ألف من البربر وستين ألف من الزنوج . نهاية الأرب ، ج ٢٦ - ٢٧ ، ورقة ٤٤ ، مخطوط ، وكان الخليفة المعز أول من اتخذ صبيان الحجر وهم فرقة من الحرس الخاص كانت تتكون من الشبان الأقوياء ، بحيث يكونون على أهبة الاستعداد للقتال فى أية لحظة ، وقد أطلق على المكان المخصص لهم بالقصر « صبيان الحجر » المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٣٠) ذكر ناصر خسرو أن جيش السلطان كله كان يخرج للعرض والاحتفال بيوم فتح الخليج فرقة فرقة وفوجا وفوجا وكان يتألف من : فرقة الكتامين وهم من القيروان وقيل أنهم عشرون ألف فارس . وفرقة تسمى البطالين وهم من رجال المغرب دخلوا مصر قبل هجرة السلطان (الخليفة) وقيل أنهم خمسة عشر ألف فارس ، وفرقة تسمى المصامدة وهم سود ، قيل أنهم عشرون رجل . وفرقة تسمى المشارفة وهم ترك وعجم ، وقيل أن عددهم عشرة آلاف رجل ، وفرقة تسمى البدو وهم من أهل الحجاز وكلهم يجيدون حرب الرماح ، قيل أنهم خمسون ألف فارس وفرقة الاسنادين اشتروا للخدمة ، وهم ثلاثون ألف فارس ، وفرقة تسمى السرائين وهم مشاة قيل أن عددهم عشرة آلاف رجل ، وفرقة أخيرة تسمى الزنوج يحاربون بالسيف وحده قيل أنهم ثلاثون ألف رجل . سفرنامه ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٣١) يذكر ابن ميسر أن عبيد السيدة أم المستنصر بالله كانت عدتهم نحو خمسين ألف عبد سوى طوائف الحسكر ، وكانوا من العبيد السودان . وقد بلغت عدة الجيوش بمصر فى أواخر أيام الفاطميين أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف رجل . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ١٥ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

O'Leary : A Short History of the Fatimid Khalifate pp. 198-200.

وقد أنشأ الفاطميون مصانع خاصة بتمديد الجيش بما يتطلبه من أنواع الأسلحة ، يتضح ذلك مما جاء في وصف خزائن السلاح التابعة للقصر الفاطمي ، حيث كانت تصنع بها السيوف ، وكما قيل فإن السيوف كان أشرف الأسلحة عند العرب ، وكانت السيوف على أنواع منها الطويل والقصير وغيرها . وكانت تتخذ للسيوف حمائل تكون على الاكتاف أو يتخذ لها معاليق .

وكانت تصنع بخزائن السلاح الأقواس والسهام التي يركب فيها من الأمام قطعة مديدة من الحديد ، وأيضا الخود والدروع ، ودروع أخرى تسمى كراغندات ، ودروع للخيول (جواشن) أو تخافيف ، والعمد الحديد المسماة مستوفيات . وكانت للدروع والتروس خزائن منفصلة عن خزائن السلاح تعرف بخزائن الدرق .

كما خصصت من خزائن السلاح قسم كانت تصنع به الآلات الثمينة التي تستخدم في المواكب الرسمية ، مثل أسلحة حرس الخليفة مثل سيوف مستقيمة (صماصم) وهي مصقولة ومذهبة ، وأعمدة (دبابيس) مغطاة بالجلد (الكيمخت) الأحمر والأساد لها رؤوس مدورة ومضرسة ، وأعمدة جديدة اسمها (لتوت) ذات رؤوس مضرسة أيضا (٣٢) ، وآلات يقال لها مستوفيات ، وهي عبارة عن عمد مصنوعة من الحديد ، طولها ذراعان ، مربعة الأشكال لها مقابض مدورة تمسك باليد منها . كما يصنع بهذه الخزانة كذلك من أنواع الحراب ، التي كان يحملها غبيد السودان يقال لهم أرباب السلاح الصغير . لعلمهم من حرس الخليفة أيضا . وكانت لهذه الحراب مقابض تصنع من الفضة كل واحد منهم يأخذ خربتين مربوطتين بشراطة من حرير .

ومن الطريف أن نذكر نوع الأسلحة التي كانت تصنع خصيصا برسم وتشريف الوزير والموظفين وقواد الجيش ، وهي عبارة عن رماح باسم « قضب فضة » مصنوعة بطريقة خاصة ، وكان للوزير الحق في عشرة من هذه القضب ، ولغيره من كبار موظفي القصر وقائد الجيش أربعة فقط . أما بقية القواد فكانوا يستلمون ثلاثة أو اثنين أو واحدا على قدر طبقاتهم . وينقل المقرئ عن ابن الطوير المؤرخ الفاطمي المعاصر أن الخليفة كان يشرف على خزائن السلاح ويتابع أخبارها ، ويتأمل حواصلها من

(٣٢) وقد أطلق عليها كل من القلقشندي والمقرئ « بخزانة التجليل » وذلك بسبب ما يعمل بها من أنواع السلاح والآلات المغطاة بأنواع الزخرفة من الفضة وغيرها . ص ٤٧٧ ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ، ١٩٦ .

الدروع المدفونة بالزرد (٣٣) ، المنشاه بالديباج ، المحكمة الصناعة ، والجواشن المبطنه المذهبه والخوذ المحلاة بالفضه ، وغيرها من أنواع الزرديات والسيوف والرماح والقسي لرماية اليد ، المنسوبة الى صناعتها مثل الخطوط المنسوبة الى أربابها ، وذلك مما يدل على مهارة الصناع وتميزهم فى صناعة كل نوع من أنواع الأسلحة المعروفة فى العصر الفاطمى .

ومن الذين أسندت اليهم مهمة الاشراف على خزائن السلاح أبو سعيد ابن قرقة الحكيم ، فقد تولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح فى الدولة الفاطمية كما تظهر أهمية هذه الخزائن من اختيار أستاذ محنك للاشراف عليها ، ومن زيارة الخليفة لها بين وقت وآخر ، وتخصيص أفضل المستخدمين والصناع الذين كانوا يعملون فيها ما يؤمرون من آلات السلاح على اختلاف أنواعها وتباين أصنافها .

وتبدو العناية بأمر الصناع المهرة وصناعة الأسلحة منذ بداية حكم الفاطميين ، فقد أشار المقرئى الى اهتمام الخليفة المعز بأمر هؤلاء الصناع والحصول على الماهرين فى كل صنعة من سائر أفراد الشعب ، والعمل على إلحاقهم بالخدمة فى خزائن القصر (٣٤) ، كما يذكر أيضا أن الخليفة الظاهر اتخذ حجرا بالقصر ، وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب . واتخذ خزانة البنود وجعل فيها ثلاثة آلاف صانع ، وكانت فى بداية أمرها يعمل فيها السلاح . وظلت كذلك الى أن احترقت فى سنة ٤٦١ هـ (٣٥) .

كما عملت الدولة الفاطمية - كما أشرنا من قبل - على توفير ما يلزم من الحديد والآلات اللازمة لصناعة أنواع الأسلحة ، يتجلى ذلك فى حديث ابن الطوير عن المناخ السعيد ، وما يرد اليه من الأخشاب والحديد وغير

(٣٤) ويبدو أن حاجة المعز لدين الله بعد قدومه الى القاهرة الى هؤلاء المهرة من الصناع ولزمته الى ولاية أعماله فى الأقاليم المختلفة فى طلبهم ، إنما كان من أجل الخدمة فى خزائن السلاح أو المصانع الحكومية التي بدأ فى نشأتها فى أعقاب الفتح مباشرة . ذكر ابن أبي طى أن المعز جعل كل ماهر فى صنعة صائما للخاص ، وأفرد لهم مكانا برسومهم . الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٣٥) ونقل المقرئى عن صاحب كتاب « الذخائر والتحف » أنه احترق بخزانة البنود عشرات الآلاف من قربات النفط ومن زراقات النفط أمثالها ، ومن الدرق (الدروع) والسيوف والرماح والنشاب ما لا يحصى ، مع ما فيها من قضب الفضه وثيابها المذهبة وغيرها . ويقول : « وحديثى من أئمة به أيضا أنه احترق فيها من السيوف عشرات الآلاف وما لا يحصى كثرة » نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

ذلك ، كما يتضح لنا من سياق الحديث أن الفاطميين قد استعانوا ببعض الصانع من الفرنج لصناعة آلات الأساطيل ومعدات السفن الحربية .

وكان الاهتمام بالأساطيل وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع ، وقد خصص الفاطميون لهذه العمارة ديوانا خاصا يقال له « ديوان العماثر » وكان موضعه بدار صناعة السفن بالفسطاط . ويذكر القلقشندي أن أساطيلهم كانت مرابطة بكافة البلاد الساحلية كالاسكندرية ودمياط وتينيس وعيذاب من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام .

ويذكر ناصر خسرو أن تينيس كان يربط حولها ألف سفينة ، منها ما يتبع الدولة وما هو للتجار ، ويقول أيضا : « ويقوم بتينيس جيش كامل السلاح وذلك للدفاع عنها من خطر الفرنج أو الروم والاغارة عليها . كما يذكر القلقشندي أنه كان للفاطميين أسطول بعذاب يتلقى به الكارم ، وكان والى قوض هو المشرف والمتولى لأمر هذا الأسطول ، ويحمل اليه من خزائن السلاح ما يكفيه .

وكانت السفن الحربية تحتاج من المعدات وأنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة المعروفة في العصور الوسطى ، ومن أهمها المناجيق (٣٦) . ويذكر القضاعى المؤرخ الفاطمى أنها كانت تصنع ثم تنصب على جبل يشكر من أجل اختبارها وتجريبها قبل إرسالها إلى الثغور المصرية .

ومن الأسلحة الثقيلة التى صنعت فى أيام الفاطميين كذلك الدبابات، وكانت تصنع من الخشب السميك وجلود البقر والابل واللبود والجلود المنقوعة فى الخل لتقيها النار وغيرها . كما استطاع المصريون صنع المدافع، وكانت تسمى المكاحل قبل اختراع البارود ، وكانت تستخدم فى هدم الحصون والقلاع الحصينة حيث تطلق المدافع هذه مقذوفات من الحجر ، غير أنه بعد اختراع البارود استعملت قذائف من البارود فى طلائق المدافع .

ومن الجدير بالذكر أن صناعة السلاح فى العصر الفاطمى لم تكن قاصرة على خزائن السلاح بالقصر أو دور الصناعة بجزيرة الروضة والمقس وغيرها ، بل وجدت أسواق للسيفيين والأسلحة الأخرى (٣٧) .

(٣٦) من أهم الكتب التى تناولت كيفية تركيب المناجيق واستخداماتها كان كتاب « الأتيق فى المناجيق » لما يكتويه من دقو الرسوم لأجزاء المنجنيق وكيفية صنعه واستعماله لمؤلفه أرناؤ الزردكاش ، تحقيق نبيل عبد العزيز .

(٣٧) يحدد المقرئ موشوع سوق السيفيين فى أيام الفاطميين ، فهو يقع فى مقابلة سوق الصبارف من جهة وسوق الزجاجين من جهة أخرى .

المخطوط ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

وليس من شك في أن هذه الأسواق كانت تصنع بها أنواع الأسلحة الخفيفة على اختلافها وتباع لعامة الشعب . يذكر المقریزی أنه حينما وقع الغلاء وارتفع السعر وكثر الازدحام على الخبز في عام ٤٠٣ هـ ، أمر الحاكم بتوزيع المال على الفقراء . وكثر ابتياع الناس للسيوف والسكاكين والسلاح ، وحمله من لم يحمله قط من العوام والصناع ، وكثر الكلام فيه . وفي عهد الخليفة الظاهر حينما وقع الغلاء أيضا في عام ٤١٥ هـ وتجمع العبيد ومن انضم اليهم من النهاية من عامة الشعب ، فقبض على طائفة منهم فضربت رقابهم ورميت جثثهم على باب زويلة وعلى باب الفتوح وفي سوق السلاح كما أوضح المسبحي المؤرخ الفاطمي - وعند شرطة القاهرة .

ويظهر مدى انتشار صناعة الأسلحة الأهلية وبيعها لعامة المصريين (٣٨) ، مما أوضحه المقریزی في حوادث سنة ٤١٥ هـ أيضا ، حينما كثر النهب من تجائب الجند العبيد السودان ، وأخذوا ما وجدوه في الساحل من القمح والشعير وغير ذلك مما في الخوانيت ، يقول المقریزی : « ودخلوا الى منازل أهل السلاح فنهبوا ما وجدوا » وخرج اليهم عامة المصريين بالسلاح فقاتلوهم وزمتهم النساء من أعلى الدور بالحجارة والطوب والجرار حتى هزموهم ، وهكذا كانت بيوت صناع الأسلحة من السيوف والرماح وغيرها عرضة لنهب الجند ومواجهة عامة الشعب لهم باستخدامهم للسلاح وقتالهم به .

وقد شجع على هذه الصناعة وجود مسابك الحديد والفولاذ بالفسطاط في أيام الفاطميين ، كما ذكر ابن دقماق من بين الدروب بالمدينة درب الحدادين (٣٩) وقد كان لهم شأن كبير في المجال الحربي وصناعة الأسلحة ، وربما كانوا من صناع الجواشن وأسنة الرماح وغيرها من أدوات الحرب .

كما عملت الدولة الفاطمية على استيراد الحديد والأخشاب وغيرها من مواد الحرب ، الأمر الذي يساعد على قوتها ، وقد حاولت الشعوب الأوروبية أن تدفع حكوماتها الى منع تصدير مثل هذه المواد من الحديد

(٣٨) ويحدد المقریزی سوق السيوفيين في زمنه حيث قال : « هذا السوق فيما بين المدرسة الظاهرية بيرس ومن باب قصر بشتاك يستجد فيها بين الدولة الفاطمية في خط بين القصرين ، وقد جعل لبيع القسي والنشاب والزرميات وغير ذلك من آلات السلاح . الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

(٣٩) هو درب المسلوك من الحدادين الى مربعة سوق وردان بالفسطاط .

والرصاص والمعادن التي ترد الى الديار المصرية ، تجلى ذلك فيما نصت عليه المراسيم الصادرة من حاكم البندقية وقناصل جنوه من أجل تحريم الاتجار مع مصر .

وتشير وثائق الجنيزة الى محاولات الفاطميين وبذل جهودهم فى أن يستحوذوا على تجارة الهند من أيدي منافسيهم الخلفاء العباسيين ، وكان من أهم السلع المطلوبة من تجارة الهند الحديد والصلب اللازمان فى صناعة السيوف وغيرها من أنواع الأسلحة (٤٠) .

وتشير المصادر الى رواج صناعة الأسلحة الخفيفة لدى الأهالى والحرفيين والصناع بالفسطاط وغيرها من المدن المصرية ولا سيما فى الثغور كما هو فى دمياط وتينيس والفرمان فى الوجه البحرى . اذ ليس من المقبول أن يقف أهالى تلك المدن والثغور مكتوفى الأيدي فى مواجهة غارات الروم المتكررة عليها ومحاولة نزول الفرنج ونهب أهلها خاصة فى أواخر أيام الفاطميين (٤١) ، وكان لابد للأهالى - لاسيما وأنهم كانوا من العرب كما هو الحال فى مدينة الفرما (٤٢) - من شراء الأسلحة والعمل على اقتنائها للمشاركة الفعلية فى الدفاع عن أنفسهم ضد هؤلاء المعتدين من خارج البلاد .

أما صناعة الأسلحة الثقيلة ، فقد ظلت طوال العصر الفاطمى ، كما ظل استخدام المناجيق وغيرها من هذه الأسلحة التى كانت قاصرة - بطبيعة الحال - على مصانع الحكومة ، يذكر المقرئى أنه فى سنة ٤٩١ هـ أمر الوزير الأفضل بنصيب المناجيق على بيت المقدس ، عندما خرج من القاهرة ونزل عليها ، فكانت نيفا وأربعين منجنيقا ، وأقام عليها يحاصرها حتى هدم جانبها من السور ، ولم يبق إلا أخذها .

(٤٠) عملت الدولة على إنشاء المتجر الفاطمى ، وكان المتجر يشتري لحسابه جميع الخشب والحديد والرصاص والمعادن التى ترد الى الديار المصرية ، وكانت تقوم بدورها ببيعها للمتجر مقابل كسب يسير ، ولا شك أن صناعات الأسلحة من عامة الشعب والحرفيين من السبوفيين والحدادين وغيرهم فى الفسطاط وغيرها كانوا يحصلون على حاجتهم من الخامات المعدنية اللازمة لصناعاتهم . كما كانت الدولة تشتري من نفس التجار الذى باعهم اياها بأساء عالية تصل أحيانا الى أضعاف الثمن . عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٨٨ .

(٤١) ذكر المقرئى أنه فى شهر رجب سنة ٥٤٥ هـ نزل الفرنج على الفرما فى جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها . الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(٤٢) كان بالفرما والبقارة عرب من جذام يقال لهم المقاطع . نفس المصدر والصفحة .

كما استمر الجيش الفاطمي في تزويده بفرق النفاطين ، الذين كانوا يقومون بإعداد القوارير المملوءة بالنفط (٤٣) ، ورميها على قوات الأعداء لتحول دون تقدمها . وكان بالفسطاط مصانع لصنع قوارير النفط هذه وهي تشبه قنابل يدوية صغيرة ، وقد استخدمت أعداد كبيرة منها في حريق الفسطاط في عهد وزارة شاور سنة ٥٦٤ هـ . يذكر المقرئ أن شاور بعث إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ، ودخان الحريق إلى السماء ، فكان منظرا مهولا ، فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما .

وهكذا كانت مصانع الحكومة الفاطمية تعمل على تلبية احتياجات الجيش والأسطول الفاطمي من المعدات والآلات الحربية ، كما كانت خزائن السلاح وصناعة العماير تحفل بالآلاف من الصنائع المهرة لصناعة أنواع الأسلحة المختلفة الخفيفة منها والثقيلة مثل المناجيق وغيرها ، والتي كان يجري تجهيزها ونصبها لاختبارها وتجريبها قبل إرسالها إلى الثغور المصرية بمصر والاسكندرية ودمياط والعمل على استخدامها في الحملات البرية والبحرية .

كما يمكن القول بأن أسواق السيوفيين بالفسطاط ظلت رائجة ، كما راجت غيرها من أسواق السلاح في المدن والثغور المصرية التي ضمت العديد من المحال والدروب كدرب الحدادين وغيرهم من صناعات الأسلحة الأهلية كالسيوف والجواشن وأسنة الزماج وبيعها لعامة المصريين .

وليس هناك شك في أن صناعة السلاح كغيرها من الصناعات المعدنية كانت من الأهمية بمكان منذ الفتح العربي ، شأنها في ذلك شأن صناعة سك النقود في دور الضرب المصرية ، وصناعة الحل والجواهر وغيرها من الأدوات والمعدات والتحف المعدنية المختلفة ، وما تطلبت احتياجات الدولة والمجتمع معا حتى زوال حكم الفاطميين .

(٤٣) يذكر القلقشندي أن مواضع النفط بساحل البحر الأحمر من القلزم ، وكان يتم استخراجها حيث تأتي به العرب ، ويحمل إلى خزائن السلاح الفاطمية ، كما كان يحمل عليه أيام الفاطميين من جزيرة صقلية .

الفصل الخامس

الحرف والصناعات الخشبية

- ١ - بناء السفن الحربية والتجارية في عصر الولاة •
- ٢ - مظاهر النهضة في دور الصناعة في عهد الطولونيين والاشيدين •
- ٣ - ازدهار صناعة السفن وتجهيزها في دور الصناعة الفاطمية •
- ٤ - حرفة النجارة وصناعة الأثاث في عصر الولاة •
- ٥ - الحفر على الخشب ومظاهر التأثير الحضارى في عهد الطولونيين والاشيدين •
- ٦ - فن النحت والتطعيم بالعاج في العصر الفاطمى •

الصناعات الخشبية

نمت صناعة الأخشاب من الصناعات الهامة منذ بداية الفتح الاسلامي ، وكان المصريون من الشعوب التي تمتعت بشهرة واسعة في العصور القديمة سواء في صناعة المراكب وبناء السفن البحرية والحربية (١) ، أم في صناعة الأثاث والأدوات الخشبية المنزلية .

وقد احتفظت الدولة البيزنطية بدور لصناعة السفن في الاسكندرية وعكا ، وحيث تم بناء كثير من السفن الحربية والتجارية التي كانت تقوم بنقل الجنود والامدادات في وقت الحرب . كما بلغ من ضخامة السفن البحرية التي تم بناؤها بالاسكندرية زمن الفتح العربي أن احداها كانت تسع عشرين ألف مد (أى نحو ٤٠٠٠ أردب من الحنطة) .

كما عرف المصريون من أنواع الأخشاب المحلية خشب الجميز والأتل والصفصاف وخشب السنط والسدر والصنوبر ، وذلك من واقع ما ورد في النصوص المصرية القديمة (٢) كذلك اشتهر الصانع الأقباط بحرفة

(١) أشار هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد الى صناعة السفن المصرية فقال : « وتصنع سفنهم التي تحمل البضائع من شجر اللبخ ، نبعث أن تقطع أخشابها الى ألواح طول الواحد منها نحو ذراعين ، ثم يقطعون هذه الألواح حول أوتاد متلاصقة ، ويسدون الفواصل بالبردي ، ويضعون دفة واحدة تدفع في قاع السفينة ، كما يتخذون الساري من اللبخ والشرع من البردي .

(٢) أمدا الفريد لوكاس بجداول أوضح فيها أنواع الأخشاب التي استعملها القدماء المصريون في التجارة وصناعة السفن ، وكان من أهم تلك الأنواع السنط واللوز وخرنوب - الجميز - الأتل (طرفا) والصفصاف واللبخ والنبق ، كما أوضح لنا أن خشب السنط كان يستخدم في التغليف ولعمل جوانب السفن والى شهرة سنط طيبة والمناطق المجاورة لها . المواد والصناعات ، ص ٧٠٦ ، ٧٠٨ .

النجارة ، فصنعوا السقوف والشبابيك والأبواب والمقاصير وغيرها . وعرفوا بل أجادوا زخرفة الأخشاب التي قامت على أعمال التلوين Painting وعلى الحفر العميق deep cut وأيضا عن طريق التطعيم بالعاج والأبنوس (٣) .

ولما كانت مصر فقيرة في الأخشاب الكبيرة التي تعد المصدر الطبيعي للأخشاب الجيدة ، فقد كانت تستورد من بلاد الشام خشب الأرز وغيره من أخشاب الزينة كخشب التك والساج والأبنوس من البلدان المنتجة لهذه الأنواع من الأخشاب .

(٣) يضم المتحف القبطي مجموعة من اللوحات المرسومة ترجع صناعتها إلى اليوم ، ومجموعة من أدوات الزينة عبارة عن أمشاط عليها زخارف نباتية وهندسية من القرن السادس والسابع الميلادى .

١ - بناء السفن الحربية والتجارية في عصر الولاة :

كانت صناعة بناء السفن في ثغر الاسكندرية من أهم وأكبر الصناعات عند الفتح العربى لمصر ، ولا غرو فقد كانت الاسكندرية من أكبر أسواق العالم ، وأكثر ثغوره ازدهاما وحركة ، وكانت بها تجارة عظيمة في القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك من محاصيل البلاد .

وكانت السفن تحمل اليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة وأثيوبيا ، ومن أنواع البهار والحرير والفضة والجواهر وغيرها ، تأتي من بحار الهند والصين الى البحر الأحمر ، ومن القلزم تحمل في ترعة منفيس ، ثم تنحدر في نهر النيل نحو الاسكندرية ، حيث كانت ترسل الى أطراف البحر المتوسط .

وكما تبدو أهمية صناعة السفن التجارية ، وتلبية مطالب الحركة التجارية الواسعة ابان الفتح الاسلامى ، فان الأمر لم يكن أقل أهمية بالنسبة لانشاء العديد من سفن الأسطول المصرى ، لاسيما بعد أن قرر الحكام العرب فى عهد معاوية بن أبى سفيان نزولهم البحر وغزو بلاد الروم (١) .

ولا ريب أن السفن الحربية التى بلغت مائتى مركب أو يزيد ، كانت من صناعة الاسكندرية (٢) ، وقد غزا بها عبد الله بن سعد عام ٣٤هـ ،

(١) كان العرب يتهيئون ركوب البحر فى أول أمرهم ، وقيل ان أول من ركب البحر للغزو فى الاسلام العلاء بن الحضرمى فى خلافة عمر بن الخطاب ، اد ندب أهل البحرين الى غزو بلاد فارس عن طريق البحر بغير اذن الخليفة ، ففرقت سفن المسلمين وغضب عمر على العلاء وعزله عن الامارة . المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣ .

(٢) تمت صناعة السفن الحربية هذه على ايدى الصناع المصريين من التجارين والقلطيين والنواتية ، وكما ذكر ابن خلدون فان العرب اعتمدوا فى بداية أمرهم على أبناء الأمم التى خضعت لسلطاتهم من كانت لهم دراية بالبحر وثقافته ، وحيث تقرب كل ذى صنعة بمبلغ صناعته لديهم ، واستخدموا من النواتية فى خاصتهم البحرية ، المقدمة ، ص ٢٢٢ .

ويبدو أنه تكرر سفر الصناع المصريين الى تونس في عهد عبد الله ابن الحبحاب سنة ١١٤ هـ / ٧٣٣ م ، حيث زاد بها دارا لصناعة السفن وجامع تونس الكبير وهكذا شاركت مصر في فجر الاسلام بالصناع المهرة في بناء السفن في الثغور الاسلامية مثل عكا وتونس ، مما جعلها محل تقدير الخلافة الاموية في دمشق .

وقد أظهرت أوراق البردى التي تم العثور عليها (٦) ، أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادي النيل في جزيرة الروضة (٧) ، وفي القازم وفي الاسكندرية .

كما أمدنا ابن عبد الحكم بمعلومات هامة عن الموضع الذي أقيمت به صناعة الجزيرة (٨) ، وعن قيام الولاة بجمع الأخشاب اللازمة لبناء السفن من أهل الذمة وذلك بعد دفع أثمانها لهم (٩) . ويبدو أن أول من ولي على دار الصناعة بجزيرة الروضة كان فهد بن كثير كما يذكر ابن عبد الحكم وله قصر مشهور بخطة المعافر بالفسطاط (١٠) .

وليس من شك في أن صناعة السفن بالجزيرة لم تقتصر على الحربية منها ، بل كانت السفن التجارية أهم ما يعمل بها ، خاصة بعد إعادة حفر

(٦) تم اكتشاف أوراق البردى هذه عام ١٩٠١ في كوم اشقاو - مركز طما - محافظة سوهاج وهي ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، ومما يذكره ابن عبد الحكم أن الخليفة الوليد كانت له بعض الحواتيت المجاورة بجزيرة الصناعة أو ما أطلق عليها جزيرة الروضة فيما بعد . فتوح مصر والمغرب ، ص ٨٦ .

(٨) يذكر ابن عبد الحكم أنه لما رأت الحامية الرومانية بقيادة المقوقس (قيرس) صبر العرب وشدة بأسهم في القتال ، استقر رأى المجتمعين على أن يذهب قيرس وأصحابه تحت ستار الليل الى جزيرة الروضة ، وفتح الباب الحديدى الملقى الى النيل حيث استقل الخارجون السفن من هناك ، ونزلوا في الموضع الذى انشئت فيه دار الصناعة فيما بعد بجزيرة الروضة . فتوح مصر والمغرب ، ص ٩٦ حاشية .

(٩) كتب حيان بن سريج عامل الخراج على مصر في عهد عمر بن عبد العزيز يطلب من الخليفة المشورة والرأى فى الحصول على خشب لصناعة الجزيرة وكان عند بعض أهل الذمة ، وأنه كره أن يأخذ منهم حتى يعلمه ، فكتب اليه عمر ، حذها منهم بقيمة عدل أى بالثمن المناسب ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(١٠) يقول ابن عبد الحكم عنه : وكان والى برقة أيام أسامة بن زيد الأولى ، وكان قد ولي جزيرة الصناعة ، مما يدل على اهتمام الولاة وعمال الخراج فى العصر الاموى بتلك الدار وما يجرى بشأنها . المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

أما عن أنواع السفن الحربية التي تم بناؤها بدور الصناعة في
الاسكندرية وجزيرة الروضة والقلزم بمصر في عصر الولاة ، فيمكن القول
بأنها كانت متنوعة ، نذكر منها الطرادات (٢٤) ، والعلايات (٢٥)
والاعواديات (٢٦) والقوابيس (٢٧) وقوارب الخدمة (٢٨) وغيرها .

(٢٤) نقل بترل عن سيروس أن السفن التي كانت تصنع بالاسكندرية إبان الفتح
العربي كانت على نوعين أحدهما ما يمكن أن نسميه البوارج والآخر الطرادات وكانت البارجة
تحمل ألف رجل ، في حين أن السفن الحربية الصغرى كانت تحمل كل منها مائة رجل ،
وكانت تجعل للسير السريع الالتفاف حول السفن الكبرى . فتح العرب لمصر ، ص ١٠١ .

(٢٥) هي نوع من السفن التي كانت تصنع خصيصا للحرب ، فهي من سفن
الأسطول ومفردتها (العلاي) .

سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٣٥٨ .

(٢٦) ومفردتها (الاعوادى) وهي من نوع من السفن الصغيرة التابعة للأسطول المصري .
وقد أخطأ سوريال في قراءته عند نشره لكتاب قوانين الدواوين لابن عماني فوسمه
« الأعزازی » درويش النخيل : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص ٥ - ٦ .

(٢٧) اسم نوع خاص من سفن الحرب ، وقد جاء ذكره كثيرا في أوراق البردي التي
تم اكتشافها في كوم اشقاو من أعمال محافظة سوهاج . جروممان : أوراق البردي
العربية ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٢٨) هي تلك السفن الصغيرة التي تكون مع أصحاب السفن البحرية تستخف لحوائجهم
فهي من توابع الأسطول . وهي كانت معروفة في مصر منذ أقدم العصور ، وقد وردت في
كتاب عمرو بن العاص الذي وصف فيه مصر . وجاء في قوانين ابن ممتاني : أن أعمال
الديوان كانت لهم مراكب خاصة تعرف باسم قوارب الخدمة ينتقلون بها من إقليم إلى آخر
لجمع الخراج للديوان .

المفريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦١٤ .

٢ - مظاهر النهضة فى صناعة السفن الحربية والتجارية فى عهد الطولونيين والأخشيدين

بادر أحمد بن طولون الى دعم قوته البحرية فى أعقاب توليه شئون الحكم فى مصر عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، محاولا الاستقلال عن الخلافة العباسية فى بغداد ، والدفاع عن ولايته ضد محاولات الخلافة لاسترداد نفوذها المطلق عليها (١) . ومن ثم اتجه الى الاهتمام بشئون الأسطول المصرى . وقد تجلّى اهتمامه هذا وعنايته بالناحية البحرية حينما أمر ببناء الحصن على الجزيرة ، وأبقى على دار الصناعة فيها ، وحشد الصنّاع والبحارة كما ذكر البلوى لبناء مائة مركب حربية كبيرة ، بالإضافة الى العلابيات والحماثم والعشاريات والصنادل وقوارب الخدمة التى شرع فى تجهيزها مباشرة .

وكانت مشروعات الموفق طلحه وارساله فرق الجيش العراقى بقيادة موسى بن بغا التى تحركت ضوب الشام لملاقاة ابن طولون من أجل القضاء عليه ، من أهم الأسباب التى جعلته يعجل بتجهيز الأسطول ، ويختهد فى سبيل ذلك كما يذكر الكندى حين قال : « واجتهد أحمد بن طولون فى بنیان المراكب الحربية وإطافتها بالجزيرة وأظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه » .

وقد كان العمال والصنّاع فى دار الصناعة بالجزيرة من الأقباط أو المصريين المسلمين الذين استعان بهم فى بناء السفن الحربية ومن العلابيات

(١) بويج الخليفة المعتمد بعد وفاة المهدي فى شعبان سنة ٢٥٦ هـ ، فاقر أحمد ابن طولون على ولايته ، وبدأ فى بناء الميدان وحملة القصور الطولونية بالقطائع . الكندى ، الولاة ، ص ٢١٥ .

٣ - ازدهار صناعة السفن وتجهيزها في دور الصناعة الفاطمية

كانت صناعة بناء السفن كصناعة البناء ، من حيث أنها تضم طوائف كثيرة من أهل الحرف والصناعات ، فهي تشمل ، النشارين والنجارين والمقلطين والحدادين وغيرهم من النفاطين والنواتية والقذافين وخاصة في تجارة السفن البحرية والحربية منها . وقد عني الخليفة المعز لدين الله منذ قدومه الى مصر سنة ٣٦٢ هـ عناية كبيرة بإنشاء الأساطيل واعداد القوات البحرية ، ويذكر المقرئى نقلا عن ابن أبى طى أن المعز أنشأ دار الصناعة بالمقس (١) ، وبني فيها ستمائة مركب ، ولكن المسيحي ينسب فضل انشاء دار الصناعة هذه الى الخليفة العزيز بالله . أما الرقم الذى ذكره ابن أبى طى فعليه مسحة من المبالغة الشديدة ، كما أننا نرجح رواية المسيحي المؤرخ المعاصر ، فهى أقرب الى الصدق والدقة . ومما يجعلنا نميل الى الأخذ برواية المسيحي هذه أن المعز لم يلبث أن توفى عام ٣٦٥ هـ وأخذت الحالة السياسية بين مصر والدولة البيزنطية فى التوتر ، مما أدى الى استعداد العزيز بالله للخروج بنفسه الى الشام ، وتكليف وزيره عيسى ابن نسطورس بسرعة العمل على تجهيز الأسطول الذى جاء فى وصفه على حده قول المسيحي أنه لم ير مثله رشاقة وحسنا ، كما أكد أنه لم ير مثله قطع الأسطول الفاطمى فى البحر على أى ميناء .

(١) المقس : ضيعة تعرف باسم أم دلين وتقع على ساحل النيل ، وقد خصصها المعز لدين الله لتكون مرفأ صناعيا ، وقد عرفت فى أول الأمر باسم المكس نسبة للدرهم الذى كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق . كما أنشأ الحاكم بأمر الله جامع المقس .
المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

نوع المراكب الشبائيك والشخاتير (١٤) والزوارق ، والسميرات (١٥) ، والقراير ، والتي كانت تستخدم فى الاحتفالات والأعياد الفاطمية ، كما تستخدم فى نقل الجنود والمؤن وغير ذلك من الأغراض الحربية .

وكانت هناك رسوم وتقاليد عند تجهيز الأسطول وإقلاعه للغزو ، فكانوا إذا تم الاستعداد ، وكب الخليفة والوزير الى منظره المقس ، فإذا ما وصلت السفن الحربية من دار الصناعة (الترسانة) قامت بعض المناورات ، ويتقدم المقدم بعدها والرئيس الى حضرة الخليفة حيث يوصيهما ، ويدعو لهما بالنصر والسلام ، ويعطى المقدم مائة دينار والرئيس عشرين دينار . وبعد انتهاء الاحتفالات تنحدر السفن فى قرع النيل الشرقى نحو دمياط ومنها تخرج الى البحر المتوسط .

ولم يزل الأسطول يعد فى جزيرة الروضة تارة وبالمقس تارة أخرى ويصير الاحتفال بتجهيزه وإعداده للغزو وفقا للتقاليد الجارية حتى أواخر أيام الفاطميين ، حين أمر الوزير شاور بإحراق قطع الأسطول بعد أن استولى الصليبيون على بلبيس ، واستعدوا لالزحف على العاصمة المصرية ، فأمر بإحراق الفسطاط ومراكب الأسطول .

ولم يقتصر الأمر على الأسطول الحربى ، بل نشطت صناعة المراكب لأغراض النقل والتجارة نتيجة للتوسع التجارى الذى شاهده البلاد فى عصر الفاطميين ، فكانت السفن تقلع الى موانئ شمال إفريقيا وجنوب أوروبا وجزيرة صقلية والشام وتعود محملة بالسلع اللازمة كما كانت السفن تملأ سطح النيل محملة بالغلال الى الفسطاط والمتاجر من أسوان وقوص بعد وصول قوافل عيذاب اليها . وقد دهش ناصر خسرو من آلاف السفن التى رآها فى كل من تنيس وساحل مصر .

ومن الجدير بالذكر أن صناعة السفن وخاصة منها الزوارق والمراكب النيلية لم تقتصر على دور الصناعة الحكومية ، بل كانت هناك مراكز عديدة بطبيعة الحال لعمل المراكب وغيرها من القوارب والزوارق بمعرفة الأهالى لاسيما فى المدن والثغور المصرية . نذكر منها مدينة الصالحية ، حيث

(١٤) وهى من المراكب النيلية ، والشخاتير واحدا شختور ، وهى برسم تسدية النفس من الشبط الى الآخر فى إبان زيادة النيل من مصر الى الجيزة . درويش النخلى : المعجم الإسلامى على حروف المعجم ، ص ٧٤ .

(١٥) كانت إحدى القطع النهرية المعروفة فى العصر الفاطمى ، وكانت تنقل بها الجنود والمؤن وتقام لحراسة أقواف الأنهار ، كما تستعمل لنقل التجارة . عطية مشرفة : نظم الحكم بمصر ، ص ١٨٤ .

كانت تصنع بها سفن كبيرة حمولة كل منها مائتا خروار . ومن الثغور الهامة والمراكز التي أشار إليها ابن مماتي مدينة رشيد (١٦) ، ولا شك أن صناعة المراكب بها خلال العصر الفاطمي كانت رائجة .

وكما ذكر ابن بسام أنه كان يوجد بئر تنيس دارا صناعة وامارة ، لا شك أنها كانت محل العناية والرعاية من جانب الحكومة الفاطمية (١٧) ، فان أهلها الذين اشتهروا بالعديد من الحرف والصناعات ، كانوا يعملون في صناعة القوارب والمراكب لحسابهم ، ولا سيما تلك الأنواع المختلفة التي ذكرها ابن بسام المخصصة لصيد الطيور والأسماك ، فضلا عن الأغراض التجارية الأخرى .

ومن مراكز التجارة الداخلية مدينة دمياط التي تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها ، وليس من شك في أن صناعة السفن التجارية وغيرها من المراكب النيلية قد ازدهرت بها ، ولم تقتصر على دار الصناعة الحكومية ، وانما كان أهلها يشتغلون بهذه الصناعة الهامة ، لاسيما وأنها أصبحت الميناء المصري الوحيد في الجزء الشرقي من البحر المتوسط .

كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية ، فقد ضمت الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل ، ولابد أن أهلها كانت لهم علاقة كبيرة بملكية السفن والاهتمام بصناعتها ، لاسيما وأن منطقة قوص كانت ضمن مناطق الخراج وخشب السنبط التي ذكرها المقریزی من جهات صعيد مصر . وقد أقام حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتي سنة لا يذهبون الى مكة لأداء فريضة الحج إلا من صحراء عيذاب ، فكانوا يركبون السفن من ساحل مدينة مصر حتى مدينة قوص ، ثم يركبون الابل من قوص أو من أسوان ثم يعبرون هذه الصحراء الى عيذاب .

(١٦) ويذكر ابن مماتي أنها أصبحت من الموانئ الهامة والثغور المحروسة في العصر الأيوبي . قوانين الدواوين ، ص ٣٢٥ .

(١٧) كان لتتبع في العصور الوسطى شأن خطير من الناحيتين الحربية والصناعية . فقد كان الروم يغيرون عليها بأساطيلهم كلما فكروا في غزو مصر ، ولهذا كان بها دار صناعة وأسطول مقيم ، وكان بها حصون وقلاع قوية ، وقد ذكر ابن بسام أن الفاطميين جعلوا فوق كل مسجد من مساجدها (وكان بها ١٦٠ مسجدا) منارة يرصدون منها سفن العدو ، إذا قدم للغزو ومداومة الأسطول الفاطمي . نفس المصدر ، ص ١٨٤ .

المقریزی : اتعاظ الخفا ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، حاشية .

ملكا للأفراد . فهناك سفن كان يملكها الخليفة الفاطمي في البحر الأحمر وأخرى كانت ملكيتها لكبار رجال الدولة ، وقد تسمت باسم الوظائف التي كان يتقلدها بعضهم مثل مركب القائد ، ومركب الحاجب أو الوزير وغيرهما من أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف .

ومن الأسماء الشهيرة التي كان لها شأن خطير في العصر الفاطمي « ناصر الدين بن حمدان » (٤٥٤ - ٤٦٦ هـ) (٢٥) وكانت له سفن كثيرة وله مصالح تجارية كبرى ، وكذلك أخوه فخر العرب ، ولما كان بعض القضاة يمتلكون سفنا خاصة بهم ، ويذكر المقرئ أن أحد الكتاب البارزين المسمى بالراهب في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله (٢٦) ، أنشأ له جلبة بعيذاب يقال لها اللامعية لحمل الحجاج الى جده على ساحل البحر الأحمر ، وهكذا شجع الوزراء والقواد والكتاب الفاطميين على تطوير صناعة السفن ، بفضل حرصهم أو رغبتهم في امتلاكها ، والعمل على استغلالها في تحقيق أطماعهم الاقتصادية ، كما عمل التجار وغيرهم من المصريين على حوزة السفن ، حتى أنه أصبح لكل تاجر سفنه التجارية المستقلة (٢٧) .

(٢٥) كان يتولى قيادة الجند الأتراك في أوائل عهد المستنصر ناصر الدولة الحسني ابن حمدان التغلبي ، وقد بلغ شأنه في الثورة على الخليفة أن بعث الى الب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من قبله يسأله أن يرسل اليه عسكريا ليقوم بالدعوة العباسية على أن تؤول اليه السيادة على مصر . كما كان له في أحداث سنوات الشدة العظمى أخسار ومواقف هامة . ابن ميسر : تاريخ مصر ص ١٩ - ٢٠ .

(٢٦) قدم هذا الراهب من جهة أشمون الى القاهرة واتصل بخدمة الديوان ، فلما قتل الوزير المأمون استفحل أمره حتى عم البلاء وشكا منه الرؤساء والقضاة والكتاب . المقرئ : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢٧) تشير وثائق الجنيزة كما يذكر جواتيائين الى أن ملكية السفن كانت عموما للأفراد ، ويقول : ولقد علمنا أن من بين كل خمسين سفينة كانت هناك واحدة من الذين ذكروا في سجلات الجنيزة يمتلكها شركاء » . دراسات في التاريخ الاسلامي ، ص ١٨١ .

٤ - حرفة النجارة وصناعة الأثاث فى عصر الولاة :

اشتهرت مصر منذ العصر البيزنطى بحرفة النجارة (١) ، وما تطلبته صناعة البناء والعمارة وقطع الأثاث ومستلزمات الحياة من آلات ومعدات أخرى . ويذكر ابن هشام أن العرب فى مكة قبل الاسلام قد استعانوا فى بناء سقف الكعبة الشريفة بأحد النجارين من المصريين الأقباط . كما عثر على عدد من عقود بين اثنين من النجارين فى مدينة أنطونيوبوليس (الشيخ عبادة) لافتتاح ورشة . ونصت العقود على أن الربح والخسارة مناصفة ، ويرجع ذلك الى العصر البيزنطى وقبل الفتح العربى للبلاد .

وعلى الرغم من خلو البلاد من الأشجار الكبيرة التى تعد المصدر الطبيعى للأخشاب الجيدة التى تصلح لعمل قطع الأثاث من المقاعد والأسرة وغيرها ، الا أن الصناع المصريين قبل الفتح العربى ، تمكنوا من الحصول على خشب الأرز من سوريا ولبنان ، وأخشاب الزينة من بلاد الشرق الأقصى ، كخشب الساج من الهند والأبنوس من السودان ، وكذلك خشب

(١) مهر المصريون فى صناعة الخشب منذ العصور القديمة ، وخير شاهد على ذلك تمثال شيخ البلد المصنوع من الخشب والموجود حاليا بالمتحف المصرى . وقد عثر على آلات مثل المطارق ، القواديم والبيلط والأزاميل والمناشير وآلات النجارة مثل تلك التى عثر عليها العلامة الأثرى أمرى قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة (١٩٣٩م) وهى عبارة عن سبعة مناشير نحاسية فى مقبرة ترجع الى الأسرة الأولى وهى أقدم وأكبر مناشير معروفة حتى الآن

محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ، ص ١٣ ، نشر مجلة جمعية الآثار القبطية

عام ١٩٣٧ .

بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر فى شكل طوبهم على نصف طوب العراق ، ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة ، .

ومما لا شك فيه أن الاقبال على شراء الطوب واستخدامه فى المباني التى أقيمت فى القاهرة وفى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية ، قد ازداد بكثرة العمران فى هذه المدن ، وكما يذكر ابن خلدون فإن الحاجة تزداد الى كثرة المواد والآلات حينما يعظم عمران المدن ويكثر ساكنيها ، فإذا تراجع العمران ، وقل عدد السكان فإنه تقل الصنائع لأجل ذلك ، .

ولا شك أن بناء الكثير من المصانع التى ألحقت بخدمة القصور الفاطمية وغيرها من المناظر والجوامع والمساجد ، خاصة ما تم بناؤه منها بالقرافة والصهاريج العظيمة لحفظ الماء بها (٢٤) ، إنما كانت من الآجر والرخام ، وكما تشير المصادر الى بناء العديد من هذه المصانع بمدينة تنيس (٢٥) .

كما يصف ابن جبير مباني الاسكندرية وما بلغته من الدقة والتخطيط وما أثار إعجابه من هذه المصانع فهو يقول : « ومن العجب أن بناءه تحت الأرض كبناؤه فوقها ، فهو أعتق وأمتن لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض » .

ومن المنشآت الهامة التى شاع استخدام بنائها من الآجر والرخام وغيره من الجص تلك الحمامات (٢٦) ، ويعطينا عبد اللطيف البغدادى صورة معبرة عن تلك الطريقة التى كان البناءون يشيّدون بها الحمامات زمن الفاطميين ، وأعمال الزخرفة لجدرانها وسقوفها فضلا عن الأرضيات الرخامية المجزعة ، وتلك الحمامات ذات الألوان المختلفة بأصباغها الصافية ، بحيث إذا دخلها الانسان لم يؤثر الخروج منها على حله قوله .

ولا شك أن وفرة أحجار الرخام وغيرها فى أنحاء متفرقة من البلاد ، وخاصة تلك التى كان يتم قطعها من محاجر أسوان وتحمل عبر النيل كما

(٢٥) يصف ناصر خسرو تلك المصانع واحكام بنائها وتشبيدها تحت الأرض فبقول : « وهى قوية البنيان وتسمى المصانع فحين يزيد ماء النيل ويطرد الماء المالح من هناك تملأ هذه المصانع بماء النيل الذى يجرى اليها » سفر نامه ، ص ٣٩ .

(٢٦) ذكر المسيحي أن العزيز بالله العاظمى كان أول من أنشأ الحمامات بالقاهرة ، وكان العديد من أصحاب الحرف يعملون بها ، مثل الحمامى والقيم والزبال والوقاد والسقاء وغيرهم . المخطط ، ج ٢ ، ص ٤٣١ ، آدم منز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

أشرنا من قبل حيث يتم استخدامها ، كانت إحدى الأسباب الهامة في بناء تلك الحمامات وكثرتها على هذا النحو في مصر الفاطمية (٢٧) .

ومما يدل على شهرة مصر بصناعة الرخام وشغف الفاطميين باستعماله في قصورهم وحماماتهم ، أنهم كانوا ينحتون منه الشيء الكثير ويعملون على اختزانه ، فقد ذكر المقرئى أنه لما أراد أحد المماليك بناء خانقاه عشر على مغارة كبيرة تحت الأرض وعندما فتحوها لم يجدوا بها سوى رخام كثير ، كان من جملة الذخائر والتحف الفاطمية .

وقيل ان القاضي مكين الدولة الحسن بن حديد بالاسكندرية كان له بستان يتنزه فيه ، به جرن من رخام قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته ، وكان يباهى به أهل عصره ، فوشى به للبدوية محبوبه الخليفة الأمر بأحكام الله ، فطلبتة من الخليفة ، فأنفذ في الحال باحضاره ، وصار الى البناء المعروف بالهودج (٢٨) بعد أن تم خلعه من مكانه واحضاره من الاسكندرية .

وبلغ من شهرة الصناع والفنانين من أهل الاسكندرية في العصر الفاطمي أن أحد أثرياء مدينة أقالق ويدعى موريس Maurus قد استعان الصناع من المرخمين والرسامين منهم لتزيين بعض قصوره بالفسيقساء وغيزها من أنواع الرخام .

ولا غرو فقد كان المصريون يفضلون في ذلك الوقت تغطية الجدران وتزيينها بالرخام ولم يقبلوا على استعمال القاشاني ، وقد خلف لنا الصناع من اللوحات الرخامية (٢٩) والمجاريب والأرضيات الرخامية بعضها مؤلف من قطعة من الرخام الملون والمطعم بالصدف (٣٠) .

(٢٧) أمدا ابن دقماق بأسماء العديد من الحمامات القديمة العامة منها والخاصة بمدينة الفسطاط ، كما ذكر المقرئى منها حمام الكويك وحمام القاضي ، وحمام درى ، وحمام الذهب ، وحمام الحشبية وغيرها من التي أنشأها الفاطميون من وزراء الدولة ورجالها البارزين . الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٤ - ١٠٧ . الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٣١ - ٤٣٨ ، آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(٢٨) نقل المقرئى عن ابن سعيد أن هذا المكان عرف بذلك حينما قام الأمر بأحكام الله ببنائه في جزيرة الفسطاط وعمره خصيصا لمحبوبته البدوية التي أكثر الناس في حديثها في ذلك الزمان . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦١٦ .

(٢٩) ذكر ابن ميسر أنه لما تولى الوزير المأمون أمر بتجديد عمارة المساجد السبعة التي بالقرافة ، وأن يجعل على كل مشهد لوحا من الرخام عليه اسمه وتاريخ التجديد عند الفراغ من تجديد عمارته . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

(٣٠) يضم متحف الفن الإسلامي لوحات من الرخام مزخرفة بالنحت البارز أصلها من دار الوزارة الفاطمية . أرقام السجل : ٦٩٥٠ ، ٢٩٥١ ، ٧٩٥٤ .

ولا ريب أن شيوع استخدام الرخام إنما يدل على شهرة مصر بمبانيها المحكمة التي أثارت إعجاب الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، وعلى ما بلغه المهندسون والصناع من مكانة سامية في نفوس أقرانهم من خارج البلاد ، حتى أن بعض المهندسين الأجانب كانوا يعملون على الترحال والتزود بالخبرات منهم من بلاد العالم الاسلامي . فقد ورد في ترجمة أحمد بن عبد الله المعروف بابن الباجي أنه رحل الى مصر عام ٣٨١ هـ ، واجتمع بالمهندس أبي بكر بن اسماعيل البناء ، وسمع منه وأجاز له ، ثم واصل رحلته الى الحج . وكان أبو بكر بن اسماعيل من أشهر المماريين في أوائل العصر الفاطمي (٣١) .

ولا غرو فقد أظهرت مصر نشاطا فائقا في حركة المعمار بعد مجيء الفاطميين واتخاذهم القاهرة مقرا لخلافتهم ، والعمل على منافسة العباسيين في بغداد ، كما تجلى في عمارة القصور والمساجد ، وما استحدثت من الزيادات في الايوانات أو الأروقة التي تحيط بها الأقواس والاطارات المرفوعة من الأعمدة الرخامية بالأشكال الهندسية البديعة .

ومن جملة المهندسين الذين بلغوا المكانة المرموقة في صناعة البناء وفي اقامة المراصد الفلكية ، ابن أبي يعيش الطرابلسي المهندس ، والشيخ أبو جعفر بن حسنداي والخطيب أبو الحسن علي بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتي الاسكندراني المهندس ، وأبو محمد عبد الكريم الصقلي المهندس . فقد ذكر ابن دقماق أن هؤلاء المهندسين كانوا يعملون تحت امره الوزير الأفضل ومعهم جماعة من الصناع في اقامة المرصد الفلكي في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله .

ويبدو أن بناء المرصد بالقرب من بركة الحبش لم يكتمل أيام الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش ، وكما ذكر المقرئزي فإن جملة الصناع والمهندسين قد أمكنهم عمل الحلقة المطلوبة فقط في الموضع المهندم بالطوب الأحمر تحت المسجد الجيوشي ، وبلغ قطرها أقل من سبعة أذرع ودورها نحو أحد وعشرين ذراعا . يقول المقرئزي : « فلما كملت قتل الأفضل ، ولم يتفق من مال السلطان في الأجرة والمؤن وما لابد منه سوى نحو مائة وستين دينار » .

وحين تولى الوزارة المأمون بن البطائحى خلفا للأفضل في سنة

(٣١) كانت وفاته سنة ٤٠٠ هـ في عهد الخليفة الحاكم . أحمد تيمور : أعلام المهندسين ،

٥١٥ (٣٢) رغب في استكمال الرصد المأموني كما اشتهر بذلك ، فأخرج الأمر بنقل الرصد الى باب النصر بالقاهرة ، فنقل على الطريقة الأولى بالعتالية والاسطولية وطوائف الرجال ، ويقول المقریزی : « وكان يدفع لهم في كل يوم برسم الغداء جملة دراهم » .

وقد أفاض المقریزی في ذكر المواد المستخدمة في بناء المرصد الفلكي من نحاس ورصاص وخشب ومواد للبناء كالطوب الأحمر وأعمدة الرخام وما يستلزمه مثل هذا العمل الهندسي والفلكي معا ، كما ذكر أسماء العديد من هؤلاء الصناع وجملة المهندسين الذين شاركوا في بناء وتجهيز هذا المرصد حتى أصبح صالحا للعمل وزيادة على ما كان عليه في عهد الحاكم بأمر الله . ولا شك أن رواية المقریزی تدل على مبلغ علم المهندسين وتقدمهم في علوم الهندسة والفلك .

ومن الذين اشتهروا في أواخر العصر الفاطمي من هؤلاء المهندسين أبو علي المهندس المصري ، وقد ذكر ابن القفطي أنه كان موجودا بمصر في سنة ٥٣٠ هـ ولا شك أنه كان يجمع بين تفوقه في علم الهندسة وما يقوم به من عمل الرسومات الهندسية ، والاشراف على تنفيذها ، فضلا عن تخريج المهندسين على يديه ، لاسيما وقد بلغ في ابتكاراته المعمارية في مجال العمارة والتخطيط ما لم يسبقه اليه غيره من هؤلاء المعماريين والمهندسين في عصره .

كما ذاع صيت عالم آخر هو أحمد بن علي بن ابراهيم بن الزبير الغساني ، وكان ممن اشتهر بتفوقه في ميدان الهندسة والرياضيات (٣٣) ، ولا شك أن نبوغ هؤلاء وتقدمهم في علوم الهندسة حتى أواخر أيام الفاطميين ، كان له عظيم الأثر في تشييد المباني والقصور البديعة وغيرها من المنشآت الدينية والمناظر والحمامات. خلال العصر الفاطمي .

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية لدى الخلفاء وما بلغه الصناع والمهندسون من تقدم في فن المعمار في العصر الفاطمي ، من هذا الوصف الذي كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسول أمليوك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمي سنة ٥٦٢ هـ ليعقدا مع الخليفة العاضد تحالفا ، ومما جاء فيه : « وسار السفراء يقودهم الوزير شاور

(٣٢) الملح المقریزی الى أنه في بداية حياته اتصل بأحد البنائين أو المعلمين ليعلمه صناعة البناء في القسطاط ، انماط الحنفا ، ج ٣ ، ص ١١١ .

(٣٣) توفي أواخر أيام الفاطميين في مصر وذلك في سنة ٥٦٣ هـ . ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٥٦ ، الأذفري : الطالع السعيد ، ص ٩٨ ، ص ١٠٢ .

بنفسه الى قصر له رونق وبهجة ، وفيه زخارف أنيقة ، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التاثر ، فوجدوا في هذا القصر حراسا عديدين ، وسار الحراس في طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة ، وقادوا السفراء في ممرات طويلة ٠٠ ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف ، تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان ٠٠٠ وفي هذا المكان حل محل الحراس المرافقين للسفراء بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة فساروا بصحبة المبعوثين من قبيل الملك أمريك في أفنية جديدة أشد جمالا وإبداعا . وبعد أن عبر السفيران أبوابا عديدة وصلا الى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة ، وقد فاق هذا القصر كل ما راوه قبل ذلك ، وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم وأدخل المبعوثان في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحريير المختلف الألوان ٠٠ ولم يكن في هذه القاعة أحد ٠٠ لكن شاور خراكا فور وصوله ٠٠٠ ، ثم ارتفعت الجبال فجأة ، وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق . وظهر السلطان العاضد لأعين السفراء ٠٠ وكان على وجهه نقابا يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة ٠٠٠ ، .

ولا شك أن ما جاء في هذا الوصف الرائع للقصر الفاطمي (٣٤) إنما يعكس مدى قدرة البنائين والمعماريين المصريين وأحكامهم لصناعة البناء وما بلغه صناع الجص والرخام وغيرهم من النقاشين والمصورين في زخرفة القصور وسائر المنشآت حتى غدت تلك المنشآت المعمارية إحدى آيات الفن والجمال وخير شاهد على ما خلفته العمارة الإسلامية في عصورها الزاهرة .

(٣٤) أشرف على بناء هذا القصر الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب ، كما تم بناء حمام في غربيه وبئر وبستان عرف بالتاج . وقد جده الأمر بأحكام الله ، ويضه في سنة ٥٢٠هـ ، وعمل شرقى بابه مصطبة للصوفية . الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٦٧ .

الفصل السابع

صناعة المواد الغذائية

- ١ - حرفة الحبوبيين وطحن الغلال •
- ٢ - صناعة الخبز والحلوى •
- ٣ - صناعة استخراج الزيوت •
- ٤ - صناعة الصابون والطيب •
- ٥ - صناعة واستخدام الشمع •
- ٦ - حرفة النحالة •
- ٧ - صناعة التفريخ •
- ٨ - صناعة السكر والعسل •

شغلت الحرف والصناعات المتصلة بكل ما كان يؤكل أو يشرب عددا كبيرا من هؤلاء الحرفيين والصناع في مصر الاسلامية ، ولا غرابة في ذلك فالماكل والمشروب من الضرورات التي يحتاج اليها الانسان دائما في غذائه أو شربه ، أو حتى وان بلغت حد الكماليات كالمسكرات وغيرها .

١ - حرفة الحبوبين وطحن الغلال

كان القمح من أهم محاصيل الحبوب التي تنتجها مصر منذ العصور القديمة ، وليس أدل على ذلك مما فرض على المصريين من ضريبة القمح خلال العصر الروماني والبيزنطي ، حيث بلغت الكميات المرسلة منه الى القسطنطينية والتي كانت تحملها السفن من ميناء الاسكندرية نحو نسعة ملايين أردب قبل الفتح العربي من الديار المصرية .

ولم يختلف العرب عن غيرهم من الفاتحين الذين تتابعوا على البلاد المصرية ، فقد جاءوا لفتحها وهم يعلمون بثروتها وخيراتها ، وهكذا كانت مصر تقدم للفاتحين المال والطعام فلا عجب اذا قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة ، تعدل الخلافة » .

وكان القمح أهم ما ترسله مصر الى الخلافة بعد الفتح ، فبعد أن كانت ترسل القمح سنويا الى روما ثم بيزنطة (١) ، أصبحت بعد الفتح العربي ترسل القمح الى الحجاز . وقد استمرت عادة ارسال القمح الى

(١) وفي المرسوم الذي أصدره جستنيان والذي يحدد أنواع الضرائب كانت ضريبة القمح مقدارها ٨ مليون أردب .

الحجاز حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز الى الشام ثم الى العراق . يذكر المقرئ أن من فضائل مصر أنها تدير الحرمين الشريفين وتوسع على أهلها .

وكان من أسباب حفر خليج أمير المؤمنين ربط الفسطاط بالقلزم على ساحل البحر الأحمر ، وانطلاق السفن منها تحمل الغلال والطعام الى أهل الحجاز ، وذلك منذ بداية الفتح ، يقول ابن عبد الحكم : « فلما قدمت السفن الى الحجاز خرج عمر حاجا أو معتمرا ، فقال : سيروا ننظر الى السفن التي سيرها الله إلينا من أرض فرعون حتى أتتنا » .

كان القمح يزرع في سائر أنحاء البلاد ويزرع في الصعيد على أثر الشعير ويذكر ابن الكندي أن مصر كانت تشتهر بالقمح اليوسفي الذي لا نظير له في خارج مصر . وقد عرف المصريون طريقة استخلاص الحبوب ، فكانوا يستعملون النورج منذ العصرين اليوناني والروماني لدرس القمح والشعير والفول والعدس والحمص والحلبة ، فتفصل الحبوب من سنبليها ، وظل النورج وصناعته من الخشب مستعملا حتى وقتنا الحاضر في سائر أنحاء البلاد . وبعد أن يدرس بالنورج يذرى بالمذراة لفصله عن عيدانه وعن سنبله وعن القشور التي تكسو حباته ، وذلك تمهيدا لتنقيته وطحنه وتحويله الى دقيق .

وتشير أوراق البردي الى حركة التجار التي كانت نشيطة للغاية في مصر في عصر الولاة ، حيث كان تجار الحبوب أو ما يطلق عليهم الحبوبيين يعملون على شراء القمح وأنواع الغلال الأخرى ونقلها الى العاصمة الفسطاط ، ففي إحدى أوراق البردي التي ترجع الى القرن الثاني الهجري يتضح أن شخصا يدعى إبراهيم النوتي صاحب إحدى المراكب النيلية دفع له أحد الأشخاص مبلغا قدره سبعة عشر دينارا ، لحمل مائة وخمسين أردبا من القمح ونقلها الى الفسطاط ، وتشير بردية أخرى الى شهرة مدينة الأشمونين ونواحيها بإنتاج القمح ، وطلب التوجه الى المدينة لحمل القمح ونقله الى العاصمة ، كما تكشف لنا بردية ثالثة تشتمل خطابا موجهًا بشأن التموين وحمل الحبوب من مدينة ادفو بصعيد مصر الأعلى بالمراكب . وهناك بردية ورد فيها مقدار الغلال والحسابات الخاصة بذلك بلغت نحو ثلاثمائة وثلاثين أردبا من القمح .

وهكذا يظهر لنا أن الحبوبيين وتجار الغلال كانوا منتشرين في سائر

الأنحاء من أجل شراء القمح وحمله بواسطة المراكب على صفحة النهر الخالد
الى القسطاط (٢) .

أما عملية الطحن للقمح وتحويله الى دقيق ، فقد كانت تقوم بها فى ذلك الوقت مجموعة من المطاحن العامة فى القسطاط وفى غيرها من المدن المصرية ، ومجموعات من المطاحن الخاصة التى كان يمتلكها الموسرون من الناس فى بيوتهم لطحن غلالهم ، وكانت عبارة عن طواحين صغيرة يديرها عبيدهم وجواريتهم .

وكان أهل القرى عادة يشتركون فيما بينهم فى تكاليف إقامة طاحون خاص للقرية كلها فى دار واحد منهم أو فى وسط القرية ، فيصبح كل منهم الحق فى الانتفاع بهذا الطاحون لطحن غلاله ، وكانت هذه الطواحين تدار بالثيران ، فان كان عند الرجل منهم طحين يأخذ ثوره ، ويعلق ويطحن عليه . أما المطاحن العامة فهى تلك التى كان يمتلكها طحانون ليطحنوا بها القمح وغيره من الحنطة فيمن يرغب من الناس بالأجر ، وغالباً ما توجد مثل هذا النوع من المطاحن فى المدن وبخاصة مدن الدلتا (٣) .

ويذكر ابن عبد الحكم فى وقت مبكر أن مسلمة بن مخلد كان يشرف على الطواحين بالقسطاط ، ومن المعروف أنه تولى شئون البلاد كاملاً عليها فى عهد معاوية بن أبى سفيان وذلك فى سنة ٤٤ هـ .

وكان المصريون يقطعون حجارة الطواحين من جبل رخام بالقرب من أسوان (٤) ، ومن جهة جبل المقطم ، وقد اشتهرت مصر بهذه المحاجر ، وكان المصريون يستغلونها قبل الفتح العربى بزمان طويل ، فكان هناك

(٢) تشير احدى البرديات الى المبالغ التى تسلمها عدد من القماحين ، وكان الدينار ثمانية ١٥ - ٢٠ وية من القمح اليوسفى .

أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .

- يمدنا السيوطى بأنواع المكاييل السائدة فى مصر ، ويذكر أن الكيل مختلف فى مصر وكان الأردب عبارة عن ست ويات ، والوية أربعة أقداح ، والقده مائتان واثنان وثلاثون درهماً

حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

(٣) يذكر الشريينى أن أهل بلاد الساحل وهى المدن التى تقع على شاطئ البحر المتوسط يطحنون بالأجرة ، وطواحينهم كلها كانت تدار بالخيول مثل سائر المدن الأخرى .
من القحوف ، ص ١٩٣ .

(٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧١ . ويبدو أن المقصود به حجر الجرانيت ،

صناع لأحجار الطواحين في كل من أرسينوى (الفيوم) والبهنسا
وأفرديتوبوليس (كوم اشقاو) .

ويشير ابن اياس الى فضائل مصر ويقول : « وبها حجر الصوان
المانع الذي يعمل منه الأعمدة وحجر الطواحين والمعاصر ، ولا يوجد هذا في
بلد غير مصر » .

وقد أقيمت من المطاحن العامة بمدينة الفسطاط يتناسب مع نمو
المدينة واتساعها ، وتطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في حاضرة مصر
الاسلامية ، ويذكر المقرئى أنه كان بها خط الطواحين ويقع في جنوب
الفسطاط ، وهو على هيئة صفيين كاملين من طواحين متلاصقة بجوار بعضها
البعض حتى أن المار بين هذين الصفيين كان لا يسمع حديث رفيقه اذا حدثه ،
وذلك لشدة دوى الطواحين أثناء دورانها . وكان من جملتها طاحون واحد
يشتمل على سبعة أحجار . وبطبيعة الحال لم يكن خط الطواحين ليقام بين
يوم وليلة ، ولكن الأرجح أنه تم ذلك حتى العصر الفاطمى .

ولم يقتصر وجود المطاحن والمعاصر على الفسطاط أو غيرها من المدن
والكور المصرية ، بل كانت تستخدم أيضا لطحن القمح وعصر الزيوت
والنبيد في الأديرة التي كانت في وادى النطرون ، وفي مناطق البحر
الأحمر (٥) ، وفي دير طور سينا ، ودير أسيوط ، حيث كان يوجد فيها
عدة طواحين وأفران لصناعة الخبز بها .

وقد نشطت حركة طحن الغلال أيام الطولونيين خاصة بعد أن تم
تشبيد القطائع ، واقامة المساجد والطواحين والأفران والأسواق بها ، وذلك
تلبية لاحتياجات الجند والعساكر ، فقد بلغ عدد الجيش الطولونى سبعون
الف آنذاك .

وتشير المصادر الى أن القمح في عصر ابن طولون كان يشتري عشرة
أرانب بدينار ، وفي عصر خمارويه ثلاثة أرانب بدينار ، وكان هذا السعر
الآخر يعتبر من أرخص الأسعار في العصور الوسطى ، ولا غرابة في ذلك
فقد توفر وجود القمح ، ويحدثنا المقرئى أنه استغل في الزراعة نحو
مليون فدان في العصر الطولونى . وقد خلا من الأزمات الاقتصادية وامتاز

(٥) وجدت مطاحن وعصارات في الأديرة ، بقى منها الطاحونة الموجودة في دير أنبا بولا
بالبحر الأحمر ، كما توجد طاحونة امام مدخل كنيسة السيدة مريم العذراء في دير
السريان .

بالرخاء وزيادة الانتاج . ومما لا شك فيه أن كثرة توافر الحبوب والغلل ورخص أسعارها يزيد من نشاط حركة الطواحين في كل وقت وحين .

وقد ورد في سيرة الماذرائيين ، أنه لما قدم مؤنس الخادم من بغداد الى مصر ، بعد أن خلع عليه الخليفة المقتدر في شهر ربيع الأول من سنة ٣٠٢ هـ ، استدعى أبو علي الحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور الدقاق ، وكان له بمشتول مقدار ستون ألف أردب من القمح ، فكان يقوم له ما يحتاج اليه من دقيق نحو شهر تقريبا .

وكان للماذرائي هذا من سعة الحال حتى أنه يملك له في كل قرية واحدة كمشتول هذه المقادير من القمح (٦) ، يذكر ابن زولاق أنه منع الطحان الذي كان يعمل في طحن هذه الغلال أربعمائة دينار كانت باقية لديه .

وتعدنا المصادر التاريخية والأثرية بأسماء عدد من الطحانين أو الدقاقين كما كان يطلق عليهم في ذلك الوقت ، فالدقاق هو الذي كان يقوم بطحن الغلال . وفي بردية ترجع الى عهد ابن طولون ، ورد في عقد زواج مؤرخ في شوال سنة ٢٦٤ هـ اسم سري بن عبد الله الطحان وقد شهد على ما جاء في ذلك العقد . كما وردت أسماء مجموعة من الدقاقين أو الطحانين على عدد من شواهد القبور باسم ابراهيم بن يحيى الطحان ، وشاهد آخر باسم أحمد بن يحيى الطحان المتوفى سنة ٢٩١ هـ . كما ورد اسم كل من موسى بن كامل الطحان ، ومحمد بن عيسى بن سليمان الطحان، ويظهر أن أفراد أسرة يحيى بن الطحان ، قد توارثت تلك الحرفة في عهد الطولونيين والاشقيديين ، فقد ورد شاهد آخر بتاريخ ٣٥٦ هـ / ١١ يونية ٩٦٧ م باسم أحمد بن عبد الله بن يحيى الطحان ، كما أن من أفرادها

(٦) وردت في قوانين الدواوين ، والتحفة السنية اسم مشتول الطواحين وهي جهة من أعمال الشرقية ، وواضح من الاسم أنها كانت تضم عددا كبيرا من الطواحين التي كانت ضمن اقطاع أبي علي الحسين بن أحمد الماذرائي . وبلغت مساحتها في العصر المملوكي نحو ١١١٤ فدان .

ابن مناتي : ص ١٧٦ ، ابن الجيعان ، ص ٤٠ .

من جمع بين احترافه لطحن الغلال ، والاشتغال بالعلم ، فقد ذاعت شهرة أبي بكر الطحان في ذلك الوقت حتى أنه أصبح من كبار العلماء والحفاظ والمحدثين المشهورين في عصره .

وفي عهد الاخشيديين نشطت حركة تجار الغلال ، وكانت هناك سمسرة في الأشمونين وغيرها من المدن المصرية يعملون على شراء وارسال الحبوب الى القسطنطينية في المراكب النيلية ، وتشير إحدى أوراق البردي التي ترجع الى أوائل القرن الرابع الهجري الى قوائم بحساب تاجر غلال من الأشمونين يبدو أنه كان من هؤلاء السماسرة .

وكان من مظاهر البذخ والثروة في ذلك العهد توزيع مقادير وفيرة من جرايات الدقيق على رجال الحاشية وأهل السيرة ، يدلنا على ذلك ما ذكره المقرئزي أنه حينما حج الماذرائي الكاتب لدى الاخشيديين في إحدى السنين أمر بطحن مقادير كبيرة من القمح وتوزيعها على رجال البلاط الاخشيدى .

كما اشتهرت بلبيس بكثرة القرى والمزارع وطواحين الغلال في عصر الاخشيديين وأوائل العصر الفاطمي ، وكانت تدير أهل الحجاز بالدقيق والكعك ، وقد أحصى المقدسي ما حمل منها في أسبوع واحد فبلغ ثلاثة آلاف جمل من الحبوب والدقيق ، مما يدل على كثرة المطاحن الموجودة بها آنذاك ، ومن الجدير بالذكر أن بلبيس وفاقوس بالقرب منهما كانت في ذلك الوقت في ضمان الحسين بن طاهر ، يذكر ابن سعيد أنه أرسل الى أخيه الحسين بن طاهر أحد كتاب الاخشيد يسأله الاعفاء من هذا الضمان وكتب الحسين الى أخيه الحسن : « قد أعفأك من ضمان فاقوس وبلبيس وضمنهما من يقدر عليهما » .

وكانت تنيس من المدن الهامة في العصر الاسلامي ، ومما يذكر أنها كانت تحتاج من الأقوات والطعام في كل سنة من الحنطة والشعير والقطنى مائتا ألف أردب ، وكان بها من الطواحين مائة وستون ، فيها ما يشتمل على مدار ، ومنها على مدارين ، ومنها ما يشتمل على خمسة أحجار كما أنه كان يوجد من المطاحن العامة في القسطنطينية .

وفي أواخر عهد الاخشيديين وقعت الأزمات والأوبئة ، نتيجة الغلاء في الأسعار وعدم وجود القمح ، فمن ذلك ما وقع سنة ٣٤٣ هـ . فقد عظم الغلاء حتى بيع القمح كل ويبتين ونصف دينار (٧) ، ثم طلب فلم يوجد ، واستمر ذلك الغلاء تسع سنوات متتالية مرة أخرى حين بدأ في سنة

(٧) الأردب ست ويات - حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

٣٥٢ هـ ، ولا شك أن ذلك كان يعمل على تعطيل حركة الطواحين وازداف هؤلاء الطحانين .

ومن الجدير بالذكر أن نقصان مياه النيل كان له أثر كبير في وقوع مثل هذا الغلاء وأمثاله على امتداد العصور الوسطى ، وكان يعقب الغلاء انتقاص الأعمال وكثرة الفتن ونهب الضياع والغلال وأسواق البلاد ، وهكذا كان يتعذر وجود الأقوات حتى يبلغ بيع القمح كل وية بدينار .

ولما قدم جوهر الى مصر ، كان مما نظر فيه أمر الأسعار ، وضرب جماعة من الطحانين وطيف بهم ، وعمل على انتهاء أزمة الغلال ، فجعل الحبوبيين والسماسرة بإمكان واحد ، وأقرهم بعدم بيع الغلال إلا في موضع بعينه حدد له بالفسطاط ، ولم يجعل لهذا السوق غير طريق واحدة تسلكه الناس للشراء ، فكان لا يخرج قدح قمح الا ويقف عليه سليمان ابن عزة المحتسب .

على أن هذه الوسائل لم تؤد الى انفراج الأزمة نهائيا (٨) ، واستمر الغلاء الى سنة ٣٦٠ هـ ، حتى كثر الموت وعجز الناس عن تكفين الأموات ودفنهم ، ولم تهدأ حدة الغلاء الا بحلول عام ٣٦١ هـ حينما أوفى النيل ، وأخصبت الأرض وانحل السعر وحصل الرخاء .

وقد عمل الفاطميون بعد ذلك على انشاء الأهرام السلطانية (٩) ، فكانت تزود بالغلال من أنحاء البلاد ، وخاصة من جهة متفلوط بالقرب من أسيوط ، أما الأعمال في الوجه البحري فكان يحمل ما فيها من الغلال الى الاسكندرية . وكان ما يتفق من هذه الأهرام أو المخازن في الطواحين برسم خاص الخليفة (١٠) . وما كان يصرف منها جرايات وما يعمل برسم الكعك

(٨) وكان من حسن الحظ أن المعز لدين الله لما علم بفتح البلاد ، بعث الى قائده جوهر في مصر بعدد من السفن المحملة بالحبوب ، مما خفف على أهل مصر كربهم ودحا من الزمن . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٧٩ ، كذلك أنشأ جوهر في الوقت نفسه مخزنا عاما للحبوب عهد برقايته الى المحتسب ، وكانت مهمته منع احتكار الحبوب والافراد بتقدير أثمانها .

(٩) يذكر المقرئ أن موضع خزن الغلال في القاهرة كان وراء القصر السلطاني فيما يلي دار الوزارة والحجر التي أنشأها المعز لدين الله ، وكان يسمى بالمناخ السعيد ، الخطاط ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(١٠) كان للفاطميين عدة مخازن لحزن الحبوب في عدة أماكن بالقاهرة والفسطاط والمقسم ، ومنها كانت توزع الغلال والحبوب على أرباب الروابي والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية وغيرها . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٩ .

(٤٤٩ - ٥٥٥ هـ) (١٧) ، وكان بالأهراء من الغلات ما لا يحصى فأخرج جملة كثيرة من الغلال وفرقها على الطحانين ، وأرخص سعرها ومنع من احتكارها ، وأمر الناس ببيع الموجود منها .

وهكذا ارتبط نشاط السماسرة وتجار الحبوب ، والطحانين في مصر ارتباطا وثيقا بما كان يقع من الأزمات أو المجاعات بسبب نقصان النيل والفتن والثورات ، وبما تقوم به السلطة الحاكمة تجاه احتكار الحبوبيين للقمح والغلات الأخرى ، والعمل على توفير الأقوات وتوزيع الغلال على المطاحن العامة بالأسعار المحددة أثناء وقوع مثل هذه الموجات المتلاحقة من الغلاء حتى نهاية العصر الفاطمي .

(١٧) بلغ سعر الأردب فيه خمسة دنانير لقصور ماء النيل ، المقريري : إغاثة الأمة . ص ٢٧ .

٢ - صناعة الخبز والحلوى

يتصل بحرفة طحن الغلال وما يتعلق بها بشكل مباشر القيام بعمل أنواع الخبز لسائر أفراد الشعب وما يتم اتفاقه في دار الإمارة أو داخل القصور التي تضم الحاكم ورجال حاشيته وبلاطه .

وكانت طائفة الخبازين من أصحاب الحرف اليدوية كالطحانين والحدادين والتجارين وغيرهم ، وكانت حرفتهم من أهم الحرف التي يحتاج إليها الجميع ، لاسيما في المدن المصرية المختلفة .

وتشير المصادر الى أن صناعة الخبز كانت موجودة في مصر قبل الفتح العربي ، ويتضح ذلك من قائمة أحد الخبازين بمدينة إيهنسا وكانت من المدن الهامة في الصعيد الأوسط ، فقد أوضحت لنا نوع الانتاج من الخبز المعمول والفطائر والمقادير بشكل يكفى حاجة السكان بالمدينة . كما بينت تلك الأنواع العديدة من الحلوى التي أجاد الصنائع عملها ، وكان اقبال سكان المدينة والمدن الأخرى المصرية عليها اقبالا شديدا .

كانت الأفران تفرق على أطراف المدن ، فكانت كل نخطة كما في الفسطاط في عصر الولاة ، يخصص لها من هذه الأفران ، وهي بطبيعة الحال تزداد أعدادها بتوسع المدن وتبهرها في العمران . وكان على الفرانين أن يرفعوا سقائف أفرانهم ، ويجعل في سقوفها منافس واسعة للدخان .

ولا شك أن الأفران كانت تستخدم دقيق الحنطة أو القمح لصناعة الخبز في العصر الاسلامي ، ويظهر من قول المقرئ أن الناس وسكان المدن على وجه الخصوص كانوا يفضلون أكل الخبز بعد أن يتم خبزه بالأفران مباشرة مما يتطلب معه دوام الحركة ونشاط الخبازين في كل

يعمل بالمخابز والمطابخ الخلافية ، يذكر ابن الطوير أنه كان إذا أوفى النيل وطالع ابن الرداد ذلك فانه يؤمر بأن يحمل الى المقياس من المطابخ عشرة قناطير من الخبز السمين وغير ذلك من أنواع اللحوم والمأكولات يرسم قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم فيستعملون ذلك .

وفي سنة ٣٩٨ هـ ضرب جماعة من الخبازين ، وشهر بهم في العاصمة ، وذلك لتعذر وجود الخبز ، واشتداد الأمر ، وعدم مراعاتهم للشروط التي يجب أن تكون صناعة الخبز مستوفية لها .

وفي عهد الخليفة الظاهر ، وفي سنة ٤١٥ هـ على وجه التحديد ضرب عدد من الخبازين على خلطهم الطفل المسحوق بالأخباز ، وقد تزايد أمر الغلاء ، وطلب المحتسب الى القصر وطولب بعمارة البلد بالأخباز والقمح الى حين ادراك الغلة ، فأطلق القمح من المخازن للطحانين ، وأمر ببيع الخبز رطلين ونصفا بدرهم ، وقرىء سجل بأسعار بيع الخبز على أساس الخبز السمين رطلان بدرهم وربع ، والخبز الحواري رطلان بدرهم .

ولم يقتصر عمل المخابز والأفران في العصر الفاطمي على أنواع الخبز لبيعه في حوانيت الخبازين في الأسواق ، بل كانت تخبز لمن يرغب من الناس ، وما كان يعرف بخبز البيت أو الخبز البيوتي ، وكان يتعين على المخابز أن تستخدم بعض النساء أو الغلمان لاحضار العجين من بيوت أصحابه وإرجاعه لهم مخبوزا لما تفرضه طبيعة عملهم من غشيانهم البيوت والاختلاط بالنساء . وقد ذكر ابن الحاج أنه في حالة مخالفة القواعد التي ينبغى على الخبازين اتباعها في عمل الخبز ، فيجب أن يرد الى القرن لانه لا يعطى الأجرة للصانع الا أن يحكم صنعته .

ومن الواضح أن الخبازين كانوا يقومون بخبز الدقيق لأصحابه في مقابل أجر معين لهم ، وكان على صاحب الخبز اذا وقع له في خبزه شيء من الضرر - وكان ذلك نادرا - أن يسامح الصانع أو الخباز في ذلك فلا يغرمه له ، الا اذا بلغ الخبز درجة من السوء بشكل يصعب تناوله ، فله اتساع في هذه الحالة في تغريمه أو تركه ان شاء .

وقد شاعت صناعة الكعك في العصر الفاطمي ، وكانت نوعا من الخبز الجاف ، يصنع من جريش الحنطة « ويجفف » وكان يسمى كعكا ، وكما يقول المقرئ : « وكان أكثر أكلهم على طوال العام من هذا الخبز » .

وكان يصنع من ذلك الكعك زاد رجال الأسطول ، كما كان هذا

النوع من الخبز شائع الاستعمال على موائد الفاطميين ، حيث يخبز منه في الأفران التابعة للقصر ، ويخرج منه في ليالى الوقود برسم الجوامع على شكل أسمطة من الكعك والخشكنانج (٦) والحلوى وما الى ذلك .

ومما لا شك فيه أن سخاء الفاطميين في الأعياد والمواسم كان يفوق الوصف ، وأن ذلك كان يتطلب من الفرنين والخبازين وصناع الحلوى التابعين للقصور الفاطمية النشاط المستمر في عملهم ، يصف لنا المقرئى كثرة ما كان يعمل في القصور برسم الاحتفال بيوم فتح الخليج من أنواع الخبز وأصناف المأكولات والحلوى .

كما يصف تلك الظروف والأحوال السيئة وتعطل حركة الخبازين في أوقات الشدة والمجاعات ، فضلا عن احتكارهم ونزائدهم في الأسعار ، فقد ذكر النويرى أن رغيف الخبز بيع بأربعة عشر دينارا أو درهما وبيع أردب القمح بمائتى دينار أيام الشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر ، وقال ابن الزيات ان ثمن الأردب بلغ احدى وسبعين دينارا .

ولا شك أن الأمور كانت لا تلبث أن تعود الى طبيعتها ، لاسيما بعد ارتفاع النيل وانحلال الأسعار ، حتى يستأنف أصحاب الأفران في عمل الأخباز المطلوبة . كما كان الأهالى يعملون على ارسال الدقيق الى المخازن لعمل أصناف ما يرغبون فيه من أنواع الخبز ، وبطبيعة الحال كان يتعذر عليهم فعل ذلك في أوقات الشدة ووقوع الغلاء .

أما الخبازون والفرانون في أفران الجرايات من هؤلاء الفرنج الذين كانوا يعملون برسم القصور الفاطمية ، فانهم كانوا يستأنفون نشاطهم في تجهيز أنواع الخبز وأصناف المأكولات والحلوى ، بعد انكشاف الغمة وزوال الشدة . وقد استمر الحال على ذلك حتى أواخر أيام الفاطميين ، وقد ذكر المقرئى ما كان يعمل يوم فتح الخليج ، فكان من بين ما أخرج في عهد الأمر ووزيره المأمون سنة ٥١٨ هـ ، وما يخص فقط المبيت في المقياس بجميع الشهود والمتصدرين من الخبز عشرة قناطير وعشرة خراف وعشر جامات حلوى وعشر شمعات .

وخلاصة القول أن الفرنين والخبازين وغيرهم من الدقائين أو الطحانين كانوا من أصحاب الحرف الهامة في مصر والقاهرة والمدن المصرية

(٦) الخشكنانج : لفظ فارسى وهو يطلق على الحلوى التى تصنع من دقيق السميد الذى يعجن وييسط ويضاف اليه السكر واللوز المقشر والكافور وقليل من ماء الورد .
الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٩١ حاشية .

الأخرى ، ولا غرو فقد كانت الحاجة ماسة الى اعمال ايديهم فى كل وقت سواء فى طحن الحبوب والفلال ، أم فى عمل أصناف المأكولات من الخبز والحلوى تلبية لاحتياجات سكان هذه المدن ، فضلا عن مطالب القصور الطولونية والاخشيديّة وسائر المناسبات والاحتفالات التى كانت تجرى فى قصور الفاطميين وخارجها .

٣ - صناعة استخراج الزيوت

تشير المصادر الى أن استخراج الزيت فى مصر منذ العصر البطلمى كان قاصراً على هؤلاء الملزمين الذين اشتروا من الحكومة حق الترخيص بمزاولة تلك الصناعة (١) . وكان على الحكومة فى العصرين البطلمى والرومانى أن توفر لهم من المواد الخام والأيدى العاملة ، كما فرضت أقصى العقوبات على كل من يحاول استخراج الزيت خفية بعيداً عن أنظارها والا قدم للمحاكمة . كما تشير الأدلة التاريخية الى أن صناعة الزيت لم تعد الحكومة تحتكرها احتكاراً كاملاً فى العصر الرومانى على نحو ما كانت تفعل فى عصر البطالمة (٢) .

والواقع أن زراعة المحاصيل الزيتية فى مصر مثل السيسم والزيتون والكتان والقرطم ظلت كما هى منذ العصور القديمة وإن طرأ عليها بعض

(١) نشر عالم اليرديات بل أوراق البردى اليونانية ، وأوضح أن الزيت كان هو الاحتكار الوحيد لدى الحكومة وقد تضمنت عنه أوراق البردى معلومات وافية - الهلنينية فى مصر ، ص ٧١ .

(٢) أمين الحولى وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، ويذكر :
أن الوثائق البردية التى نشرها جرنفل باسم « قوانين الدخل لبطليموس فيلادلفوس » قد اشتملت على معلومات وفيرة عن هذا الاحتكار . مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٦٦ ، نقله الى العربية د. عبد اللطيف أحمد على .

وكان الزيت يستخرج من مصانع خاضعة للرقابة الحكومية ، يعمل بها عمال لا يسمح لهم بمغادرة أماكن إقامتهم طوال موسم الغزل بزعم أنهم كانوا أحرار لا عبيد ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

التقدم فى العصرين الرومانى والبيزنطى (٣) ، الا أنها استمرت دون تغيير يذكر حتى القرن التاسع عشر .

كان المصريون يستخرجون زيت الزيتون من مناطق زراعته بنواحي الفيوم والاسكندرية قبل الفتح العربى ، ويدكر استرابو فى القرن الاول بعد الميلاد أن اقليم الفيوم (أرسينوى) كان هو الاقليم الوحيد المنزرع بأشجار الزيتون الكبيرة الكاملة النمو ، وأنه اذا ما جمع المحصول بعناية يمكن الحصول منه على كميات وافرة فى ذلك الوقت . وقد استمر استخراج زيت الزيتون من تلك الجهات فى العصر الاسلامى ، وقد رآه المقدسى فى نواحي الاسكندرية .

وكان الكتان من المحاصيل الزيتية أيضا (٤) ، فهو يغل من البذور من ثلاثة أرادب الى ستة أرادب ، ومن أشهر مراكز زراعته مصر الوسطى والفيوم ومناطق الدلتا . ويشير المقدسى الى المحلة الكبرى انها كانت مركزا هاما لزراعة وعصر الزيت ، وبلغ من شهرتها أن شبهها بمدينة واسط ببلاد العراق .

كما كان السمسم من أهم المحاصيل التى تزرع فى مصر وينتج منها الزيت ، وكان الفدان ينتج من أردب واحد الى ستة أرادب ، وأشارت أوراق البردى الى عصر السمسم واستخراج الزيت منه فى عصر الولاة ، كما ذكرت أسماء أصحاب معاصر للزيت ، منها عقد بيع معصرة زيت عثر عليه بجهة أدفو سنة ٢٣٨ هـ ، وكان اسم صاحبها يدعى النضر الزيات . كما ورد اسم اصطفن صاحب معصرة للزيت فى ذلك العصر أيضا . ومن شواهد القبور التى عثر عليها أمكن معرفة اسم يحيى بن يونس الزيات ، وقد ورد اسمه على شاهد رخام يحمل اسم ابنته عمره ويرجع تاريخ وفاتها الى سنة ١٨٧ هـ .

ومن الجدير بالذكر أنه فى أعقاب الفتح ، كما يذكر ابن عبد الحكم كان من أرواق المسلمين على أهل الذمة من الحنطة والزيت مديان من حنطة

(٣) مما يدل على استخراج الزيت بشكل منظم فى ذلك العصر ما فرضته الحكومة الرومانية على تجار الزيت من ضرائب ، ففى أرسينوى إحدى جهات الفيوم كان التجار يدفعون ثمانى درخمت شهرىا .

(٤) ترجع أقدم اشارة الى استخراج زيت بذر الكتان الى العصر البطلمى ، حيث استعمله المصريون فى طهو الطعام وكوقود لاضاءة المصابيح .

الفريد لو كاس : المواد والصناعات ، ص ٥٤٦ .

(١) كانت ادفو كورة قائمة بذاتها فى القرن الثالث الهجرى بالصعيد .

